مكتبة ياسمين

تُوفه يانسون

بابا مومين والبحر

بابا مومين والبحر

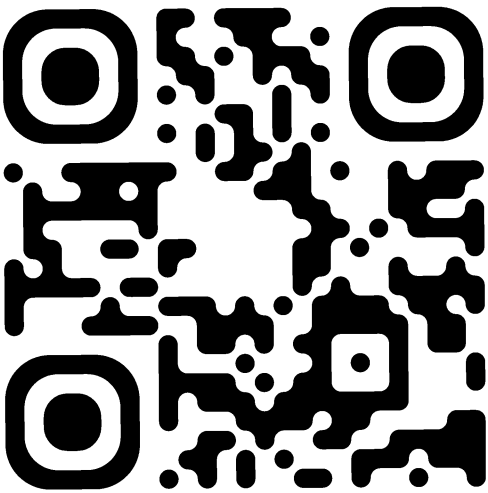

telegram @
yasmeenbook

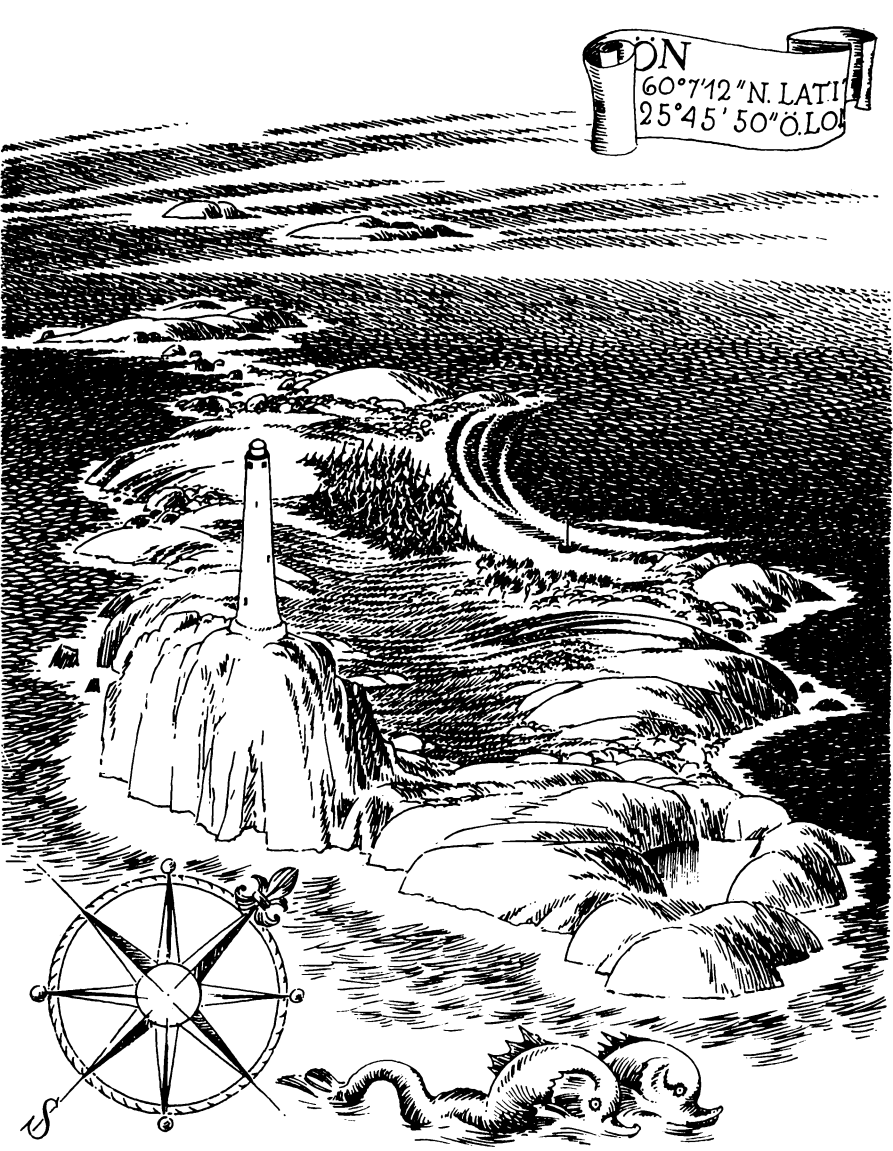

الخليج الفنلندي

تُوفَه يانسون

بابا مومين والبحر

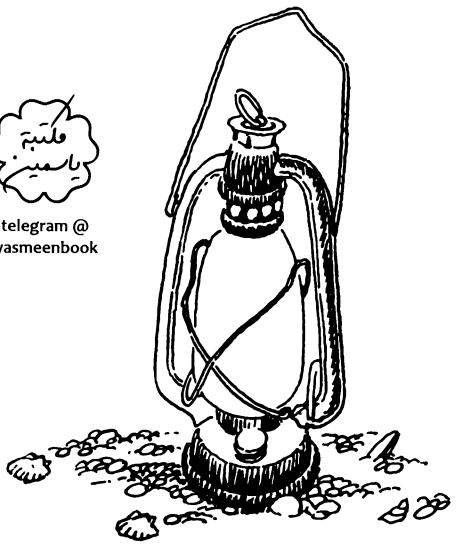

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

النص العربي: سكينة إبراهيم

دار المنى

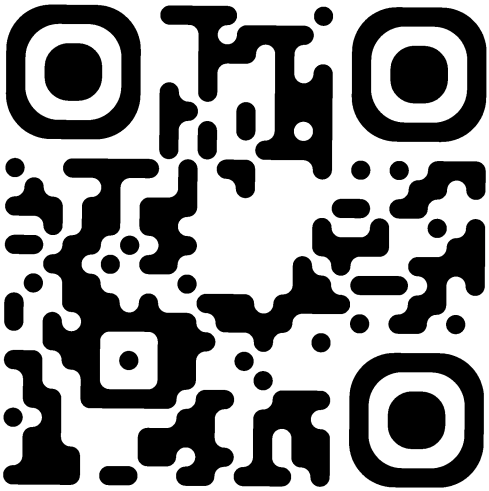

Arabic edition Dar Al-Muna 2015
© Text & illustrations: Tove Jansson 1965
Original title: Pappan och havet
Arabic text: Sukainah Ibrahiem
First Published by Schildts Förlags AB, Esbo, Finland
All rights reserved
Printed in Sweden
ISBN 978-91-87333-35-4

Dar Al.Muna
Box 127
SE-182 05 Djursholm
Sweden
www.daralmuna.com

المحتويات

العائلة في الكرة البلوريّة
المنارة
الرياح الغربية
الرّياح الشّماليّة الشّرقيّة
الضّباب
القمر الآفل
الرّيح الجنوبيّة الغربيّة
حارس المنارة

العائلة في الكرة البلّوريّة

في عصر يوم قُبيل نهاية شهر آب كان بابا مومين يتمشّى في حديقته وهو في حيرة من أمره. إذ لم تسعفه أيّ خاطرة عما يمكنه أن يشغل نفسه به، وذلك بعد أن بدا له أن كلّ ما ينبغي عمله قد أُنجز، أو قام به شخص آخر.

تسكّع بابا مومين في حديقته على غير هدىً، وذيله يكنس الأرض خلفه على نحو سوداويّ. هنا، في أسفل الوادي كانت الحرارة حارقة؛ كلّ شيء ساكن وهامد وليس مُتربًا ولا قليلًا، وهو الشّهر الّذي قد تحدُث فيه حرائق غابات عظيمة، الشّهر الّذي يتطلّب التزام جانب الحذر الشّديد.

كان قد أنذر العائلة. وشدّد مرارًا وتكرارًا على ضرورة التّنبّه والاحتياط في شهر آب. أسهبَ في وصف الوادي المُشتعل، وفحيح النيران، وجذوع الأشجار الملتهبة، والنّار المُلحفة في زحفها على الأرض تحت الأُشْنَة. أعمدة لهب تعمي البصر ترتفع عاليًا نحو سماء اللّيل! أمواج من النيران تتسارع على جانبي الوادي وتنحدر نحو البحر...

– «تُلقي بنفسها في البحر وهي تفحّ،» هكذا كان بابا مومين يُنهي حديثه برضا كئيب. «كلّ شيء فاحم السّواد، كلّ شيء مُحترق. ثمّة مسؤوليّة هائلة تقع على عاتق أصغر مخلوق يستطيع وضع يديه على عيدان الثقاب.»

كان أفراد العائلة يتوقّفون عن متابعة ما يشغلهم ويقولون: «نعم، طبعًا، نعم، نعم،» ثمّ لا يعيرونه مزيدًا من الاهتمام ويعودون إلى عملهم.

كانوا دائمًا مشغولين بعمل ما، بهدوء وبلا مقاطعة وبتركيز عظيم، واصلوا العمل بكلّ تلك الأشياء المِئة والواحد الصَّغيرة الّتي تحدّدُ عالمهم. عالم بالغ الخصوصيّة ومكتف ذاتيًّا؛ عالم لا شيء يمكن أن يُضاف إليه. هو مثل خريطة سبق أن اكتُشفَتْ جميع معالمها، مثل منطقة مأهولة كلّها وليس فيها رقعة شاغرة واحدة. يواصلون عملهم وكلّ منهم يقول للآخر: «هو يتحدّث دائمًا عن حرائق الغابات في شهر آب.»

ارتقى بابا مومين درجات الشّرفة، لصقت قدماه بالطّلاء كالمعتاد، فنجم عن ذلك صوت شفط خافت من بداية الشّرفة إلى كرسيّ الخُوص. لصق ذيله أيضًا، وبدا الحال كما لو أنّ أحدًا يشدّه.

جلس بابا مومين وأغمض عينيه. «لا مفرَّ من أن يُعاد طلاء هذه الأرضيّة،» فكّر. «الحرارة تجعلها هكذا طبعًا. لكنّ الطّلاء الجيّد لا ينبغي أن يبدأ في الذوبان لمجرّد أنّ الجوَّ حارٌّ. لعلّي استعملت النّوع غير المناسب من الطّلاء. إنّما يجب أولًا دَعكُ الأرضيّة بورق السّنفرة، مهمّةٌ كريهة لن يشكرني أحد عليها. مع ذلك هناك شيء مميّز يتعلّق بأرضيّة بيضاء جديدة مطليّة بفرشاة سميكة وورنيش لامع. على العائلة أن تستخدم الباب الخلفيّ، وتبقى بعيدة عن دربي بينما أفعل هذا. ثمّ أسمح للجميع بالقدوم وأنا أقول: ها أنتم! انظروا! ها هي شرفتكم الجديدة!... إنّ الجوَّ حارٌّ جدًّا. كم أودّ

أن أُبحِر. أُبحِر موغلًا في البحر، بقدر ما أستطيع...»

شعر بابا مومين بخدرٍ في راحتيه. نفضَ جسمه وأشعلِ غليونه. ترك عُود الثّقاب يشتعل في منفضة السّجائر، ولبث يراقبه مفتونًا. قبل أن ينطفئ نهائيًا مزّق قصاصات من ورق الصحيفة ومرّرها فوقه. انبعثت نار صغيرة جدًّا لا تكاد تُرى تحت ضوء الشّمس، إلّا أنّها اشتعلت بطريقة لطيفة. وراقبها باهتمام.

– «بدأت تخمد،» قالت ماي الصّغيرة الّتي كانت تجلس في الظّلّ على درابزين الشّرفة. «أضِف المزيد من الورق!»

– «أوه، هذا أنتِ!» هتف بابا مومين وهزّ منفضة السّجائر إلى أن خمدت النّار تمامًا. «أنا فقط أراقب طريقة اشتعال النّار. هذا مهم جدًّا.»

ضحكت ماي الصّغيرة وتابعت النّظر إليه، فأنزل طاقيّته مُخفيًا عينيه واتّخذ من النّوم ملجأ له.

– «بابا!» صاح مومين ترول. «انهض! أخمدنا توًّا حريق غابة!»

كانت قدما بابا مومين ملتصقتين بالأرضيّة. انتزعهما انتزاعًا وشعور قويّ بالنّفور يهيمن عليه. ليس في هذا أيّ عدل. «عن أيّ شيء تتحدّث؟» قال لابنه.

– «حريق غابات صغير حقيقي،» أخبره مومين ترول. «وراء رقعة التبغ تمامًا. كانت الطّحالب تشتعل، وتقول ماما إنّها على الأرجح شرارة من المدخنة...»

هبّ بابا مومين واقفًا، وفي ومضة عين أصبح رجل الإجراءات الحازمة. تدحرجتْ طاقيّته على الدّرج.

– «أخمدناها!» صاح مومين ترول. «أخمدناها فورًا. لا شيء يستدعي منكَ القلق!»

تسمّر بابا مومين. اعتراه غضب عارم. «هل أخمدتموها بدوني؟» قال. «لماذا لم يُخبرني أحد؟ تركتموني أنام من غير أن تُعْلِموني بشيء؟»

– «ولكن يا عزيزي،» تدخلّت ماما مومين وهي تتدلّى من نافذة المطبخ. «لم نر ضرورة لإيقاظك. كانت نارًا صغيرة، ولم ينجم عنها إلّا قليل من الدّخان. صدفَ أنّني كنت في طريقي ومعي بعض دِلاء الماء، لذلك لم أضطّر إلّا إلى رشّ بضع قطرات من الماء وأنا أمرّ...»

– «وأنت تمرّين؟» صاح بابا مومين. «رششتِ ماء. رششتِ، آه حقًا! يا لها من كلمة! وتركت النّار تشتعل تحت الأُشْنَة بلا مراقبة! أين هيَ؟ أين هي؟»

تركت ماما مومين عملها وقادت الطّريق إلى رقعة التّبغ. بقي مومين ترول في الشّرفة يحدّق فيهما. كانت البقعة السّوداء وسط الطّحالب صغيرة بالفعل.

– «لا تتخيّلي،» قال بابا مومين أخيراً وببطء بالغ، «إنّ بقعة كهذه ليست خطرة. بل هي بعيدة كلّ البعد عن كونها آمنة. ولعِلمك يمكن أن تستمرّ في التأجّج تحت الأُشْنَة. ويمكن أن تمرّ ساعات بل حتّى أيّام ثمّ فجأة بُووفْ! تندلع النّار في مكان آخر مختلف كلّيًّا. أتفهمين ما أعنيه؟»

– «نعم يا عزيزي،» أجابت ماما مومين.

– «لذا يجب أن أبقى هنا،» تابع بابا مومين وهو ينبش الأُشْنَة متجهّمًا. «سأحرس هذه البقعة. وقد أبقى طيلة اللّيل إذا اقتضى الأمر.»

– «أترى هذا حقًا؟» بدأت ماما مومين، ثمّ اكتفت بأن تقول، «نعم، هذا حسن جدًّا منك. المرء لا يعرف أبدًا ما قد يطرأ على الأُشْنَة.»

قضى بابا مومين فترة العصر كلّها يراقب البقعة الصّغيرة السّوداء، في

البداية انتزع الطحالب والحشيش من حولها. امتنع عن المغادرة والذّهاب إلى البيت من أجل عشائه. أراد من صميم قلبه أن يعتقد الآخرون أن كرامته قد جُرحت.

– «أتظنينه ينوي البقاء هناك طوال اللّيل؟» سأل مومين ترول أمّه.

– «هذا محتمَل جدًّا،» أجابت ماما مومين.

– «ما دام المرءُ متكدّرًا فهو متكدِّر،» أبدت ماي الصَّغيرة رأيها وهي تقشّر حبّة البطاطس بأسنانها. «يحتاج المرء إلى أن يغضب أحيانًا. كلّ مخلوق صغير لديه الحقّ في أن يغضب. لكن بابا غاضب بطريقة غير صحيحة. فهو لا ينفّس عما يعتمل فيه، ويكتم غضبه داخله!»

– «يا طفلتي العزيزة،» قالت ماما مومين، «بابا أدرى بما يفعله.»

– «لا أظنّ هذا،» أجابت ماي الصَّغيرة بلا مواربة، «هو لا يعرف أبدًا. أتعرفين أنت؟»

– «ليس تمامًا في الواقع،» اضطرت ماما مومين إلى الاعتراف.

دسّ بابا مومين أنفه بين الحشيش يتشمّم رائحة الدّخان الكريهة. ما عادت الأرض ساخنة ولا حتّى دافئة. أفرغ غليونه في الحفرة ونفخ على الشّرر. توهّج الشّرر برهة أو برهتين ثمّ خمد. خبط بقدميه البقعة المصيرية، ثمّ مضى يقطع الحديقة متمهّلًا ليلقي نظرة في أعماق كرته البلّوريّة.

كانت ظُلمة الغسق تنبعث من الأرض كحالها دائمًا وتتجمهرُ تحت الأشجار. بيد أنّ الكُرة البلّوريّة كانت محاطة ببقايا ضوء أكثر قليلًا. تلك الكرة البلّوريّة الّتي استقرّت هناك عاكسةً الحديقة كلّها، ورائعة الجمال على ركيزتها المرجانيّة. كانت كُرة البلّور الخاصّة ببابا مومين، كرته السّحريّة من الزّجاج الأزرق البرّاق، مركز الحديقة، مركز الوادي، ومركز العالم بأسره.

لكن بابا مومين لم ينظر فيها مباشرة. تأمّل أولًا راحتيه المُتّسختين، وحاول استجماع أفكاره المُشتّتة والمبهمة والمضطربة. عندما شعر أن حزنه قد بلغ مداه نظر في كُرة البلّور طلبًا للسلوى. اعتاد أن يفعل الشّيء نفسه في كلّ مساء من ذلك الصّيف الطّويل الدّافئ والجميل والسّوداويّ.

كانت الكرة البلّوريّة باردة دائمًا. وزرقتها أعمق وأوضح من زرقة البحر، وكانت تبدّلُ لون العالم وتجعلُه باردًا ونائيًا وغريبًا. في مركز هذا العالم الزجاجيّ رأى نفسه، رأى أنفه الكبير، وحوله رأى انعكاس طبيعة متحوّلة شبيهة بالحلم. كانت الأرض الزرقاء تستقرّ عميقًا عميقًا في قاع الكرة، وهناك، حيث الوصول بعيد المنال، بدأ بابا مومين يبحث عن عائلته. عرف

أنّه لن يضطّر إلى الانتظار طويلًا، فهم يأتون دائمًا. ودائمًا كانت الكرة البلّوريّة تظهر انعكاس صورهم.

هذا في الواقع شيء طبيعي، إذ لديهم الكثير ممّا عليهم عمله في الغسق. وهم طوال الوقت يقومون بشيء ما. وعاجلًا أم آجلًا ستحثّ ماما مومين الخُطى خارجة من المطبخ نحو القبو لجلب بعض المقانق أو الزبدة. أو لتقصد رقعة البطاطس. أو لتحضر بعض الحطب. وكلّما فعلت ذلك بدت كما لو أنّها تسلك دربًا مجهولة ومثيرة. إنّما لا يمكن أن يكون المرء متأكّدًا أبدًا. فهي قد تخرج أيضًا في مهمّة سرّيّة خاصة بها، ترى أنّها ممتعة، أو ربّما تمارس لعبة ما، أو حتّى تتمشّى من أجل المشي فقط.

ها قد أقبلت، تمضي قُدُمًا بسرعة مثل كُرة بيضاء نشيطة، موغلةً في أعماق أكثر الظّلال زرقة وأبعدها. وهناك مومين ترول، يمشي متحفّظًا ومحتفظًا بأموره لنفسه، وتلك ماي الصّغيرة أيضًا تتسلّل مرتقيّة المنحدر كأنّها مجرّد حالة من الحركة أكثر من أيّ شيء آخر، فالمرء لا يكاد يرى إلّا النّزر اليسير منها. هي أقرب إلى ومضة خاطفة من شيء عاقد العزم ومستقلّ، شيء مستقلّ إلى درجة أنّه لا يحتاج إلى إظهار نفسه. لم ينس طبعًا أنّ انعكاس صورهم في الكرة البلّوريّة يظهرهم صغارًا بشكل لا يُصدّق، وأن ذلك يجعل حركاتهم تبدو بائسة وبلا هدف.

أحبّ بابا مومين هذا. كانت تسليته المسائية. تسلية تجعله يشعر أنّهم يحتاجون حمايته، أنّهم في قعر بحر عميق لا أحد غيره يعرف عنه.

عسعَس اللّيل وبدأت الدّنيا تستتر بالظّلام. فجأة، حدث شيء مختلف في الكرة البلّوريّة: ظهر انعكاس ضوء. ففي تلك الفترة أضاءت ماما مومين مصباحًا في الشّرفة؛ المصباح الزيتيّ. وهو أمر لم تفعله طوال الصّيف. فجأة صار الشّعور بالأمان مركّزًا في نقطة وحيدة، في الشّرفة وليس في أيّ مكان

آخر. وفي تلك الشّرفة جلست ماما مومين تنتظر عودة أفراد عائلتها إلى البيت لتقدّم لهم شاي المساء.

عتّمت الكرة البلّوريّة وتحوّلت زرقتها إلى سواد، المصباح وحده كان مرئيًا. وقف بابا مومين في مكانه فترة من غير أن يستشفّ كُنه الأفكار الّتي راودته، ثمّ استدار وقصد البيت.

– «حسنًا،» بدأ بابا مومين، «أعتقد أننا نستطيع الآن أن ننام بسلام. ينبغي أن يكون الخطر قد زال. ولكن على سبيل الاحتراز سأتفقّد البقعة مرّة أخرى عند الفجر.»

– «هه!» همهمت ماي الصَّغيرة.

– «بابا،» صاح مومين ترول، «ألم تلاحظ شيئًا؟ لدينا مصباح الآن!»

– «نعم، رأيت أنّه حان الوقت لنضيء المصباح بعد أن أصبح المساء يبكر في الحلول. على الأقلّ هذا ما شعرت به اليوم،» وضّحت ماما مومين.

عندئذ قال بابا مومين: «أراك أنهيتِ الصّيف. لا يجب أن يُضاء أيّ مصباح قبل أن ينتهي الصّيف فعلًا.»

– «حسنًا، لا بدّ من أننا أصبحنا في الخريف إذًا،» أجابت ماما مومين بطريقتها الهادئة.

أزّ المصباح وهو يشتعل. وأشاع جوًّا من الأمان والحميميّة لدى حلقة عائليّة صغيرة يعرف أفرادها بعضهم بعضًا ويتبادلون الثّقة. خارج الحلقة يكمن كلّ ما هو مجهول ومخيف، والظّلام بدا أنّه يرتفع أعلى فأعلى وأبعد فأبعد موغلًا في انتشاره نحو نهاية العالم.

– «في بعض العائلات الأبُ هو مَن يقرّر متى يحين الوقت لإضاءة

المصباح،» غمغم بابا مومين بينه وبين فنجان الشّاي.

انهمك مومين ترول يصفّ شطائره أمامه بطريقته المعهودة. شطيرةُ الجبن أولًا، ثمّ شطيرتا سجق تليهما واحدة بالبطاطس الباردة والسّردين والأخيرة بالمربّى. كان في غاية السّعادة. أما ماي الصَّغيرة فاكتفت بتناول السّردين لأنّها شعرت أنّ الأُمسيّة ليست عاديّة بطريقة ما. أدامت النّظر بعمق في الظّلام المُهيمن على الحديقة، وغدت عيناها أشدّ سوادًا كلّما استغرقت في التّفكير، وكلّما أكلت أكثر.

شعّ ضوء المصباح على العشب وعلى أجمة اللّيلك. إلّا أنّ بصيصَه كان أضعف بكثير بين الظّلال حيث قبعتِ الغروك وحدَها.

مضى على الغروك وقت طويل وهي كامنة في الموضع نفسه إلى درجة أنّ الأرض تحتها جمُدت وتجلّدت. عندما نهضت تجرجر قدميها مقتربةً من الضّوء، فرقع العشب تحتها مثل زجاج يتكسّر. خشخشت همسة خوف تناقلتها أوراق الأشجار، بل حتّى تغضّنت مجموعة من أوراق شجرة

وانكمشت، ثمّ سقطت مقشعرّةً على كتفيها. مالت أزهار النجميّة بقدر ما تستطيع لتبقى في منأى عنها، والتزمتِ الجنادبُ الصّمتَ.

– «لماذا لا تأكل؟» التفتت ماما مومين تسأل ابنها.

– «لا أدري،» أجاب. «ألدينا ستائر معدنية؟»

– «إنّها في العليّة. ولن نحتاجها قبل سباتنا الشّتويّ،» أجابت ماما مومين، ثمّ التفتت إلى بابا مومين وأردفت: «ألا ترغب في العمل قليلًا على نموذج المنارة بما أننا أضأنا المصباح؟»

– «هه!» همهم بابا مومين. «إنّها صبيانيّة جدًّا. ليست حقيقيّة.»

تثاقلتِ الغروك وهي تقترب أكثر قليلًا. حملقت في المصباح وهزّت رأسها الأخرق الكبير ببلادةٍ. تصاعد حول قدميها سحاب أبيضُ مُجمّد بينما بدأت تنزلق نحو الضّوء؛ طيف رمادي جسيم ووحيد. اهتزّت النّوافذ كما لو أنّ الرّعد دوّى من مكان بعيد، وبدت الحديقة كأنّها تحبسُ أنفاسها. دنت الغروك من الشّرفة ووقفت بلا حراك خارج بقعة الضّوء الّتي أشرقت على الأرض المُسربلة بالظّلام.

ثم خطت خطوة واسعة وسريعة نحو النّافذة فسقط ضوء المصباح على وجهها. في الدّاخل ضجّ المكان الهادئ فجأة بالصّياح وبحركات مضطربة مذعورة، سقطت الكراسي وشخصٌ ما حمل المصباح بعيدًا. خلال ثوانٍ عمّ الظّلام الشّرفة. تدافع الجميع إلى البيت، إلى حيث الأمان، اختبأوا وخبّأوا مصباحهم.

وقفت الغروك هامدة فترة من الوقت وأنفاسها الصّقيعيّة تحطّ على زجاج نافذة الشّرفة الّتي هُجرت. وحينما عادت أدراجَها وتسلّلت مبتعدة امتزجت بالظّلام. مضت ببطءٍ والعشب يطقطق ويفرقع تحت قدميها أثناء

مرورها. أسقطت الحديقة المقشعرّة أوراقها ثمّ بدأت تتنفّس الصّعداء ثانية: لقد مرّت الغروك.

– «لا داعيَ البتّة لأن نحصّن أنفسنا ونبقى مستيقظين طوال اللّيل،» قالت ماما مومين. «هي على الأرجح قد خرّبت من جديد شيئًا هناك في الحديقة، لكنّها ليست خطرة. تعرفون أنّها ليست كذلك حتّى على الرّغم من أنّها مخيفة.»

– «هي خطرة طبعًا،» صاح بابا مومين. «حتّى أنت خفتِ. بل في الحقيقة رأيتك ترتعدين من الخوف، إنّما لا داعيَ لأن تخافي طالما أنا في البيت.»

– «ولكنْ يا عزيزي بابا مومين،» بدأت ماما مومين، «نحن نخاف من الغروك لأنّها باردة جدًّا من رأسها إلى أخمص قدميها، ولأنّها لا تحبّ أحدًا. لكنّها لم تسبّب لنا الأذى مطلقًا. حسنًا، أعتقد أنّه حان وقت النّوم.»

– «لا بأس،» قال بابا مومين وهو يُعيد قضيب النّار إلى مكانه في الزّاوية. «إن لم تكن تشكّل أيّ خطر فأنت لن تحتاجي إلى رعايتي، هذا يناسبني تمامًا!» وبذلك العيار النّاري الختاميّ غادر إلى الشّرفة متناولًا في طريقه كمّيّة من الجبن والسّجق، وخطا نحو الظّلام وحده.

– «نعم، هذا جيّد،» قالت ماي الصّغيرة متأثّرة. «بدأ ينفّس البخار. سيذهب ويحرس بقعة الأُشْنَة تلك إلى الصّباح الباكر.»

لم تقل ماما مومين شيئًا. تنقّلت بخطوات خافتة هنا وهناك وهي تستعدّ للنّوم. وكالمعتاد ألقت نظرة في حقيبة يدها، خفّفت ضوء المصباح، وطوال الوقت ساد الغرفة صمتٌ غريب. عندما وقفت أمام نموذج منارة بابا مومين الّذي انتصب على الرّفّ إلى جانب المغسلة في الزّاوية، بدأت تنفض عنه الغبار بذهن شارد.

– «ماما،» هتف مومين ترول.

لكن ماما مومين لم تسمعه. توجّهت إلى الخريطة الكبيرة المعلّقة على الجدار، الخريطة الّتي تُظهر وادي المومين مع السّاحل وجزره. اعتلت كرسيًّا حتّى تستطيع الوصول إلى منطقة البحر، ووضعت أنفها على بقعة في وسط اللّامكان.

– «ها هي،» غمغمت. «إلى هناك سنذهب لنعيش ونحيا حياة رائعة، حياة محفوفة بالمصاعب...»

– «ماذا قلتِ؟» سألها مومين ترول.

– «هناك سنعيش،» كرّرت ماما مومين. «تلك هي جزيرة بابا. وبابا سيعتني بنا فيها. سننتقل إلى هناك ونعيش طوال عمرنا، ونبدأ كلّ شيء من جديد، من نقطة الصّفر.»

– «لطالما ظَننت أنّ تلك البقعة ليست إلّا وسخ ذباب،» تدخّلت ماي الصَّغيرة.

نزلت ماما مومين عن الكرسيّ. «في بعض الأحيان يستغرق الأمر وقتًا طويلًا،» قالت. «نعم، قد يستغرق الأمر وقتًا طويلًا جدًّا قبل أن تستقرّ الأحوال.»

ثم خرجت إلى الحديقة.

– «لستُ أقول شيئًا عن الآباء والأمهات،» تشدّقت ماي الصَّغيرة. «إذا فعلتُ فأوّل ما قد تجيبني به أنّهما ليسا سخيفين أبدًا. بيد أنّ هذين الاثنين يدبّران أمرًا ما. ولو عرفت ما هو لأكلت مِكيال رمل.»

– «لا يُفترض أن تعرفي،» أجاب مومين ترول بحدّة. «هما يدركان جيّدًا لماذا يتصرّفان بغرابة. بعض النّاس يعتقدون أنّهم متفوّقون وأنّهم يجب أن يطّلِعوا على كلّ شيء لمجرّد أنّهم أبناء بالتبنّي!»

– «أنتَ محقّ تمامًا،» قالت ماي الصَّغيرة. «طبعًا أنا متفوّقة!»

أمعن مومين ترول النّظر في البقعة على الخريطة، بقعة جدّ بعيدة في وسط البحر المفتوح، بقعة منعزلة عن كلّ شيء، وفكّر، «يريد بابا أن يعيش هناك. وهما جدّيان في هذا، إنهما بصدد القيام بمقامرة جديّة.» فجأة رأى بعين خياله البحرَ يبدأ في الجَيشان حول الجزيرة. الجزيرة خضراء ذات منحدرات حمراء. هي الجزيرة الّتي سبق أن رآها في الكتب المصوّرة، جزيرة معزولة يحتلّها القراصنة. شعر بكتلة تستقرّ في حلقه. «ماي الصَّغيرة،» همس، «إنّها رائعة!»

– «ها، صحيح؟» أجابت ماي الصَّغيرة. «كلّ شيء رائع تقريبًا. والأكثر روعة هو أن نُحدث جلبة ولغطًا حول رحيلنا إلى هناك، نحن وممتلكاتنا الشّخصيّة كلّها، لنكتشف فقط أنّها في الواقع ليست إلّا حفنة من وسخ الذّباب!»

كان الوقت لا يكاد يتجاوز الخامسة والنصف صباحًا عندما مشى مومين ترول يتتبّع مسار الغروك عبر الحديقة. ومع أنّ الجليد ذاب لكنّه ميّز بوضوح المواضع الّتي جلست فيها. لون العشب هناك أصبح بُنيًّا. لم يغب عنه أنّها إذا جلست في المكان نفسه أكثر من ساعة فلا شيء أبدًا يمكن أن ينمو من جديد هناك. لأن الأرض عندئذ تموت من شدّة الخوف. شاهد بقعًا كثيرة كتلك الّتي في الحديقة، بيدَ أنّ أسوأها، وما هو مدعاة للانزعاج بما يكفي، كانت في وسط حوض الزّنبق.

قاد درب عريض من الأوراق الجافّة الطّريق إلى الشّرفة، حيث سبق لها أن وقفت، حيث بقيت خارج دائرة الضّوء وحملقت في المصباح. لم تستطع المقاومة، سعت إلى الاقتراب بقدر ما استطاعت فمات كلّ شيء. هكذا

جرى الحال دائمًا. لا تلمس شيئًا إلّا ويموت.

تخيّل مومين ترول أنّه الغروك. تقدّم يجرّ قدميه ببطء وهو منكبّ على وجهه خلال كومة من الأوراق الميتة. وقف بلا حراك ينتظر انتشار السّحاب الصّقيعيّ حوله. تنهّد وأمعن النّظر في النّافذة بلهفة، والشّعور بأنه المخلوق الأكثر معاناة من الوحدة يمضّه.

لم يكن الأمر مع عدم وجود المصباح مُقنعًا كثيراً. إذ بدلًا من انغماسه في الدّور لم تعتمل في رأسه إلّا الأفكار اللّطيفة، أفكار عن الجُزر والبحر وتغيير عظيم يأخذ مجراه في حياتهم. نسي الغروك وبدأ يسلّي نفسه بلعبة أخرى وهو يمشي بين الظّلال المتطاولة التّي سبكتها شمس الصّباح. على المرء أن يمشي فقط والشّمس مشرقة. فالظّلال هي أعماق البحر الّتي لا يُسبَر غورها. هذا طبعًا إذا كان المرء لا يُحسن السّباحة.

كان هناك من يصفّر في سقيفة الحطب. نظر مومين ترول داخلها. رأى ضوء الشّمس الذّهبي المشرق يسطعُ على كومة من نشارة الخشب عند النّافذة، ورائحة زيت الكتان والرّاتينج تفوح هناك. ثم شاهد بابا مومين عاكفًا على منارته يُركّب عند حائطها بابًا من البلّوط.

– «انظر إلى هذه المشابك الحديدية،» قال بابا مومين. «هي مدفونة في الصّخرة، وبهذه الطّريقة تصعد إلى المنارة. ينبغي أن تتوخّى الحذر في الجوّ القاسي. قاربكَ تحمله ذروة موجة نحو الصّخرة، ثمّ تقفز، تتمسّك بقوة وتجاهد صعودًا بينما يرتدّ القارب... عندما تأتي الموجة التّالية، تكون بأمان. ثمّ تشقّ طريقك ضدّ الرّيح متشبّثًا بهذا السّور. ثمّ تفتح الباب، لكنّه ثقيل. وبعد دخولك يُصفَق بعنف خلفكَ. تصبح في المنارة. تسمع من هناك هدير الأمواج في المدى عبر الحيطان السّميكة. في الخارج البحر يرغي ويزبد في جميع الاتجاهات وقاربكَ نأى بعيدًا عنك.»

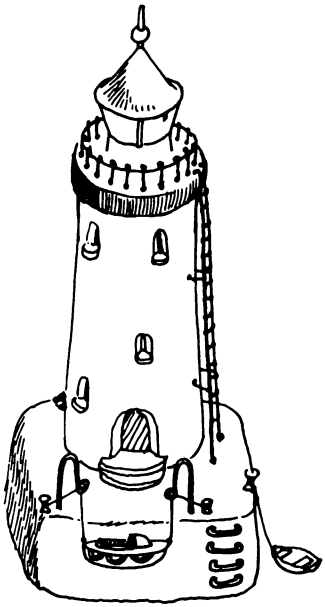

– «أنحن فيها أيضًا؟» استفسر مومين ترول.

– «طبعًا،» أجاب بابا مومين. «أنت هناك في أعلى البرج. انظر، جميع النّوافذ من الزّجاج الحقيقي. وفي القمّة الكشّاف، وهو يرسل ضوءًا أحمر وأخضر وأبيض، يومض طوال اللّيل على فترات منتظمة، لتسترشد به المراكب.»

– «أتنوي إضافة ضوء حقيقي لنموذجك؟» سأله مومين ترول. «ربّما يمكنك وضع بطاريّة في الأسفل بحيث تجعله يومض بطريقة ما.»

– «هذا ممكن بالتّأكيد،» أجاب بابا مومين وهو يصنع درجات عدّة ليضعها أمام باب المنارة. «لكنني لا أملك متّسعًا من الوقت الآن. هذا في الواقع مجرّد لعبة، مجرد وسيلة تجربة.» ثمّ ضحك مُحرجًا قليلًا وبدأ يبحث بفضول في دُرج الأدوات.

– «رائع!» هتف مومين ترول. «إلى اللقاء.»

– «إلى اللقاء،» ردّ بابا مومين.

غدت الظّلال أقصر من ذي قبل. كان اليوم الجديد يهلّ، دافئًا وجميلًا كغيره من الأيّام. جلست ماما مومين على الدّرج لا تفعل أيّ شيء على الإطلاق، وهذا شيء خارج المألوف فعلًا.

– «أبكر الجميع في النّهوض اليوم،» قال مومين ترول وهو يجلس إلى جانبها وعيناه تطرفان من حدّة الشّمس.

– «أكنتِ تعلمين أنّ هناك منارة في جزيرة بابا؟» قال.

– «نعم، طبعًا،» أجابت ماما مومين. «ما فتئ يأتي على ذكرها طوال الصّيف. ذاك هو المكان الّذي ننوي أن نقيم فيه.»

بما أنّه كان هناك الكثير مما يمكن التّطرّق إليه، لم يقل أحد شيئًا. أشاع فيهم الجلوس على الدّرج الدّفء. وبدا أنّ الأمور كلّها على أحسن ما يُرام. بدأ بابا مومين يصفّر لحن 'ارفعوا المراسي'، وهو شيء لطالما برع فيه.

– «سأعِدُّ شيئًا من القهوة بعد قليل،» قالت ماما مومين. «شعرت برغبة في أن أجلس هنا وأفكّر. لقد مررنا بليلة عصيبة.»

لكنّ المنارة كانت تناديهم. أدركوا أنّ عليهم الإبحار إلى الجزيرة، وأنّ عليهم القيام بذلك في أقرب وقت.

telegram @yasmeenbook

المنارة

في مساء يوم الرّحيل الحاسم تحوّل اتجاه الرّيح نحو الشّرق؛ بدأ هبوبها بعد السّاعة الثّانيّة عشرة بقليل، إلّا أنّهم قرّروا ألّا يُبحروا قبل الغروب. كان البحر دافئًا وعميقَ الزُّرقة، زرقته تماثل الزُّرقة الّتي عكستها الكُرة البلّوريّة. يومها اكتظّ رصيف المرسى بالأمتعة الّتي بلغت أكوامها بيت الاستحمام حيث يستقرّ المركب مربوطًا، وحيث راح يعلو ويهبط وهو مرفوع الشّراع ومصباح الأعاصير يشتعل عند قمّة ساريته. كان الظّلام آنذاك قد بدأ يتسلّل إلى الشّاطئ.

– «طبعًا ثمّة مجازفة في إلّا يكون الجوُّ هادئًا اللّيلة،» قال بابا مومين. «كان في وسعنا أن نغادر بعد الغداء فورًا. لكن، في مناسبة كهذه يجب أن ننتظر غروب الشّمس. الانطلاق بالطّريقة الصحيحة مهمّ كأهميّة السّطور الافتتاحيّة في كتاب: هي تحدّد كلّ شيء.»

جلس على الرّمل إلى جانب ماما مومين، وقال: «انظري إلى المركب.

انظري إلى 'المغامرة'. مشهد المركب في اللّيل رائع. إنّها الطّريقة المناسبة لبدء حياة جديدة، مع مصباح أعاصير يشعّ عند قمّة السّارية، والشّريط السّاحلي يختفي وراء المرء بينما العالم غارق في النّوم. سفر اللّيل أروع من أيّ شيء آخر في الدّنيا.»

– «نعم، معكَ حقّ،» أجابت ماما مومين. «المرء قد يقوم بنزهة في النّهار، لكنّه في اللّيل يسافر.» كانت متعبة قليلًا بعد حزم الأمتعة، وقلقة قليلًا من أن تكون قد نسيت شيئًا مهمًّا. بدت أكوام الأمتعة هائلةً، بعد أن رُصَّت على رصيف الميناء، بيد أنّه لم يخفَ عليها كم ستبدو قليلة بعد تفريغها. العائلة تحتاج في اليوم إلى أغراض كثيرة لتعيش كما ينبغي وبالطّريقة اللّائقة.

من المؤكّد أن الوضع أصبح مختلفًا. فما يتحتّم عليهم عمله الآن هو بدء حياة جديدة بكلّ ما في الكلمة من معنى، حيث يترتّب على بابا مومين أن يزوّدهم بما يحتاجونه، يعتني بهم ويحميهم. لا ريب في أنّهم اختبروا إلى حدّ تلكَ اللّحظة حياة بالغة السّهولة. «هذا غريب،» فكّرت ماما مومين. «غريب أن يشعر النّاس بالحزن بل وبالغضب لأن حياتهم هانئة. بيد أنّ الأمور تجري هكذا كما أفترض. ما يمكن القيام به فقط هو الشّروع في بدء حياة مختلفة من جديد.»

– «ألا تظنّ أن الظّلام أصبح كافيًا لننطلق؟» قالت. «مصباح الأعاصير يبدو جميلًا فعلًا تحت السّماء. لعلّنا نستطيع الإقلاع الآن.»

– «لحظة فقط، يجب أن أحدّد وجهتي،» أجاب بابا مومين وفرد الخريطة على الرّمل ممعنًا النّظر في الجزيرة الّتي تتوسّط البحر المفتوح وحدها. كان في غاية الجدّية. تشمّم الرّيح برهةً مُحفِزًا حسّه بالاتجاهات؛ شيء لم يُضطرّ إليه منذ زمن بعيد. في الواقع لم يقلق الأسلاف مطلقًا من عدم

تعرّفهم على الاتجاهات الصحيحة، فذاك الحدس لطالما أتاهم تلقائيًا عند الحاجة إليه. من المحزن أنّ الوهن لا يلبث أن يعتري هذه الغريزة عندما لا يستخدمها المرء.

شعر بابا مومين بعد فترة أنّه بات متأكّدًا من مساره. وأعلن أنّهم يستطيعون الإبحار وقد أصبح يعرف الوجهة الّتي عليه أن يسلك. ثمّ اعتمر طاقيّته وقال: «هيّا بنا. لا تحملي شيئًا. نتولّى نحن مهمّة العمل الثقيل. ما عليكِ إلّا الصعود إلى المركب.»

هزّت ماما مومين رأسها، وبتكاسلٍ تحاملت على نفسها لتنهض. اصطبغ البحر باللّون البنفسجيّ، وبدا شريط الغابة الّذي يطوّق الشّاطئ رقيقًا وقاتمًا. كان النّعاس يراودها، وتراءى لها فجأة أنّ كلّ شيء أقرب إلى الخيال، أقرب إلى حلم بطيء وضّاء يخوض فيه المرء طريقه وسط رمال ثقيلة، ثقيلة جدًّا، من غير أن يصل إلى أيّ مكان.

كان الآخرون عند الرّصيف، ينقلون الأمتعة إلى المركب. تمايل فانوس العواصف جيئة وذهابًا، ولاحت ظلال الميناء وبيت الاستحمام تحت سماء المساء مثل تنين ذي نتوءات شائكة. تناهت إليها ضحكات ماي الصَّغيرة، وخلف تلك الضّحكات صيحات طيور اللّيل الّتي ما زالت مُستيقظة في الغابة.

– «هذا بديع!» قالت ماما مومين لنفسها. «بديع وغريب إلى حدّ ما. الآن لديّ وقت للتّفكير فيه، الأمر برمّته رائع تقريبًا. لعلّ بابا لن يمانع إذا غفوت قليلًا في المركب.»

تسلّلت الغروك إلى الحديقة بعد الغروب، وفي هذا المساء لم يكن هناك مصباح في الشّرفة، لاحظت أن السّتائر قد انتُزِعت وأن برميل الماء مقلوبٌ رأسًا على عقب. أما المفتاح فمعلّق على مسماره فوق الباب.

أدركت فورًا أن المصباح لن يُضاء هناك لوقت طويل مُقبل، فقد كانت معتادة على رؤيّة البيوت المهجورة. جرّت نفسها ببطء متسلّقةً المنحدر نحو قمّة الجرف. للحظة واحدة التقطت الكرة البلّوريّة انعكاسها، ثمّ عادت وغُمرت من جديد بزرقتها العميقة المعهودة وغير الواقعيّة. حبست الغابة أنفاسها خوفًا والغروك تقترب، ومن تحت الحشيش تصاعدت أصوات خافتة غريبة. اهتزّت الأغصان رعبًا وانطفأ بصيص العيون في جميع الأنحاء. من غير توقّف مضت الغروك إلى قمّة الجرف المُشرفة على الشّاطئ الجنوبيّ، وحملقت في البحر الّذي غدا قاتمًا مع هبوط اللّيل.

تسنّى لها أن ترى بوضوح مصباح الأعاصير المعلّق على رأس ساريّة 'المغامرة'، كأنّه نجم وحيد ينزلق قدمًا، يمرّ في طريقه بالجزر الأخيرة المتجاورة، ويتابع بلا هوادة طريقه نحو عرض البحر.

وقفت تُمعن النّظر فيه مدّة طويلة فهي لم تكن مطلقًا في عجلة من أمرها. الوقت بالنسبة إليها لا نهائي ويمرّ ببطءٍ شديد. الوقت بالنسبة إليها لا يتضمّن إلّا المصابيح العَرَضيّة الّتي تشعشع مع قدوم الخريف.

بدأت تتدرّج منزلقة نحو الوادي وميمّمة الشّاطئ. خلّفت وراءها آثار أقدام ضخمة قبيحة وعشوائية، كما لو أنّ فقمة جرّت نفسها نحو حافّة الماء. انحسرت الأمواج حينما اقتربت الغروك، وتلكّأت قليلًا حائرة في ما ينبغي عليها فعله تاليًا. وما لبث الماء المتجمّع حول حواشي تنّورتها أن أصبح رقيقًا وهامدًا ثمّ بدأ يتجمّد.

وقفت هناك مدّة طويلة، وحولها تتجمّع غيمة من السّحب المُجمِّدة. بين تارة وأخرى رفعت إحدى قدميها ببطء، وعندئذٍ كان الثّلج يطقطق تحتها ويصبح أثخن فأثخن. كانت في الواقع تشيّد جزيرة ثلجيّة لنفسها حتّى يتسنّى لها الوصول إلى مصباح الأعاصير. وعلى الرّغم من أنّ المصباح

اختفى عن الأنظار وراء الجُزر، عرفت أنّه هناك في مكان ما. وليس في الأمر أهميّة كبيرة في حال انطفأ قبل وصولها، فهي يمكن أن تنتظر، لأنّهم بلا ريب سيُضيئون مصباحًا آخر في مساء آخر. هذا ما درجوا على القيام به عاجلًا أو آجلًا.

قاد بابا مومين المركب. وقف وإحدى يديه تقبض على الدّفة بإحكام، يعتريه شعور بأنّه هو والمركب متفاهمان. كان في سلام كامل مع نفسه.

بدت له عائلته هشّة وعاجزة تمامًا كما رآها في الكرة البلّوريّة؛ وهو وحده يقودها بحذر عبر المحيط الواسع خلال اللّيل الأزرق السّاكن. أنار مصباحُ الأعاصير الدربَ الّتي حدّدها بابا مومين برسم خطّ واضح وثابت على الخريطة وهو يقول: «مِن هنا... إلى هناك. هناك سنعيشُ. هناك ستكون منارتي مركز العالم، ومن عند قدمَي المحيط ستنتصب شامخة متحدّيّة أخطاره.»

– «عساك لا تشعرين بالبرد؟» صاح بسعادة مخاطبًا ماما مومين. «أتدثّرتِ جيّدًا بالبطّانيّة؟ انظري، لقد خلّفنا الآن وراءنا الجزيرة الأخيرة، وقريبًا ستصبح ظلمة اللّيل على أشُدّها. الإبحار في اللّيل بالغ الصعوبة. على المرء أن يبقى متنبّهًا ويقظًا طوال الوقت.»

– «إيه، طبعًا يا عزيزي!» أجابت ماما مومين الّتي قبعت متقوقعة في قاع المركب. «هذه تجربة عظيمة،» فكّرت بينها وبين نفسها. انتقلت بحذر نحو الجانب المواجه لمهبّ الرّيح بعد أن غدت بطّانيّتها رطبة قليلًا، إلّا أن أضلاع المركب لم تكفّ عن إعاقة حركة أذنيها.

جلست ماي الصّغيرة في تجويف قوس القارب وانبرت تهمهم بينها وبين نفسها على نحو رتيب.

– «ماما،» همس مومين ترول. «ماذا أصابها حتّى أصبحت هكذا؟»

– «مَن تعني؟»

– «الغروك. أثمّة من اقترف بحقّها شيئًا بحيث جعلها تصبح جدُّ بغيضة؟»

– «لا أحد يعرف،» أجابت ماما مومين وهي تُبعد ذيلها عن الماء. «من المحتمل أنّها هكذا لأنّ أحدًا لم يفعل لها شيئًا قطّ. أعني لا أحد اهتمّ بها. ولا أفترض أنّها تتذكّر على أيّ حال، ولا أفترض أيضًا أنّها تتسكّع هنا وهناك وهي تفكّر في الأمر. إنّها مثل المطر أو الظّلام، أو ربّما مثل حجر عليك أن تناور لتتجاوزه. أتريد بعض القهوة؟ هناك قهوة في التّرمس في السّلّة البيضاء.»

– «لا، ليس الآن،» قال مومين ترول. «عيناها زجاجيّتان كأنّهما عينا سمكة. أيُمكنها أن تتكلّم؟»

تنهّدت ماما مومين وقالت: «لا أحد يكلّمها أو يتكلّم عنها، وإلا فهي عندئذ تزداد ضخامة وتبدأ في مطاردة المرء. لا ينبغي أن تشعر بالأسف عليها. لعلّك تتخيّل أنّها تتوق إلى كلّ ما هو مضيء، بينما في الحقيقة جلّ ما تريد القيام به هو الجلوس على الضوء بحيث يخمد ولا يتوهّج ثانيّة أبدًا. أعتقد أنّني سأحاول أخذ قيلولة قصيرة الآن.»

انتشرت النّجوم الخريفيّة الشّاحبة في السّماء. استلقى مومين ترول على ظهره يتأمّل مصباح الأعاصير واستغرق في التّفكير في الغروك. لو أنّها مخلوق لا يجب أن تتكلّم معه أو عنه هي في هذه الحالة ستختفي بالتّدريج، ولن تجرؤ حتّى على الاعتقاد بأنّها موجودة. تساءل بينه وبين نفسه ما إذا كانت المرآة قد تساعد. مع كثير وكثير جدًّا من المرايا يمكن أن يتضاعف ويتضاعف المرء الواحد إلى أيّ عدد ممكن، سواء من الأمام أو من الخلف،

وربّما في وسع أولئك الأشخاص أن يتبادلوا الحديث... ربّما.

كان كلّ شيء ساكنًا. صرّت الدّفة برقّة، ونام الجميع. وحده بابا مومين بقي صاحيًا. بقي يقظًا جدًّا أكثر مما فعل في أيّ يوم مضى.

من بعيد، قرّرت الغروك قُبيل الصّباح أن تبادر إلى الانطلاق. كانت الجزيرة الّتي صنعتها سوداء وشفّافة ذات عارضة جليديّة حادّة تتّجه جنوبًا. رفعت حواشي تنّورتها الدّاكنة المحيطة بها مثل أوراق وردة ذابلة، فاتّسعت تلك الحواشي مصدرة حفيفًا وبدأت ترفرف كأنّها الأجنحة. وبهذا بدأت رحلة الغروك البحريّة البطيئة.

حرّكت حواشي تنّورتها إلى الأعلى وإلى الأمام وإلى الأسفل، مماثلة بذلك حركات سِباحة بطيئة في جوّ صقيعيّ. تراجع الماء على شكل أمواج متلاطمة مذعورة، وعامت الغروك نحو الفجر تتبعها سحابة من الثّلج المنجرف. بدت في الأفق أشبه بخفّاش ضخم مترنّح. ومع أنّها أدركت أن تقدّمها وئيد، نجحت في تدبّر أمرها بطريقة ما. عرفت أنّ لديّها متّسعًا من الوقت، بل ليس لديها شيء آخر غير الوقت.

استمرّت رحلة العائلة طوال اللّيل وطوال النّهار التّالي إلى أن خيّم اللّيل ثانية. لازم بابا مومين مكانه عند الدّفة بانتظار أن يلمح منارته. كان اللّيل

داكن الزرقة ولا منارة ظهرت تومض في الأفق.

– «نحن على المسار الصحيح،» أعلَمهم بابا مومين. «أعرف أننا نُبحر في المسار الصحيح. ومع هذه الرّيح ينبغي أن نصل إلى هناك في منتصف اللّيل، لكن كان يجب أن نرى المنارة عندما بدأت الدّنيا تُظلم.»

– «ربّما أطفأها أحد الأشقياء،» اقترحت ماي الصَّغيرة.

– «أتعتقدين أن أحدًا قد يُطفئ منارة،» تساءل بابا مومين. «ثقي تمامًا أنّ المنارة تعمل جيّدًا. هناك أشياء لا يسع المرء إلّا أن يكون متأكّدًا جدًّا منها: كالتّيّارات البحريّة والفصول وشروق الشّمس على سبيل المثال. وكذلك أنّ المنارات تعمل دائمًا.»

– «لن نلبث أن نراها،» هتفت ماما مومين الّتي عجّ رأسها بأفكار متناثرة لم تستطع في الواقع ترتيبها. «آمل من صميم قلبي ألّا تكون معطّلة،» فكّرت. «إنّه في منتهى السّعادة. لا آمل إلّا أن تكون هناك منارة في مكان ما، وليس مجرد وسخ ذباب في نهاية المطاف. لا نستطيع بأيّ شكل العودة إلى الدّيار الآن، خصوصًا بعد مثل هذه البداية الكبيرة... يمكن أن يجد المرء أصدافًا ورديّة كبيرة، لكن البيضاء منها تبدو جميلة جدًّا على التّربة الدّاكنة. أينمو الورد هناك يا تُرى...»

– «صه! أنا أسمع شيئًا،» قالت ماي الصَّغيرة القابعة عند القوس. «اسكتوا كلكم! هناك شيء يحدث.»

رفعوا أنوفهم وحملقوا في اللّيل. تناهى إليهم صوت مجاديف. وشيئًا فشيئًا اقترب منهم القارب المجهول منسابًا من بين أستار الظّلام. كان قاربًا صغيراً رماديّ اللّون، وصاحبه الّذي جلس مُتكئًا على مجدافيه التفت يتفحّصهم بجرأة. بدا مُهلهلًا، لكن في منتهى الهدوء. شعّ الضوء على عينيه الزرقاوين الواسعتين اللّتين كانتا شفّافتين كالماء، وعند قوس قاربه استقرّت مجموعة

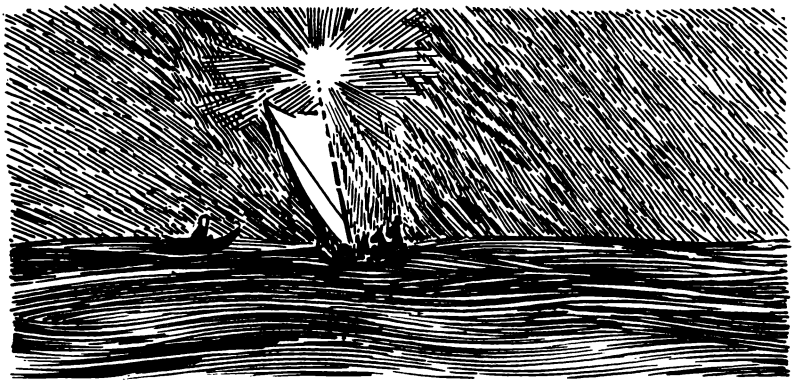

من صنّارات الصّيد.

– «أيتلقّفُ السّمك الطّعم في اللّيل؟» سأله بابا مومين.

أشاح صيّاد السّمك وجهه عنهم ونظر إلى الأمام مباشرة. لم يكن في نيّته أن يقول شيئًا.

– «ألا توجد على مقربة من هنا جزيرة فيها منارة ضخمة؟» أردف بابا مومين. «لماذا لا يعمل كشّافها؟ كان يجب أن نراه منذ مدّة.»

انزلق صيّاد السّمك بقاربه وتجاوزهم. وعندما قال أخيراً شيئًا ما، لم يستطيعوا سماعه إلّا بشقّ النّفس. «لا أدري حقًّا... عودوا إلى دياركم... لقد قطعتم مسافة طويلة...»

اختفى وراءهم. ترقّبوا سماع صوت مجدافَيْه، إلّا أنّهم لم يسمعوا شيئًا في اللّيلة السّاكنة.

– «أليس غريب الأطوار قليلًا؟» علّق بابا مومين بشيء من الحيرة.

– «غريب الأطوار كثيراً إن سألتني رأيي،» قالت ماي الصَّغيرة. «بل هو مختلٌّ تمامًا.»

تنهّدت ماما مومين وحاولت أن تمدّد رجليها.

– «أغلب النّاس الذين نعرفهم مثله تقريبًا،» قالت.

خفّت سرعة الرّيح. وجلس بابا مومين منتصبًا عند الدّفة ومدّ أنفه يتشمّم الهواء. «الآن،» قال، «أشعر أنّنا وصلنا. إنّنا نتقدّم نحو جهة منصرف الرّيح من الجزيرة. إنّما لست أفهم لماذا لا تعمل المنارة.»

كان الهواء دافئًا وفوّاحًا بعبير نبات الخلنج، وكلّ شيء يلفّه سكون شامل. ثم، من بين فرجات اللّيل لاح ظلٌّ هائل: رأوا الجزيرة بأمّ عينها تشرف عليهم، وتتفحّصهم بحذر. شعروا بأنفاسها الحارّة بينما ارتطم المركب بالشّاطئ الرّملي واستقرّ هامدًا: تهيّأ لهم أنّهم مراقبون، وتكوّموا معًا غير متجاسرين عليِ الإتيان بحركة.

– «ماما، أسمعتِ ما سمعتُه؟» همس مومين ترول.

قفزت أقدام رشيقة نحو الشّاطئ، انبعث صوت خوض طفيف في الماء ثمّ عاد السّكون ليعمّ كلّ شيء.

– «هذه ماي الصَّغيرة تنطلق إلى اليابسة،» أجابت ماما مومين ثمّ نفضت نفسها كما لو أنّها تروم كسر الصّمت، وبدأت تبحث بفضول بين سلالها، وفي نيّتها أن تحمل صندوق التّربة مع ورودها وتتّجه نحو طرف القارب.

– «على رسلكِ الآن،» قال بابا مومين بعصبية. «أنا سأعتني بكلّ هذا. يجب أن تُنَظَّمَ الأمور بطريقة صحيحة من البداية. المركب يعتبر دائمًا الأهمّ... اجلسي وخذي الأمور بيُسر.»

جلست ماما مومين مذعنةً، وحاولت الابتعاد عن طريق الشّراع وهو ينزل، وذراع التّطويل وهو يتأرجح جيئةً وذهابًا، في حين راح بابا مومين يتلمّس دربه في المركب مرتِّبًا الأشياء. شكّل مصباح الأعاصير حلقة ضوء شملت الرّمل الأبيض والماء الأسود، وما عدا ذلك ليس هناك سوى الظّلام.

جذب بابا مومين ومومين ترول الحَشيّة إلى اليابسة، لكنّهما وهما يفعلان بللا أحد أطرافها. مال المركب وعصر جذعه الأزرق شجيرات الورد بالحافّة.

جثمت ماما مومين تنتظر وأنفها بين كفّيها. كلّ شيء يبدو كما ينبغي أن يكون. لا ريب في أنّها لن تلبث مع الوقت أن تعتاد فكرة وجود مَن يشملها برعايته، وربّما تستسيغ ذلك. بل حتّى الآن تسنّى لها أن تنام برهة أو برهتين.

أخيراً لمحت بابا مومين يقف في الماء ويقول لها: «يمكن أن تخرجي الآن. كلّ شيء جاهز.» كان سعيدًا ويقظًا، وقبّعته مدفوعة إلى الخلف. في الأعلى عند الشّاطئ بدت الخيمة الّتي نصبها من الأشرعة والمجاذيف مثل حيوان رابض. حاولت ماما مومين أن تستكشف ما إذا كانت هناك أصداف على شاطئهم الجديد هذا، بيد أن الظّلام المخيّم حال دون ذلك. لقد أكّدوا لها أنّها ستعثر على الأصداف، أصداف كبيرة ونادرة كتلك الّتي يعثر عليها المرء في عرض البحر.

– «ها أنتِ،» قال بابا مومين. «ليس عليك إلّا أن تنامي. سأبقى واقفًا للحراسة في الخارج طوال اللّيل، لذا لا داعيَ لأن ينتابك الخوف. وفي ليلة غد سيتسنّى لك أن تنامي في منارتي. ليتني أعرف فقط لماذا لا يعمل كشّافها... أترين أنّ الجوَّ هنا في الدّاخل مريح ولطيف؟»

– «إنّه على ما يرام!» أجابت ماما مومين وهي تزحف تحت الشّراع.

انطلقت ماي الصّغيرة وحدها كعادتها إلى مكان ما. وهذا ليس بذي أهميّة في الواقع، بما أنّها العضو الوحيد في العائلة القادر كما يبدو على تدبّر أموره وحده. بدا أنّ كلّ شيء يسير سيراً حسنًا.

استكان مومين ترول يراقب ماما مومين وهي تتقلّب مرّة أو مرّتين في مضجعها الرّطب إلى أن عثرت على وضعيتها المفضّلة، فندّت عنها آهة

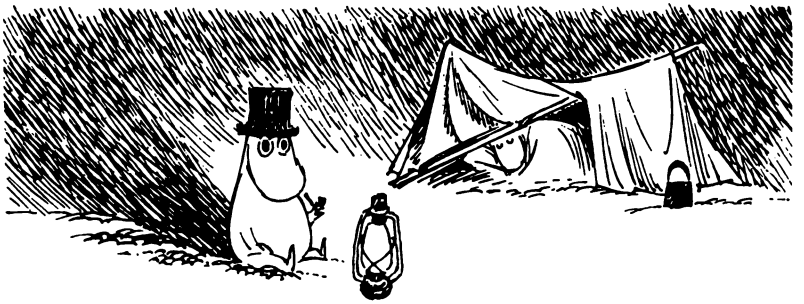

صغيرة واستغرقت في النّوم. من بين كلّ الأشياء الغريبة، كان نوم ماما مومين على هذا النحو أغربها؛ نومها من غير إفراغ الأمتعة، من غير تحضير الأسِرّة ومن غير إعطائهم حلوى ما قبل النّوم. بل حتّى تركت حقيبة يدها على الرّمل. كان ذلك مخيفًا قليلًا، وفي الوقت نفسه مُبهجًا؛ فقد عنى أنّ ما يجري كان تغييراً فعليًا وليس مجرّد مغامرة.

رفع مومين ترول أنفه واختلس النّظر إلى الخارج من تحت الشّراع. هناك جلس بابا مومين متحفّزاً وعلى أهبّة الاستعداد، ومصباح الأعاصير أمامه. لاح ظلّه طويلًا وعريضًا، وبدا بمُجمله أضخم من المألوف. عاد مومين ترول وتقوقع على شكل كرة، ووضع كفّيه تحت بطنه الدّافئ. وسرعان ما استسلم لأحلامه؛ أحلام زرقاء ومُقلقَلة كحال البحر في تلك اللّيلة.

هَلَّ الصّباح رويدًا رويدًا. كان بابا مومين وحيدًا تمامًا مع جزيرته، ومع كلّ ساعة مرّت انتابه أكثر فأكثر الشّعور بأنّها ملكه الخاص. بدأت السّماء تشحُب، وأمامه برزت الصّخور على هيئة كُتل متموّجة هائلة، وأعلى منها انتصبت المنارة. نعم، ها هي هناك أخيراً، ضخمة وقاتمة تحت السّماء الرّمادية. كانت أكبر بكثير مما تخيّلها عليه، وذلك لأنّ وقت ظهور أوّل تباشير الفجر يجعل المرء، في حال كان وحده فقط المستيقظ، يشعر

بالعجز ويتهيّأ له أن الخطر كامن في كلّ ما حوله.

أطفأ بابا مومين مصباح الأعاصير، فاختفت معالم الشّاطئ. لم يشأ أن تراه المنارة قبل الأوان. هبّت ريح صباحيّة باردة من البحر، ومن مكان ما في الطّرف الآخر من الجزيرة سمع نداءات النّوارس.

بينما بقي بابا مومين جالسًا في مكانه، بدت المنارة كأنّها تعلو وتعلو أمام ناظريه. كانت مثل نموذجه تقريبًا الّذي لم يتوافر له الوقت لإنهائه. رأى أن سطحها ليس على تلك الدّرجة من التدبُّب كما تخيّل، وأن ليس هناك سياج. حدّق في المنارة المظلمة والمهجورة وقتًا طويلًا، فراحت تصغر شيئًا فشيئًا وتظهر أقرب إلى الصّورة الّتي حملها في ذهنه ردحًا من الزّمن.

– «إنّها في جميع الأحوال منارتي،» فكّر وهو يشعل غليونه. «سأستحوذ على المنارة. وأعرضها على عائلتي وأقول: هنا سنعيش. طالما نحن بأمان في الدّاخل لا يمكن أن نواجه أيّ خطر.»

جلست ماي الصّغيرة على درج المنارة تتأمّل الفجر. وفي الأسفل بدت الجزيرة المستقرّة تحت بواكير الضّوء أشبه بقطّة رماديّة كبيرة تتمطّط وقد فرجت مخالبها؛ كفّاها تستريحان في البحر وذيلها الطّويل النّحيل عبارة عن نقطة مستدقّة في نهاية الجزيرة، ظهرها منتصب وعيناها غير مرئيّتين.

– «هه!» همهمت ماي الصّغيرة. «هذه ليست جزيرة عادية. فهي متغلغلة في قاع البحر بطريقة مختلفة عن بقيّة الجزر. أراهن على أنّ أمورًا غريبة ستحدث هنا!»

تكوّمت على نفسها وانتظرت. ارتفعت الشّمس فوق البحر وبدأت الظّلال والألوان تظهر. أخذت الجزيرة تستعيد شكلها وتسحب مخالبها. بدأ كلّ شيء يسطع، والنّوارس البيضاء كالطّباشير تحلّقت فوق رأس الجزيرة

المستدقّ. وبالطّبع اختفت معالم القطّة. وانبسط ظلّ المنارة عبر الجزيرة كأنّه شريط قاتم يمتد نزولاً إلى الشّاطئ حيث ترسو 'المغامرة'.

لمحتهم قادمين من بعيد في الأسفل كأنّهم نمل صغير. يحمل بابا مومين ومومين ترول أكبر قدر ممكن من الأغراض، ويحثّ الثلاثة الخُطى من بين الشّجيرات الحرجيّة مقتربين من ظلّ المنارة حيث لاح حجمهم أصغر. ثمّ رأتهم يتوقّفون؛ ثلاث نقاط صغيرة بيضاء ترفع أنوفها لتجتلي ما كان يستقرّ في الأعلى.

– «أوه! كم هي كبيرة!» هتفت ماما مومين وتسمّرت في أرضها.

– «كبيرة؟» صاح بابا مومين مُستهجنًا. «إنّها هائلة! بل لعلّها أكبر منارة شُيّدت على الإطلاق. أتراك تدركين أنّ هذه آخر جزيرة في البحر، وأنّ لا أحد يعيش في أيّ مكان بعدها، إذ لا شيء هناك سوى البحر. إنّنا إذا صحّ القول ننظر في وجه البحر مباشرة، وبعيدًا جدًّا خلفنا يعيش جميع أولئك النّاس الذين يقطنون في جزر قريبة من اليابسة الرّئيسة. ألا توافقانني على أنّ هذه فكرة رائعة؟»

– «نعم بابا هي فكرة رائعة!» هتف مومين ترول.

– «ألا يمكن أن أحمل السّلّة برهة؟» تساءلت ماما مومين.

– «لا، لا،» أجاب بابا مومين. «لن تحملي شيئًا. ليس عليك إلّا المُضي قدمًا إلى بيتكِ الجديد. لكن مهلًا، ينبغي أن تدخلي وأنت تحملين بعض الأزهار، انتظراني لحظة..» اختفى بين أشجار الحور وانهمك في قطف بعض الأزهار.

تلفّتت ماما مومين تتفحّص ما حولها. يا للتّربة الفقيرة، ويا للأحجار المنتشرة أينما تطلّعت؛ أعداد هائلة منها تشغل الأرض على مدّ البصر. حتمًا لن يكون من السّهل إنشاء حديقة هنا.

– «يا لذاك الصوت الحزين يا ماما!» قال مومين ترول. «ما مصدره يا تُرى؟»

أرهفت ماما مومين السّمع ثمّ قالت: «نعم هو كذلك. إنّ وقعه محزن. لكنّه ليس إلّا حفيف أوراق الحور الرّجراج، تلك الأشجار تصدر صوتًا كهذا دائمًا.»

كانت شجيرات الحور المُرهفة والمكشوفة للرّياح نامية بين الصّخور، حيث تخشخش أوراقها مع النّسيم العليل الآتي من البحر، إلّا أنّها آنذاك أخذت تهتزّ بعنف، ورعدة إثر أخرى تسري فيها.

اختلفت الجزيرة في النّهار؛ بدت كأنّها تُوليهم ظهرها. لم تنظر إليهم كما فعلت في حضن اللّيل الدّافئ، بل التفتت تتفرّس في البحر.

– «ها أنتِ!» قال بابا مومين. «إنّها أزهار صغيرة لكنّها سرعان ما تتفتّح إذا عرَّضتها للشّمس. علينا الآن أن نتابع تقدّمنا. قريبًا نتدبّر أمر درب مناسب من الشّاطئ إلى البيت. وسيكون هناك مرسى للمركب. ثمّة أشياء كثيرة ينبغي عملها هنا! فكّري في الأمر فقط! تخيّلي روعة أن يكون المرء قادرًا على بناء حياته من جديد، ويحوّل الجزيرة إلى معجزة من معجزات الكمال!» وبهذا هرع يحمل السّلال، وسار بعجلة بين الخلنج ساعيًا إلى المنارة.

انتشرت أمامهم صخور مُوغلة في القِدم، وعرة وذات أطراف حادّة، إلّا أنّهم تابعوا مشيهم وهم يتخبّطون متجاوزين صخرة تلو صخرة؛ صخور رماديّة مُفعمة بالشّقوق والصدوع.

– «كلّ شيء هنا ضخم جدًّا جدًّا،» فكّرت ماما مومين. «أو ربّما أنا صغيرة الحجم جدًّا.»

وحده المسار المؤدي إلى المنارة كان صغيراً ومتزعزِعًا مثلها. تلمّسوا

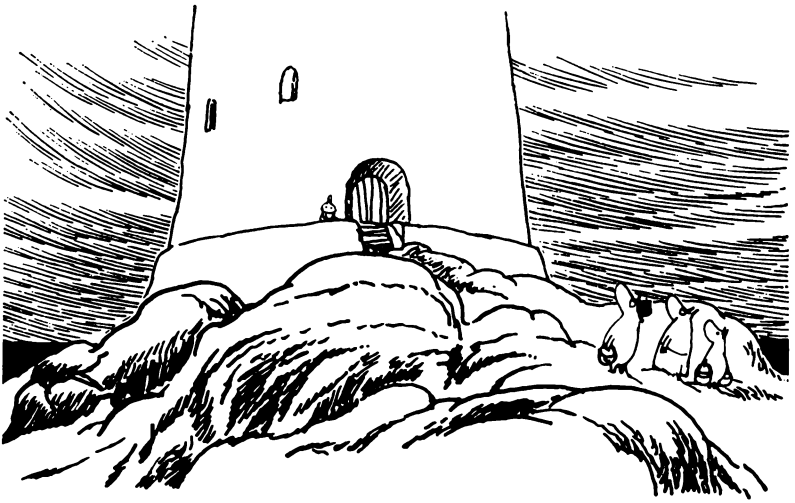

طريقهم بين الصّخور حتّى وصلوا أخيراً إلى الصّخرة الّتي قامت عليها المنارة مترقّبةً وراسخةً على أقدامها الإسمنتيّة المتينة.

– «أهلًا بكم في داركم!» قال بابا مومين.

ببطءٍ التفتت أعينهم تستطلع المنارة. شخصوا بأبصارهم أعلى فأعلى، تراءى لهم أنّ لا نهاية لامتدادها، بيضاء وعملاقة. عجزوا عن تصديق ما يرونه. لمحوا عند قمّتها غمامة من طيور السّنونو الخائفة الّتي تخبّطت وهي تحلّق جيئة وذهابًا.

– «ينتابني شيء من دوار البحر،» غمغمت ماما مومين بصوت واهن. نظر مومين ترول إلى أبيه. تسلّق بابا مومين بوقار درج المنارة ورفع يديه ليقبض على بابها.

– «إنّه مُقفل،» قالت ماي الصّغيرة من خلفه.

استدار بابا مومين وحدّق فيها بدهشة.

– «مُقفل،» كرّرت ماي الصّغيرة. «ولا مفتاح هناك.»

جذب بابا مومين الباب. لفّ ودار، قرعه بل حتّى ركله. أخيراً رجع خطوة إلى الوراء ووقف يتفحّصه.

– «ها هو ذا المسمار،» قال. «لا مجال للشكّ في أنّه مسمار المفتاح. يمكنكم أن تروا هذا! لم يسبق لي قطّ أن سمعت عن أحد يقفل الباب من غير أن يعلّق المفتاح على المسمار. خصوصًا حارس المنارة.»

– «ربّما هو تحت الدّرج،» اقترحت ماما مومين.

لا، لم يكن المفتاح تحت الدّرج.

– «اِلزموا الهدوء الآن. هدوء، هدوء. أحتاج إلى وقت للتّفكير.» قال بابا مومين وجلس على صخرة بعيدة قليلًا وأنفه صوب البحر.

كان الجوّ قد أصبح أدفأ من السّابق، وهبّت الرّياح الجنوبيّة الغربيّة بلطف على الجزيرة. لم يشكّ بابا مومين في أنّه اليوم الصحيح، بل اليوم المثاليّ ليبسط سيطرته على المنارة. أصابته خيبة أمل كبيرة، تقلّصت معدته وعجز عن لمّ شتات أفكاره. ليس هناك مكان آخر للمفتاح غير المسمار أو تحت الدّرج. وليس هناك أُطر للباب ولا حافّات للنوافذ، ولا أحجار مسطحة أمام الدّرج. كان كلّ شيء مصقولًا وأجرد.

أُنهِك دماغ بابا مومين. أدرك طوال الوقت أن عائلته تقف خلفه، منتظرة بصمت أن يقول شيئًا. في النّهاية صاح من وراء كتفه: «سأنام قليلًا. غالبًا ما تحلّ المشاكل نفسها والمرء نائم. يعمل الدّماغ على نحو أفضل إذا تُرك بسلام.» طوى نفسه في شقّ صخرة وأنزل قبعته على عينيه. وبشعور عميق بالفرج استسلم للنّوم.

ذهب مومين ترول ونظر تحت الدّرج. «لا شيء هنا سوى طائر ميت،» قال بعد أن عثر هناك على هيكل عظميّ هشّ، صغير جدًّا وأبيض. وحالما وضعه على الدّرج نفخته الرّيح وبعثرته أسفل الصّخور.

– «رأيتُ الكثير من هذه الهياكل هناك في الخلنج،» قالت ماي الصَّغيرة الّتي تعاظَم اهتمامُها فورًا. «إنّها تذكّرني بقصّة 'انتقام العِظام المَنسية'، يا لها من قصّة جيّدة ومسليّة.»

وقفوا والصّمت يشملهم لفترة من الوقت.

– «ما عسانا نفعل الآن؟» تساءل مومين ترول.

«كنت أفكّر في ذلك الصيّاد الّذي صادفناه في اللّيل،» أجابت ماما مومين. «لا ريب في أنّه يعيش في مكان ما في الجزيرة. وربّما يعرف شيئًا.» ثمّ فتحت كيس الشّراشف وأخرجت البطّانيّة الحمراء. «دثّر بابا بهذه،» أردفت. «ليس من الجيّد النّوم على الصّخور هكذا. وبعدئذ يمكنك استكشّاف الجزيرة والبحث عن الصيّاد. وفي طريق عودتك يا موميني الطّيب أحضر لي كميّة من ماء البحر، والتّنكة النّحاسيّة من المركب وكذلك البطاطس.»

سرّه أن ينطلق، وأن توكل إليه مهمّة ما. أولى مومين ترول المنارة ظهره وباشر تسكّعه في الجزيرة. حجب بحر أحمر من الخلنج المُنحَدَر أمامه، وأسفل الصّخور ساد جوّ دافئ ومسالم. كانت الأرض متماسِكة وحارّة وطيّبة الرّائحة، إلّا أنّها ليست في أيّ حال مثل رائحة الحديقة هناك في البيت.

بعد أن أصبح مومين ترول بمنأى عن أنظار الآخرين صار في وسعه أن يستطلع الجزيرة ويشمّ عبيرها كما يحلو له. صار في وسعه أن يتحسّسها بكفّيه، وأن ينصب أذنيه ويرهف السّمع إلى أصواتها. كانت الجزيرة بعيدًا عن هدير البحر أهدأ من الوادي في دياره، ساكنة تمامًا ومغرقة جدًّا جدًّا في القِدم.

– «هذه ليست جزيرة يسهُل سبر أغوارها،» فكّر مومين ترول. أشعر

أنّها تريد أن يتركها النّاس بسلام.»

اختفى الخلنج عند سَبخة مُطحلبة في وسط الجزيرة، ولم يبرز من الطّرف الآخر إلّا ليعود ويتلاشى خلال أجمة واطئة من أشجار التنّوب والبتولا القزميّة. استغرب مومين ترول عدم وجود شجرة واحدة باسقة، فكلّ شيء بدا أنّه ينمو ملاصقًا للأرض، متلمّسًا طريقه بين الصّخور. وخطر له أنّ عليه هو أيضًا أن يجعل نفسه صغيراً بقدر ما يمكنه. ثمّ ما لبث أن بدأ يجري نحو رأس الجزيرة.

بعيدًا عند رأس الجزيرة الغربيّ قام بيت صغير من الحجارة والإسمنت، تثبّته بالصّخور كلاّبات حديديّة قوية. جهته الخلفيّة مستديرة كاستدارة الفقمة، وواجهته تستقبل البحر وتطلّ عليه من خلال زجاج نافذة صغيرة سميك ومتين. كان بيتًا بالغ الصّغر بحيث لا يكاد يسمح للمرء بأكثر من الجلوس فيه، هذا إذا كان حجمه مناسبًا، ومن المؤكّد أن صيّاد السّمك قد بناه لنفسه. رآه مومين ترول مستلقيًا على ظهره ويداه تحت رأسه يحدّق في غيمة تمخر عباب السّماء برويّة.

– «صباح الخير،» حيّاه مومين ترول. «أتسكن هنا؟»

– «في الجوّ العاصف فقط،» أجاب صيّاد السّمك بصوت غير واضح.

هزّ مومين ترول رأسه باهتمام. إنّها بالفعل طريقة عيش صحيحة في حال أحبّ المرء الأمواج العاتية. الجلوس وسط الأمواج المتكسّرة على الصّخور، ومراقبتها وهي تعلو وتنخفض كأنّها جبال تأتي وتروح، والاستماع إلى البحر يرغي ويزبد على السّطح. أراد مومين ترول أن يسأل: «أيمكن أن آتي وأتفرّج على الأمواج في وقت ما؟» لكن لم يخفَ عليه أن هذا البيت لم

يُشيّد إلّا ليتّسع لشخص واحد فقط.

– «تُبلّغك أمّي تحيّاتها،» قال. «وطلبت مني أن أسألك عن مفتاح المنارة.»

لم يندّ عن صيّاد السّمك أيّ جواب.

– «لا يستطيع أبي الدخول،» تابع مومين ترول موضحًا. «فكّرنا أنّك قد تعرف أين...»

ران عليهما الصّمت. تخلّل السّماء مزيد من الغيوم. «أليس هناك حارس منارة؟» استفسر مومين ترول.

بعد فترة التفت صيّاد السّمك برأسه ونظر إليه بعينيه الزرقاوين الرّقراقتين:

– «لا. لا أعرف شيئًا عن أيّ مفتاح،» أجاب.

– «أأطفأ الكشّاف ورحل؟» تابع مومين ترول الّذي لم يسبق له قطّ أن قابل شخصًا لا يجيب عندما يُطرح عليه سؤال. أقلقه ذلك وجعله يشعر بعدم الرّاحة.

– «أنا في الحقيقة لا أتذكّر. بل حتّى نسيت شكله..» أجاب صيّاد السّمك ثمّ قام على مهل وراح يشقّ طريقه فوق الصّخور؛ شاحبًا ومفعمًا بالتّجاعيد وخفيفًا كالرّيشة. كان ضئيل الحجم جدًّا وليس لديه أدنى رغبة في تبادل الحديث مع أحد.

وقف مومين ترول فترة يتأمّل صيّاد السّمك، ثمّ استدار على عقبيه وعاد أدراجه عبر شريط الأرض الضّيّق. وسلك بعدئذ طريق الشّاطئ حيث يرسو المركب ليحضر التنكة النّحاسيّة. هم لن يلبثوا أن يأكلوا. ستُضرم ماما مومين النّار بين بعض الأحجار، ثمّ تضع وجبة الطّعام على درج المنارة. وبطريقة أو بأخرى ستجري الأمور كما ينبغي.

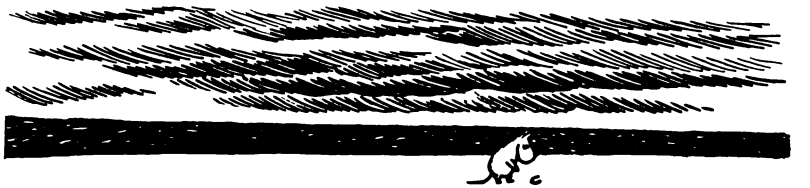

كان الرّمل الأبيض يكسو الشّاطئ، ومثل امتداد هلاليّ الشّكل ظهر الخليج المتفرّع من لسان بحريّ إلى لسان آخر، مشكّلًا بذلك مصيدةً لكلّ ما تكنسه الرّياح من الجزيرة تجاه منطقة هبوبها. وعند أعلى نقطة للمياه تجمّعت الأخشاب الطّافية وتكوّمت أسفل شجيرات الألدر. كان الرّمل في الموضع المنخفض من الشّاطئ نقيًا لا يتخلّله شيء وناعمًا كأنّه أرضيّة مصقولة، وليس هناك ألطف من المشي عليه. وإذا تتبّع المرء في سيره حافّة الشّاطئ تُخلّف قدماه حُفرًا صغيرة سرعان ما تُطمر بالماء وتصبح أشبه بالينابيع. بدأ مومين ترول يبحث عن الأصداف لأمّه بَيْد أنّه لم يعثر إلّا على المتكسّرة منها الّتي ربّما حطّمتها الأمواج.

لمح شيئًا يلمع في الرّمل ولم يكن صَدفَة، بل حدوة حصان فضّيّة صغيرة جدًّا. وعلى مقربة منها أبصر آثار حوافر تقود إلى البحر مباشرة.

– «لا شكّ في أنّ فرسًا قفزت إلى البحر من هنا وفقدت حدوة من حدواتها،» ناقش مومين ترول المسألة بينه وبين نفسه باهتمام. «نعم، لا ريب في هذا. فرس بحر صغيرة الحجم في الواقع. لا أدري أهذه الحدوة من الفضّة الخالصة أو أنّها مطليّة بالفضّة فقط؟» التقط الحدوة وقرّر أن يعطيَها لأمّه.

على مسافة أبعد قليلًا عادت الحوافر وظهرت من البحر ومضت نحو الشّاطئ. «مؤكّد أنّها فرسُ بحر. لم يسبق لي أن رأيت أيًا منها. أعرف أنّ

المرء لا يمكن أن يعثر عليها إلّا في عرض البحر حيث الماء شديد العمق. آمل أن يكون لدى فرس البحر هذه حذاء آخر إضافي في بيتها،» فكّر مومين ترول.

استقرّ المركب على جانبه ملفوفَ الشّراع، وأوحى منظره أنّه لا يريد مطلقًا الإبحار ثانية. كانوا قد سحبوه إلى بقعة عاليّة من الشّاطئ حتّى بدا كما لو أنّه ما عادت له أيّ علاقة بالبحر. وقف مومين ترول ساكنًا وعيناه تتأمّلان 'المغامرة'. «أشعر بالأسى عليها،» فكّر، «لكن ربّما هي نائمة فقط. على أيّ حال لن نلبث أن نغطّيها بشبكة في ليلة ما.»

كانت الغيوم تتجمّع وتحطّ فوق الجزيرة، غيوم وديعة ذات زرقة رماديّة تبحر في السّماء على شكل خطوط متوازية، وتوغل فيها ممتدّة نحو الأفق. تراءى له أن الشّاطئ جدُّ مقفر. «سأعود إلى البيت،» قال لنفسه. البيت بالنسبة إليه عنى فجأة درَج المنارة. أما الوادي الّذي عاشوا فيه فبدا بعيدًا، بعيدًا جدًّا. ثمّ أنّه عثر على حدوة فضّيّة تعود إلى فرس بحر. بطريقة ما أراحته تلك الأفكار.

– «لا يُعقل أن يكون قد نسي كلّ شيء!» كرّر بابا مومين للمرة الثّانية. «هو حتمًا يعرف حارس المنارة. عاشا في الجزيرة نفسها، ولا ريب في أنّهما كانا صديقين!»

– «يزعم أنّه لا يتذكّر،» قال مومين ترول.

استنشقت ماي الصَّغيرة الهواء من أنفها ثمّ زفرته من بين أسنانها.

– «ذاك الصيّاد المسنّ أحمق كبير برأسٍ محشو بالطّحالب. خمّنت هذا منذ أن حطّت عليه عيناي. في حال عاش رجلانً مثله على الجزيرة نفسها، فهما إما يعرفان كلّ شيء عن بعضهما بعضًا أو يرفضان رفضًا قاطعًا إنشاء أيّ صداقة بينهما. ويُحتمل أن يكون كلا الأمرين ساريًا، أعني أنّ أحدهما

جاء نتيجة للآخر. صدّقوني أنا أعرف. إنني دقيقة للغاية في تحليلي عندما يتعلّق الأمر بأشياء كهذه.»

– «عساها لا تُمطر،» غمغمت ماما مومين.

كانوا متحلّقين حول مومين ترول. وبعد أن توارت الشّمس خلف الغيوم غدت برودة الجوّ قارسة. شعر مومين ترول بموجة قلق تنتابه ولم يشأ أن يُخبرهم عن البيت الصَّغير الّذي يواجه الأمواج. ورأى أيضًا أنّه من المستحيل إعطاء ماما مومين حدوة الفرس آنذاك بينما هم واقفون يتفرّسون فيه على ذلك النحو. وبالتالي قرّر أن يعطي أمّه الحدوة لاحقًا حالما ينفرد بها.

– «عساها لا تُمطر،» كرّرت ماما مومين وهي تحمل التّنكة النّحاسيّة إلى النّار الّتي أضرمتها، ثمّ وضعت أزهار بابا مومين في الماء. «إذا أمطرت،» قالت، «يجدر بي أن أنظّف قِدرًا لأجمع فيها ماء المطر. هذا إذا كانت ثمّة قِدرٌ هنا...»

– «أنا مَن سيتكفّل بكلّ ذلك النّوع من الأشغال،» صاح بابا مومين محتجًّا. «تذرّعي بالصّبر. ينبغي أداء المهمّات وفق المنهجيّة الصحيحة. لا يمكن أن نشغل بالنا بالطّعام والمطر وما يُشبههما من توافه صغيرة قبل أن أضع يدي على المفتاح.»

– «هه!» همهمت ماي الصَّغيرة. «ذاك الصيّاد المسنّ رمى المفتاح في البحر، وكذلك ألقى معه حارس المنارة. أشياء مخيفة حدثت هنا والأسوأ في طريقه إلى المجيء!»

تنهّد بابا مومين. دار حول المنارة ميمّمًا الصّخور المطلّة على البحر، حيث لا يستطيع الآخرون أن يروه. فعائلته تثير أعصابه أحيانًا، لأن أحدًا من أفرادها لا يمكن أبدًا أن يركّز على أيّ مشكلة راهنة. بل حتّى تساءل في سرّه إن كان جميع الآباء يعانون ممّا يعاني منه.

في النّهاية، رأى أن لا جدوى من البحث عن المفتاح أو محاولة استكشّاف موضعه بالاستسلام للنّوم. بل ينبغي أن يستشعر مكانه. ينبغي أن يصل إلى المزاج المناسب كما درج حماهُ أن يفعل. فحماته قضت عمرها وهي تسقط أغراضها في كلّ مكان، أو تنسى أين وضعتها وهي تتسكّع هنا أو هناك. حينها كان حماهُ يشغّل شيئًا في دماغه. ذاك فقط ما يتطلّبه الأمر. وكان دائمًا يعثر على المفقودات. وقد اعتاد أن يقول إنّما بأسلوب لطيف: «ها هي خُردتك المفقودة.»

بذل بابا مومين جهده. مشى على غير هدىً بين الصّخور وحاول تشغيل شيء في دماغه. في النّهاية شعر أن كلّ ما لديه هناك في الأعلى كان يقعقع مثل بازلاء في تنكة. ولم يحدث شيء.

عثرت قدماه بين العشب القصير الّذي لوّحته الشّمس على درب ضيّق مطروق يتخلّل الصّخور. وبينما هو يجتازه محاولًا تشغيل شيء في دماغه، خطر له أنّ حارس المنارة قد سلك هذا الدرب غدوًّا ورواحًا. أنّ

حارس المنارة قد مهّده من كثرة ما سلكه منذ ردح من الزمن. ولا بدّ من أنّه قد وصل إلى بقعة المنحدر نفسها المُشرفة على البحر الّتي انتهى إليها بابا مومين. وبعد أن بلغت به تلك الدّرب المطروقة نهايتها لم يبق أمامه إلّا خواء البحر العظيم.

تسلّق بابا مومين حافة صخرة ودقّق النظر متفحّصًا ما حوله. رأى الجرف يتدرّج نزولًا على شكل منحدر إثر منحدر، كُتل من خطوط ساحليّة مرحة ولعوب، وتعاريج منحنية نأت عن الأنظار في أعمق الأعماق. استطاع أنْ يسمع هدير الأمواج المتكسّرة عند قدم الجرف، والماء يصطخب معتليًا الصّخور، ثمّ ينحسر نزولًا مثل وحش عظيم أخرق، أما الماء الكامن في الظلّ فكان قاتمًا جدًّا.

قصفت ساقا بابا مومين ودارت به الدّنيا. ومع أنّه جلس بسرعة لم يستطع منع نفسه من متابعة التطلّع إلى الأسفل. كان في حضرة المحيط العظيم، ولا أحد يعرف كم يبلغ عمقه، وهو مختلف كلّ الاختلاف عن البحر والأمواج الّتي تلعب حول حاجز الماء هناك في الدّار. انحنى بابا مومين إلى الأمام قليلًا فلمح نتوءًا صغيرًا تحت القمّة تمامًا. بدا له أنّ لا شيء أبسط من أن يسمح لنفسه بالانزلاق نحو ذلك الرّصيف الصّخري السّلس الناتئ من وجه الجرف. كان مجوّفًا ومستديرًا كالكرسيّ. فجأة أصبح بابا مومين في عزلة كاملة وانقطاع تامّ عن العالم، ولا شيء حوله سوى السّماء والبحر.

نعم، مؤكّد أن حارس المنارة درج على الجلوس هنا. ولا ريب في أنّه فعل ذلك كثيرًا. أغمض بابا مومين عينيه. جعلته جسامة ما حوله يشعر بالدُّوار، وما انفكّت البازلاء في رأسه تقعقع على نحو أسوأ من ذي قبل. لا بدّ من أنّ حارس المنارة كان يأتي إلى هنا عندما يرتفع البحر... وقد

رأى النّوارس تحلّق في الرّيح تحت السّماء العاصفة، وتمرّ كغيمة ثلجيّة أمام ناظريْه. وقطرات الماء تتناثر عليه كأنّها اللّآلئ الصّغيرة، تعلَق لحظة في الهواء أمامه، قبل أن تهبط متلاشية في الماء القاتم الهادر في الأسفل...

فتح بابا مومين عينيه ونفض جسمه. أسند ظهره وكفّيه على الجدار الصّخري خلفه، فاستطاع بفعله هذا أن يرى زهورًا صغيرة بيضاء نامية في الشّقوق. يا لَلغرابة! زهور! وفي الشّقّ الأوسع أبصر شيئًا صدِئًا لامعًا؛ أبصر مفتاحًا، مفتاحًا حديديًا صلبًا.

تكتك شيء في رأس بابا مومين. طبعًا، لقد اتّضحت الأمور الآن. هذا هو المكان الّذي كان يقصده حارس المنارة كلّما أراد الاختلاء بنفسه. مكان للتفكير والتأمّل. وهنا ترك المفتاح ليعثر عليه بابا مومين ويتولّى إدارة المنارة. بمراسم احتفاليّة عظيمة، ومساندة القوى السّحريّة وقع الاختيار على بابا مومين ليكون مالك المنارة وحارسها.

– «أوه، يا لَلروعة! أراكَ عثرتَ عليه!» هتفت ماما مومين.

– «أين كان؟» استفسر مومين ترول.

– «آه، لا أدري حقًّا،» أجاب بابا مومين بأسلوب غامض. «العالم مفعم بأمورٍ عظيمة ورائعة لأولئك الجاهزين لتقبّلها. مَن يدري ربّما جاءني تقدمةً من أكبر النّوارس وأنصعها بياضًا...»

– «هه!» همهمت ماي الصّغيرة. «أفترض أنّه قدّمه لك على شريط

حريري وفرقة عسكريّة تعزف.»

ارتقى بابا مومين الدّرج وأدخل المفتاح في القفل. ببطءٍ وبكثير من الصّرير فُتح الباب الضخم على الظّلام السّائد في الدّاخل. اندفعت ماي الصَّغيرة إلى الأمام بسرعة البرق، إلّا أن بابا مومين أمسكها من شعرها ودفعها إلى الوراء وهو يقول: «أوه، لا، لن تفعلي! لن تكوني الأولى هذه المرّة. أنا حارس المنارة الآن، وأنا مَن يجب أن يدخل أولًا ويقوم بتحرّي المكان.» وبهذا اختفى في الظّلام وماي الصَّغيرة في أعقابه.

صعدت ماما مومين بتردّد إلى الباب وألقت نظرة. كان قلب المنارة مجوّفًا كأنّه جذع شجرة متعفّن، ومن الأعلى إلى الأسفل يمتدّ درج متهالِك. وبما بدا كأنّه مجهود هائل، ارتفع الدّرج أعلى فأعلى على شكل حلقات لولبيّة أصغر فأصغر، ما انفكّت تصرّ وتقعقع تحت قدمي بابا مومين. كان ثمّة بصيص ضوء يتسرّب من بين فتحات صغيرة في الجدران السّميكة، ومن جميع تلك الفتحات لاح ظلّ طيور ضخمة لبثت ساكنة تحدّق في القادمين الجُدد.

– «ماما، لا تنسَي أن الجوّ غائم،» همس مومين ترول. «تعرفين أن كلّ شيء يبدو كئيبًا إلى حدّ ما عندما لا تسطع الشّمس.»

– «نعم، طبعًا،» أجابت ماما مومين. ثمّ تجاوزت العتبة وتسمّرت. كان الدّاخل باردًا ورطبًا، والأرضيّة الّتي تتخلّلها برك ماء قاتمة ونديّة عليها مجموعة من الألواح الخشبيّة لتتيح للمرء الوصول إلى الدّرج. تلكّأت ماما مومين.

– «انظري ماما!» قال مومين ترول. «معي شيء لكِ.»

أخذت ماما مومين حدوة الحصان الفضّيّة وتأمّلتها مليًا.

– «إنّها جميلة!» هتفت. «يا لها من هديّة حلوة! لم يسبق لي أن عرفت

أنّ هناك أحصنة صغيرة هكذا...»

– «تعالي ماما،» هتف مومين ترول. «تعالي وسنرتقي الدّرج بسرعةٍ معًا!»

كان بابا مومين في الأعلى يقف عند مدخل الباب ويعتمر قبعة مختلفة، لها حافّة طريّة ومرنة وقمّة منتفخة.

– «ما رأيكِ؟» سأل ماما مومين. «وجدتُها على مسمار في جهة الباب الدّاخليّة. لا شكّ في أنّها تعود إلى حارس المنارة. ادخلي! ادخلي! كلّ شيء هنا هو بالضّبط كما تخيّلتُهُ.»

كانت غرفة مستديرة فسيحة بسقف واطئ وأربع نوافذ. تستقرّ في منتصفها طاولة غير مطليّة وبعض الصّناديق الفارغة، وإلى جانب الموقد سرير ومنضدة، وهناك أيضًا سلّم حديديّ يقود إلى باب أفقيّ في السّقف.

– «الكشّاف فوق،» شرح بابا مومين. «سأضيئه هذا المساء. أليس من اللّطيف أن نحظى بمثل هذه الحيطان البيضاء؟ إنّها توحي بأن الغرفة فسيحة ومتجدّدة الهواء. وهذا ما يمكن أن نشعر به إذا نظرنا من النّافذة: مدى فسيح وطلق ومهوًّى!»

نظر إلى ماما مومين الّتي شرعت في الضّحك وهي تقول: «أنت محقّ

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

كلّ الحقّ! الغرفة هنا هائلة ومهوّاة!»

– «ثمّة من أصابته لوثة جنون هنا،» أعلنت ماي الصَّغيرة وهي ترمق شظايا زجاج متناثرة على الأرضيّة، وعلى الحائط أعلى منها آثار لطخة زيت سالت مشكّلة بركة صغيرة.

– «مَن كسر مصباحه يا ترى؟» تساءلت ماما مومين وهي تلتقط حامل مصباح نحاسيًّا تدحرج تحت الطّاولة. «ثم اضطّر بعد ذلك أن يقبع هنا في الظّلام.» تابعت بينما راحت تمرّر كفّيها على سطح الطّاولة متحسّسة مئات بل ربّما آلاف الخدوش الصَّغيرة؛ ستّة على التّوالي ثمّ خدش سابع يتقاطع معها. سبعة؟ هناك سبعة أيّام في الأسبوع. أسبوع بعد أسبوع. كلها متشابهة ما عدا مجموعة واحدة لا تضمّ إلّا خمسة خدوش. واصلت ماما مومين تحرّيها. التقطت أكوابًا وقدورًا، قرأت ما هو مكتوب على الصّناديق الفارغة: زبيب من ملغا، عصير من اسكتلندا، وخبز هشّ فنلندي؛ نحّت البطّانيّات عن السّرير ورأت أنّه ما زال هناك ملاءات تحتها، لكنّها لم تفتح أدراج المنضدة.

لاحقتها نظرات الآخرين بترقّب. أخيرًا قال بابا مومين: «وإذًا؟»

– «يبدو لي أنّه كان رجلًا وحيدًا،» هتفت ماما مومين.

– «نعم، لكن ما رأيكِ؟»

– «أعتقد أنّ المكان هنا لطيف،» أجابت. «يمكن أن نقيم كلّنا في الغرفة نفسها،»

– «نعم، هو كذلك!» صاح بابا مومين. «سأجمع بعض الأخشاب الطّافية من الشّاطئ وأصنع أسِرّة للجميع. وسأمهّد دربًا وأُهيئ مرسىً. هناك الكثير ممّا يجب عمله هنا... إنّما علينا أولًا أن نجلب الأمتعة خشيّة

أن تمطر. لا، لا، ليس أنتِ يا عزيزتي. خذي الأمور بيُسر واشعري أنّك في بيتك.»

التفتت ماي الصَّغيرة نحو المدخل وقالت: «سأنام في الخارج. لا أريد سريرًا، الأسِرَّة غبيّة.»

– «لا بأس يا صغيرتي،» أجابت ماما مومين. «يمكنك أن تأتيَ إلى هنا إذا بدأت الدّنيا تُمطر.»

عندما أصبحت ماما مومين وحدها، علّقت الحدوة الفضّيّة على مسمار فوق الباب. ثمّ مضت إلى النّافذة ونظرت. انتقلت من نافذة إلى أخرى. البحر في كلّ مكان، لا شيء سوى البحر ونداءات النّوارس. الجزيرة لم تكن مرئيّة على الإطلاق.

عند النّافذة الأخيرة عثرت على قلم كوبيا ونُتف خيوط وإبرة لرتق شباك الصّيد. وقفت تلهو بالقلم. وبذهن شارد بدأت ترسم أزهارًا صغيرة على النّافذة، مظلّلة الأوراق بشكل جميل، من غير أن تفكّر في أيّ شيء معيّن.

وقف بابا مومين في جوف الموقد ورأسه مرفوع نحو المدخنة.

– «هناك عشّ طائر،» صاح. «لهذا السّبب لم يشتعل الموقد.»

– «أفي العشّ فراخ؟» سألته ماما مومين.

عندما طلع بابا مومين من المدخنة كان مطليًا بالسّواد. «أظنّه عشّ أنثى طائرٍ غرّة بائسة،» قال. «وهي ليست في العشّ. من المرجّح أنّها طارت جنوبًا.»

– «لكنّها ستعود في الرّبيع!» هتف مومين ترول. «ويجب أن تعثر على عشّها عندما تعود. نستطيع أن نطهو الطّعام في الخارج!»

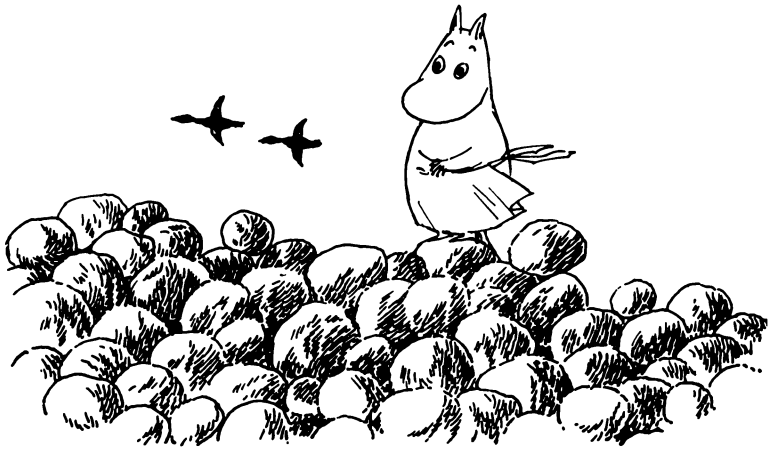

– «ماذا! نفعل هذا ما حَيينا؟» صاحت ماي الصَّغيرة مُستنكرةً.

– «طيّب، يمكن أن ننقل العشّ بعد فترة،» غمغم مومين ترول.

– «هه! مثاليّ!» قالت ماي الصَّغيرة. «أتظنّها ستعرف إن كان عشّها قد نُقل فورًا أو بعد فترة؟ تقول هذا فقط لأنّك تريد طردها بضمير مرتاح.»

– «أحقًّا سنأكل في الخارج لبقيّة حياتنا؟» استفسر بابا مومين بدهشة. فتسمّرت أنظار الجميع على ماما مومين.

– «أَنزِل العشّ،» قالت أخيرًا. «يمكن أن نعلّقه خارج النّافذة. في بعض الأحيان تكَون جماعة الترول أهم من طيور الغرّة.»

دفعت ماما مومين الصّحون الوسخة تحت السّرير لتحسّن منظر الغرفة، ثمّ خرجت لتبحث عن تربة صالحة للزّراعة.

توقّفت عند درج المنارة لترشّ غرسة شجرة الورد بقليل من ماء البحر؛ الغرسة الّتي ما زالت في صندوقها بترابها المجلوب من البيت. رأت ماما مومين أنّه ينبغي إنشاء الحديقة عند السّفح المحجوب وينبغي أن تكون قريبة

قدر المستطاع من المنارة لتسطع عليها الشّمس معظم النّهار. إنّما، يجب قبل كلّ شيء تأمين كميّة وافرة من التّربة الغنيّة لها.

بحثت ماما مومين وبحثت. فتّشت بين الصّخور حيث تنتصب المنارة، وفي الخلنج في الأسفل من ناحية الأُشْنَة. قصدت أجمة الحور الرّجراج، وجالت في الأرض الخَثيّة الدافئة، ولم تعثر على تربة صالحة في أيّ مكان.

ما سبق لها أن شاهدت من قبل هذا العدد الكبير من الصّخور. لم تلمح وراء أشجار الحور الرّجراج إلّا صخورًا؛ صحراء شاسعة من صخور رماديّة مستديرة. رأت أنّ أحدًا رفع بعض تلك الصّخور في الوسط مشكّلًا ما يشبه الحفرة. فذهبت وألقت نظرة على تلك الحفرة، إلّا أنّها لم تبصر فيها شيئًا سوى مزيد من الأحجار؛ رماديّة ومستديرة كالبقيّة. تساءلت ما إذا كان حارس المنارة قد فعل هذا بغية البحث عن شيء، أو أنّه في الواقع لم يكن يبحث عن شيء معيّن، بل ربّما رغب في أن يتسلّى فقط. فانهمك يُنحّي حجرًا تلو حجر، وعندما عادت وتدحرجت مرة أخرى سئِم وانصرف.

يمّمت ماما مومين الشّاطئ الرّمليّ. وهناك عثرت أخيرًا على تربة؛ حزام داكن من تربة خصبة يمتدّ على طول خطّ الشّاطئ أسفل شجيرات الألدر. رأت بين الصّخور نباتات خضراء نضرة ذات أزهار ذهبيّة وبنفسجيّة متفتحة. خميلة خصبة ليست في الحسبان.

أعملت ماما مومين يديْها في الأرض. لامستِ الملايين من الجذور النّامية الّتي لا ينبغي إزعاجها. إلّا أن هذا لم يهمّ كثيرًا، المهم أنّ التّربة متوافرة. آنذاك، ولأول مرّة، شعرت أنّ الجزيرة حقيقة واقعة.

نادت بابا مومين الّذي انهمك يجمع قطع الخشب العالقة بالطّحالب.

جرت نحوه ومئزرها يتطاير مع الرّيح وصاحت: «وجدت تربة! وجدت تربة!»

رفع بابا مومين رأسه وقال: «أهلًا! ما رأيكِ بجزيرتي؟»

– «إنّها لا تشبه أيّ شيء آخر في العالم!» أكّدت له ماما مومين بنبرة مرحة. «التّربة الصّالحة للزراعة هنا عند الشّاطئ بدلًا من أن تكون في قلب الجزيرة!»

– «يمكن أن أشرح لكِ،» بدأ بابا مومين. «عليكِ دائمًا أن تسأليني عما يتعذّر عليكِ فهمه. فأنا على دراية بكلّ ما يتعلّق بالبحر. والحكاية باختصار هي أنَّ ما عثرتِ عليه ليس إلّا طحالب بحريّة لفظتها الأمواج. بعد فترة تصبح تربة، تربة صالحة للزراعة. أما كنتِ تعرفين هذا؟» ضحك بابا مومين، وفتح كفّيه كما لو أنّه يقدّم لها كلّ ما يحويه البحر من طحالب وأعشاب.

استغرقت ماما مومين في جمع الأعشاب البحرية. فعلت ذلك طوال النهار، ووضعت حملها في شقّ صخرة، واثقة من أنّها ستنشئ رقعة حديقتها في أقرب وقت. كانت تلك الطّحالب تماثل التّربة هناك في البيت بلونها

القاتم الدّافئ، وتلك المسحة الأرجوانيّة والبرتقاليّة الّتي تخالطها.

كان النّهار يُشرف على نهايته. وكان صوت المطرقة في الأعلى قد توقّف منذ مدّة، وغدت النّوارس مع أفول النّهار أهدأ بكثير. وبينما سارت ماما مومين عائدة إلى البيت بين الخلنج انبرت تصفّر وهي تحتضن كومة من الخشب الطّافي. رأت أنّ بابا مومين قد شيّد لها حاجزًا على جانبي الدّرج لتستعين به في صعودها، وأمام المدخل استقرّ سريران صغيران، وبرميل عثر عليه في البحر. كان البرميل سليمًا وبدا أنّه كان في يوم ما أخضر اللون.

أصبح الدّرج الحلزونيّ أقلّ إثارة للخوف بطريقة ما. إذ ليس على المرء إلّا أن يلزم جانب الحذر أثناء ارتقائه، ويتجنّب النّظر إلى الأسفل. ويُستحسن أيضًا أن يفكّر في شيء آخر. في الأعلى كان مومين ترول جالسًا إلى الطّاولة يجمع أحجارًا مُنمنمة مستديرة في أكوام صغيرة.

– «مرحبًا،» قالت ماما مومين. «أين بابا؟»

– «فوق يُشغِّل الكشّاف،» أجاب مومين ترول. «لم يسمح لي بالصعود معه، مضى عليه هناك وقت طويل.»

رأت ماما مومين عشّ الطّير الفارغ مستقرًّا على المنضدة. تابعت الصّفير وهي تكوّم الحطب قرب الموقد. كانت الرّيح في الخارج قد سكنت، والشّمس تطلّ من النّافذة الغربيّة مُلقية بصيص ضوء دافئ على الأرضيّة والجدار الأبيض.

بينما بدأت النّار تتوهّج، زحفت ماي الصّغيرة عبر الباب وقفزت إلى عتبة النّافذة مثل هرّة. ضغطت أنفها على الزّجاج وأخذت تلوي قسمات وجهها مُستفزّة النّوارس.

فجأة فُتح الباب الأفقي بجلبة عالية وتسلّق بابا مومين السّلم الحديدي نزولًا.

– «أيعملُ الكشّاف جيّدًا؟» سألته ماما مومين. «أرى أنّك صنعت لنا أسِرَّة جميلة. وذاك البرميل أعتقد أنّه مناسب للسَّمك المملّح. خسارة أن نخصّصه لجمع ماء المطر...»

مضى بابا مومين إلى النّافذة الجنوبيّة ووقف يلقي نظرة مستطلعة. رفعت ماما مومين رأسها بسرعة ولاحظت أنّ ذيله متصلّب وطرفه يهتزّ بعصبية. لقّمت الموقد بمزيد من الحطب وفتحت علبة رنغة. شرب بابا مومين الشّاي من غير أن ينطق بكلمة. وبعدما نظّفت ماما مومين المائدة ووضعت مصباح الأعاصير على الطّاولة قالت: «سمعتُ مرّة، حسب ما أذكر، أنّ بعض المنارات تستخدم الغاز لتشغيل الكشّاف. وعندما ينفد الغاز تصبح إضاءته مستحيلة.»

غادر بابا مومين الطّاولة وهو يصيح: «أنتِ لا تفهمين. أنا حارس المنارة الآن! يجب أن يعمل الكشّاف! هو الحكاية كلّها. أتعتقدين أنّ مخلوقًا يقيم في منارة من غير أن يُبقي كشّافها مُضاءً؟ أتعرفين ما مصير كلّ تلك القوارب هناك في الظّلام؟ إنّها قد ترتطم بالصّخور، وتغرق أمام أعيننا في أيّ لحظة...»

– «إنّه مُحقّ،» علّقت ماي الصَّغيرة. «وفي الصّباح يكتظّ الشّاطئ بجثث الميمبليين والفيليجونكيين والهومبيين الممتقعين والخُضر من الأعشاب البحريّة...»

– «كفاكِ سخفًا،» نهرتها ماما مومين ثمّ التفتت إلى بابا مومين وقالت: «إنْ لم تنجح في تشغيله هذا المساء، ستفعل غدًا. أو في أيّ يوم آخر. وإن لم يعمل على الإطلاق يمكن أن نعلّق مصباح الأعاصير عند النّافذة عندما يسوء الجو. وحتمًا سيراه أحد ويدرك أنّ مصيره الارتطام باليابسة إذا أبحر

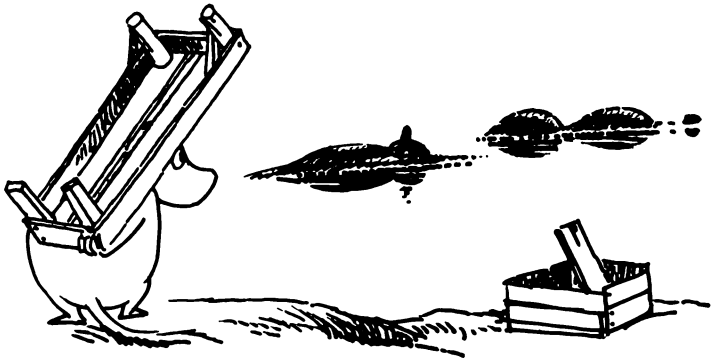

في هذا الاتجاه. بمعزل عن ذلك إلّا ترى أنّه من المُستحسن أن نحمل الأسِرَّة إلى هنا قبل أن تُظلم الدّنيا؟ أنا لا أثق بهذا الدّرج المخلخل.»

– «سأحملها وحدي،» أجاب بابا مومين وهو يتناول قبّعته المعلّقة على المسمار.

بدت الدّنيا شبه مظلمة عند صخرة المنارة. وقف بابا مومين يتأمّل البحر. «إنها تضيء مصباح الأعاصير الآن،» فكّر. «هي اللّحظة تقوّي شعلته وتقف تتفرّج عليه كما تفعل دائمًا. حسنًا لدينا كميّة وافرة من البارافين...»

أوت جميع الطّيور إلى أعشاشها. وفي طرف الجزيرة الغربي برزت الصّخور سوداء تحت السّماء الّتي غربت عنها الشّمس. تراءى له أنّ إحدى تلك الصّخور عليها مشعل، أو ربّما هو ركام من الحجارة. حمل بابا مومين السّرير الأول ثمّ تريّث يرهف السّمع.

تناهى إليه من بعيد صوت نحيب كليل، وصيحة غريبة موحشة لا تشبه أيّ شيء سمعه من قبل. ظنّ أنّ ذلك الصوت يأتي عبر الماء، كأنّه كُناسةٌ

هائلةٌ منبوذة. وللحظة تهيأ له أنّ الصّخور تحته تهتزّ، بيد أنّ الهدوء سرعان ما عاد وساد كلّ شيء.

– «أعتقد أنّه طير ما،» فكّر بابا مومين. «للطّيور أصوات غريبة جدًّا.» حمل السّرير على كتفيه. كان سريرًا مُتقن الصّنع ومتينًا وخاليًا من أيّ عيب. إلّا أن السّرير الّذي يخصّه هو سرير حارس المنارة هناك في الأعلى، ولن ينام فيه أحد سواه.

حلم بابا مومين أنّه يرتقي درجًا لم ير له نهاية. والظّلام الّذي يلفّه يضجّ بأصوات أجنحة طيور خافقة. طيور ما لبثت أن فرّت بصمت. مع كلّ خطوة خطاها صرّ الدّرج تحته وقعقع. كان في عجلة رهيبة من أمره، أراد أن يصل إلى القمّة ليضيء الكشّاف قبل فوات الأوان، بدا له أنّه من المهمّ جدًّا جدًّا أن يشغّله. ضاق الدّرج أكثر فأكثر. وبات بابا مومين أشدّ وعيًا بصرير الحديد تحت قدميه، وصل إلى الأعلى حيث المصباح ينتظر في بيته الزجاجيّ المستدير. أصبح الحلم أبطأ بينما راح بابا مومين يتلمّس الحيطان بحثًا عن عيدان ثقاب، عرقلته قطع كبيرة من الزّجاج المقوّس الملوّن. وإذ عكست أسطحُها البحرَ، صبغ الزّجاج الأحمر الأمواج بحُمرةٍ ناريّة، والزجاج الأخضر حوّل زرقة البحر فجأة إلى خضرة زمرديّة، والبحر لاح باردًا ونائيًا كما لو أنّه على القمر على بُعد أميالٍ هائلة، أو ربّما ليس في أيّ مكان محدّد. أدرك أنّه لا مجال هناك لهدر الوقت، لكن كلّما حاول الإسراع في مهمّته تباطأ الحلم. تعثّر بأسطوانات الغاز الّتي تدافَعت بأعداد كبيرة تتدحرج على الأرض كأنّها الأمواج. ثمّ عادت الطّيور وأخذت تضرب الزّجاج بأجنحتها. حال كلّ شيء بينه وبينه إضاءة الكشّاف. صرخ بابا

مومين من شدّة الخوف. تكسّر الزّجاج وتبعثرت حوله آلاف الشّظايا اللّامعة، وارتفع البحر فوق قمّة المنارة فبدأ بابا مومين يهوي أعمق فأعمق فأعمق، واستيقظ ليجد نفسه على الأرضيّة والملاءة ملتفّة حول رأسه.

– «ما الحكاية؟» غمغمت ماما مومين.

كانت الغرفة ساكنة وزرقاء ونوافذها الأربع تحدّ اللّيل.

– «كنت أحلم،» أجاب. «حلم سيئ.» أردف وهو ينهض ويضع بعض العيدان الجافّة على جمر الموقد المتوهّج، فاشتعلت النّار، وشعّ ضوء ذهبيّ دافئ في الظّلام.

– «سأعدّ لك شطيرة،» قالت ماما مومين. «هذا لأنك تنام في مكان غريب.»

جلس بابا مومين على طرف السّرير وأكل شطيرته، وما لبث حلمه المخيف أن بدأ يتلاشى من ذهنه.

– «لا أعتقد أن الغرفة هي السّبب،» قال. «بل السّرير هو ما يجعل المرء يرى مثل هذه الكوابيس. سأصنع لنفسي سريرًا جديدًا.»

– «أعتقد أنّك محقّ،» أجابت ماما مومين. «ألا تشعر أنّك تفتقد شيئًا؟ ما عدنا نسمع هنا حفيف الأشجار في الغابة.»

استمع بابا مومين. تناهى إليه لغط البحر وهو يهمهم مطوّقًا الجزيرة، وتذكّر كيف كانت الأشجار تهمس حول بيتهم القديم في اللّيل.

– «في الحقيقة هذا لطيف نوعًا ما،» تابعت ماما مومين وهي تشدّ اللّحاف لتغطي أذنيْها. «إنّه مختلف. حسنًا، لن تراودك أحلام فظيعة أخرى، أليس كذلك؟»

– «لا أتوقّع هذا. مذاق الشّطيرة في منتصف اللّيل لذيذ!»

الرياح الغربية

انبطح مومين ترول وماي الصَّغيرة تحت الشّمس يتفحّصان الأجمة. كانت واطئة ومتشابكة؛ أشجار تنوب بالغة الصّغر وذات مظهر ساخط، وكذلك أشجار بتولا أصغر منها دأبت على معاركة الرّياح طوال عمرها. جميعها نمت متلاصقة طلبًا للحماية. كانت على ما يبدو قد توقّفت عن النّمو، لكنّ فروعها وأغصانها تدلّت وأحكمت تشبّثها بالأرض أينما استطاعت الوصول.

– «مَن قد يخطر له أنّها يمكن أن تكون ضارية إلى هذا الحدّ،» علّقت ماي الصَّغيرة بإعجاب بالغ.

اختلس مومين ترول النّظر تحت حشد الأشجار الباسلة الّتي انحنت وتلّوت كالأفاعي. فوقعت عيناه على بساط شامل من إبر التنوب وأغصانه البُنيّة المعترشة، وفوقها تجاويف ظلمة فاغرة الفم تشبه الكهوف.

– «انظري!» قال. «هناك شجرة تنوب تحتضن شجيرة بتولا بين ذراعيها لتحميها.»

– «أهذا ما تظنّه؟» سألته ماي الصَّغيرة بنبرة شريرة. «يبدو لي أنّها تخنقها. هذه الغابة هي من الغابات الّتي تخنق النّاس. ولن أدهش إذا كان

هناك مخلوقٌ ما يُخنق الآن. هكذا!» قالت وهي تلفّ ذراعيها حول رقبة مومين ترول وتضيّق عليه الخناق.

– «كفى!» صرخ مومين ترول وتحرّر من قبضتها. «أحقًا تظنّين أنّ هناك شخصًا ما...»

– «أنت تأخذ كلامي حرفيًا،» ردّت ماي الصَّغيرة بازدراء.

– «لا غير صحيح،» هتف مومين ترول. «أنا فقط أستشفّ شخصًا قابعًا هناك، ويكاد هذا يبدو لي حقيقة. لكنّني لا أعرف أبدًا متى يقول النّاس الصّدق ومتى يتلاعبون بي. أأنتِ جادّة؟ أهناك أحد حقًّا؟»

ضحكت ماي الصَّغيرة ونهضت. «لا تكن غبيًا،» قالت. «إلى اللّقاء. أنا ذاهبة إلى رأس الجزيرة لأتفقّد صيّاد السّمك... غريب الأطوار ذاك. إنّه يثير اهتمامي.»

بعد رحيل ماي الصَّغيرة دبّ مومين ترول مقتربًا قليلًا من الأجمة وأمعن النّظر بقلب عاصف. من مكمنه سمع صوت الأمواج تتكسّر بلطف على الشّاطئ، وعلى ظهره حطّت أشعة الشّمس الدّافئة.

– «طبعًا لا أحد هناك،» فكّر مومين ترول بغضب. «لقد اختلَقت هذا. أعرف أنّها تختلق الأشياء دائمًا وتجعلني أصدّقها. عندما تفعل في المرّة التاليّة سأقول: هه، لا تكوني سخيفة! بشيء من التّعالي وبأسلوب عَرضيّ طبعًا. هذه الغابة ليست خطرة، هي خائفة فقط. أشجارها كلّها مائلة إلى الوراء كأنّها تريد انتزاع نفسها من جذورها وإطلاق ساقيها للرّيح. في وسع المرء أن يرى ذلك.» وبهذا، وهو ما زال غاضبًا زحف مومين ترول إلى داخل الأجمة.

اختفت الشّمس وازداد الجوّ برودة. شرمت الفروع أذنيه ووخزته الأغصان، وعقصت كفّيه بقايا خشب مجوّفة. فاحت في الجو رائحة أقبية

ونباتات ميتة. كانت البقعة هادئة، مُغرقة في الصّمت، وما عاد ممكنًا سماع صخب البحر. تهيّأ لمومين ترول أنّه يسمع تردّد أنفاس، وشعر أنّه يكاد يختنق هلعًا، أنّه حبيسٌ والأشجار تأخذ بتلابيبه. أراد من صميم قلبه أن يخرج إلى الشّمس ثانية، بسرعة، بسرعة، بيْد أنّه في تلك اللّحظة فكّر: «لا، إذا تراجعتُ الآن فلن أجرؤ على العودة والدّخول مرّة أخرى، لقد أخافتني ماي الصَّغيرة، هذا كلّ شيء. سأقول لها: أوه، على فكرة لا شيء هناك في الأجمة مطلقًا. لقد تحرّيتها. كنتِ تخدعينني!»

عطس مومين ترول وأوغل في زحفه متلمّسًا دربه بين الأشجار. وبين حين وآخر سمع قعقعة وتلاها سقوط جذع شجرة على الأرض؛ كومة مُخمليّة سمراء وهشّة من الخشب المتآكل. كانت الأرض مرنة كالمطاط وناعمة كالحرير، ومفروشة بملايين الإبر اليابسة.

بينما أوغل في زحفه أكثر فأكثر تلاشى شعوره غير المحبّب بالأسر، وحلّ محلّه شعور بأنه محميّ ومستتر بالظّلمة الباردة؛ كان حيوانًا صغيراً غضًّا يختبئ ويريد أن يُترك بسلام. فجأة صار في وِسْعِه أن يسمع هدير البحر مجددًا وأن يحسّ بدفء الشّمس وسطوع أشعّتها الباهر. في تلك الآونة وصل في زحفه إلى غَيْضة في وسط الأجمة.

كانت غَيْضة صغيرة جدًّا، تماثل مساحتها مساحة سريرين متلاصقين. دافئة وفيها نحل يطنّ حول الأزهار، تحميها الغابة من جميع الاتجاهات. وفي الأعلى فوق رأسه تمايلت أشجار البتولا يُمنة ويُسرة، سقف أخضر رقيق يسمح للشّمس بالنّظر من خلاله. كانت متكاملة. لقد عثر مومين ترول على الكمال. لا أحد وطئ ذلك الموضع قبله؛ وهي غَيْضته وحده.

جلس بحذر على الحشيش وأغمض عينيه. لطالما كان الحصول على مخبأ آمن حقيقيّ أحد أهم طموحاته الجِدّية. ما انفكّ يبحث عنه، ومع أنّه عثر

على مجموعة من المخابئ في الماضي، إلّا أنّها مجتمعةً لا تضاهي بجودتها هذا المخبأ. غَيْضة مستترة ومكشوفة في آن، وليس هناك مَن يقدر على رؤيته سوى الطّيور. الأرض دافئة وهو محصّن من جميع الجهات. تنهّد بعمق.

عقص شيء ذيل مومين ترول. لسعه ذلك لسعًا شديدًا. قفز وعرف السّبب فورًا: نمل. نمل أحمرُ صغير وعدوانيّ. رأى حشودًا منه في العشب تدبّ في جميع النّواحي. عقصت نملة أخرى ذيله. تراجع مومين ترول ببطء وقد احمرّت عيناه من خيبة الأمل؛ شعر أنّه تعرّض لإهانة رهيبة. لم يَغب عنه بطبيعة الحال أن النّمل احتلّ ذلك المكان قبل أن يظهر هو على السّاحة. لكن إذا كان المرء يعيش على مستوى الأرض فهو لا يرى شيئًا مما يجري في الأعلى. النّملة لا تملك أدنى فكرة عما تبدو عليه الطّيور أو الغيوم، أو في هذه الحالة لا تعرف ما هي الأشياء الّتي تهمّ أيّ مومين ترول على سبيل المثال.

هناك أنواع مختلفة من العدالة. وطبقًا لأحدها، وهو معقّد قليلًا ربّما، وفي الوقت نفسه منصِفٌ قطعًا، الغَيْضة له هو لا للنّمل. «كيف لي أن أجعل النّمل يستوعب هذا؟» فكّر. «يستطيع النّمل أن يعيش بسهولة في مكان آخر. على مسافة أبعد قليلًا، على بعد بضع ياردات فقط. أمَا من طريقة لتوضيح هذا للنّمل؟ وفي أسوأ الحالات إلّا يمكنني أن أرسم حدًّا فاصلًا بيننا ونقتسم الغَيْضة؟»

عاد النّمل مرّة أخرى، حدّد مكان الدّخيل وباشر هجومه. أطلق مومين ترول ساقيْه للرّيح. كان يهرب من الجنّة مكلّلًا بالخزي، إلّا أنّه في سريرته صمّم على العودة. لقد بقي ذلك المكان ينتظره طوال عمره، ربّما لعديد من مئات السّنين! ذلك المكان له لأنّه أحبّه أكثر ممّا قد يحبّه أيّ مخلوق آخر.

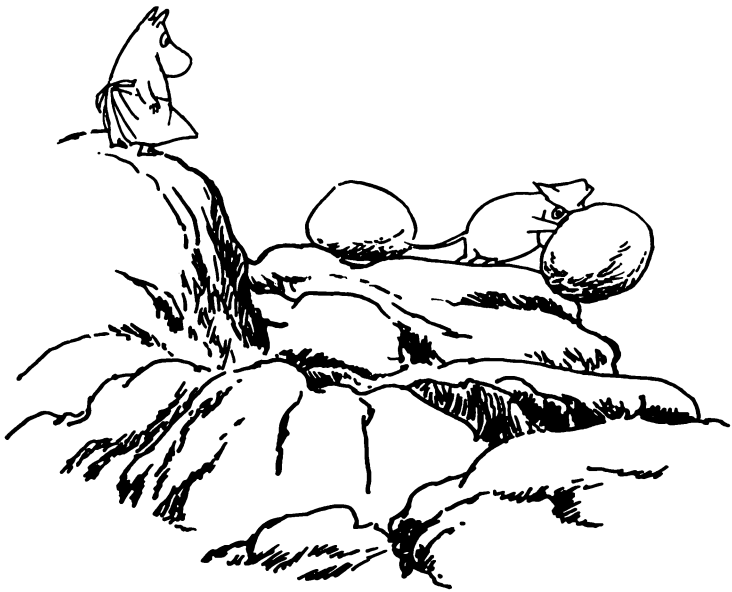

ولو أحبّته مليون نملة مجتمعة فلن يخالجها ذلك الشّعور القويّ الّذي يخالجه. أو هذا ما اعتقده.

– «بابا،» صاح مومين ترول.

لم يسمع بابا مومين ابنه لأنّه كان في تلك اللّحظة قد أحكم القبض على حجر ضخم مستدير، وما لبث الحجر أن تدحرج على المنحدر مصحوبًا بصوت ارتطام عظيم. انبعثت أثناء ارتطامه شرارتان ساطعتان خلّفتا رائحة بارود طفيفة وأخّاذة. ثمّ استقرّ في القاع، حيث ينبغي أن يستقرّ. كانت دحرجة الصّخور مهمّة رائعة. يجهد المرء أوّلًا في دفعها بكلّ قوّته، ويشعر بها تتزحزح قليلًا في بادئ الأمر، ثمّ تتزحزح أكثر، ثمّ تنفلت وتنطلق متدحرجة نحو البحر مع تدفّق ماء هائل، والمرء يقف هناك يراقبها

وقشعريرة الكدّ والزهو تسري فيه.

– «بابا!» صاح مومين ترول ثانية.

التفت بابا مومين ولوّح لابنه. «انها تستقرّ حيث ينبغي أن تستقرّ!» هتف. «هذا سيصبح مرسَى، هو نوع من حاجز أمواج.» أردف وهو يخوض في البحر وبكثير من النّفخ واللّهاث بدأ يدحرج حجرًا آخر، بل حتّى دحرج صخورًا أكبر إلى القاع وأنفه تحت الماء. اكتشف بابا مومين أنّ رفع الأحجار ودحرجتها تحت الماء أسهل بكثير. تساءل طبعًا عن السّبب، لكنّ العظيم في الأمر أن هذا جعله يشعر أنّه يتمتّع بقوّة هائلة...

– «أودّ الاستفسار منك عن شيء!» صاح مومن ترول. «عن النّمل الأحمر! هذا مهمّ!»

أخرج بابا مومين أنفه من الماء واستمع.

– «النّمل الأحمر!» كرّر مومين ترول. «أيمكن أن يناقشه المرءُ؟ أتعتقد أن النّمل قد يفهم إذا تُرِكَت له ملاحظة. أَفي وسعه أن يقرأها؟»

– «نمل أحمر؟» قال بابا مومين بدهشة. «النّمل لا يُحسن القراءة طبعًا. ولا يمكن أن يفهم شيئًا. عليّ الآن أن أعثر على جلمود ثلاثيّ الزّوايا لأضعَه بين هاتين الصّخرتيْن الكبيرتين. ينبغي أن يكون حاجز الأمواج قويًّا. يجب أن يُشيّده شخص مطّلع على كلّ شيء يخصّ البحر...» وبهذا تابع بابا مومين خوضه وأنفه في الماء.

ارتقى مومين ترول الشّاطئ ووقف حيث يمكنه أن يرى ماما مومين تدبّ في حديقتها. رآها تفرد العشب البحري على الأرض، وأَلَق الاستغراق الجذل يشعّ منها، وقد اصطبغ مئزرها ويداها باللون البُنّي.

ذهب مومين ترول إليها وقال: «ماما حاولي أن تتخيّلي بقعة أرض في غاية الرّوعة عثرتِ عليها وخصّصتها لنفسك، لتكتشفي بعد ذلك أن فيها

حشودًا من مخلوقات أخرى لا تريد التّنحّي. أتَملكُ تلك المخلوقات الحقّ في البقاء على الرّغم من أنّها لا تدرك كم أن تلك البقعة جميلة؟»

– «نعم بالتّأكيد لديها كلّ الحقّ،» أجابت ماما مومين وهي تجلس على الأعشاب البحريّة.

– «إنّما ماذا لو كانت تلك المخلوقات ستشعر بالسّعادة نفسها في كومة نفايات؟» هتف مومين ترول.

– «حسنًا، على المرء في هذه الحالة أن يتفاهم معها بالمنطق،» أجابت ماما مومين. «وربّما يساعدها في الانتقال. من الصّعب أن يضطرّ المرء إلى مفارقة مكانه إذا عاش فيه زمنًا طويلًا.»

– «أوه، تبًّا!» تأفّف مومين ترول. «أين ماي الصّغيرة؟»

– «هي في مكان ما فوق، في المنارة، تصنع ما يشبه المصعد،» أجابت ماما مومين.

كانت ماي الصّغيرة متدلّيّة بطريقة خطرة خارج النّافذة الشّماليّة ولكنْ بثقة بالنّفس عظيمة. انهمكت تدقّ مسمارًا في قالب خشب على عتبة النّافذة. وعلى الأرضيّة تراكمت كومة كبيرة من أشياء رماديّة اللون، وكان الباب القلاّب مفتوحًا.

– «ألديك فكرة عمّا قد يقوله بابا حيال هذا؟» سألها مومين ترول. «الصّعود إلى الأعلى غير مسموح لأحد. إنّها حجرته الخاصّة.»

– «هناك سقيفة فوقها،» أجابت ماي الصّغيرة بلا مبالاة. «سقيفة ظريفة يمكن أن تعثر فيها على مختلف الأشياء. ناولني ذاك المسمار. سئمت من صعود هذا الدّرج كلّما أردنا أن نأكل، ولذلك قرّرت بناء مصعد. تستطيع أن ترفعني إلى الأعلى بسلّة، أو تدلّي ليَ الطّعام. وهذا في الحقيقة

أفضل.»

– «يا لطريقتها في تدبّر الأمور!» فكّر مومين ترول. «إنها تفعل ما تودّ فعله بالضّبط، ولا أحد يعارضها. هي تفعل ذلك بكلّ بساطة.»

ثم وجّه حديثه لها قائلًا: «بالمناسبة، تلك الأجمة. لا أحد فيها. لا أحد مطلقًا. بعض النّمل فقط ربّما.»

– «حقًّا،» هتفت ماي الصَّغيرة. «لا شيء يمنعني من تصديقك.»

وبهذه العبارة الموجزة عادت والتفتت إلى مسمارها وهي تصفّر من بين أسنانها.

– «عليكِ أن تزيلي هذه الفوضى قبل أن يعود بابا،» صاح مومين ترول من بين ضربات المطرقة. وفي الوقت نفسه شعر أنّه لم يخلّف لديها أيّ انطباع على الإطلاق. استغرق ينقّب مكتئبًا في كومة من الأوراق القديمة والصفائح وشِباك صيد عتيقة وقفّازات صوفيّة وقطع من جلود الفقمات، وهذا ما جعله يعثر على التّقويم. تقويم حائط كبير فيه صورة رائعة لفرس بحر تركب موجة تحت ضوء القمر. كان القمر غاطسًا في البحر وناصية الفرس مسترسلة وذهبيّة وعيناها صافيتان جدًّا وغامضتان. عجبًا، كيف يتسنّى لأيّ مخلوق أن يرسم على هذا النّحو الجميل! وضع مومين ترول الصّورة على المنضدة وأدام التّحديق فيها مطوّلًا.

– «انتهى تاريخها منذ خمس سنوات،» قالت ماي الصَّغيرة وهي تقفز إلى الدّاخل. «الأيّام الآن مختلفة تمامًا، وثمّة من مزّق الأوراق على أيّ حال. أمسِك الحبل، وسأنزل لأرى إنْ كان هذا المصعد يعمل.»

– «انتظري دقيقة،» استوقفها مومين ترول. «هناك شيء أريد أن أسألكِ عنه. ماذا يفعل المرء ليجعل النّمل يتحرّك؟»

– «اِحفِر في الأرض طبعًا،» أجابت ماي الصَّغيرة.

– «لا، لا،» هتف مومين ترول. «أعني ليجعل المرءُ النّملَ يرحل.»

وقفت ماي الصَّغيرة تنظر إليه. بعد برهة قالت: «آه، فهمت. وجدت بقعة تروق لك في تلك الأجمة. وهي تعجّ بالنّمل. ماذا تعطيني إذا خلّصتكَ منه؟»

شعر مومين ترول أنّ أنفه يتضرّج بالحُمرة.

– «سأعالج المشكلة لكَ،» قالت ماي الصَّغيرة بهدوء. «يمكنك العودة إلى هناك بعد يوم أو يومين. خلال هذا الوقت عليك الاعتناء بمصعدي. أنا خارجة الآن.»

وقف مومين ترول ساكنًا والشّعور بالبؤس يسيطر عليه. لقد أُفشي السّر. أصبح مخبأه الآن مجرّد مكان قديم. ألقى نظرة سريعة على التّقويم، مباشرة في عيني فرس البحر. «نحن متشابهان، أنا وأنت،» فكّر. «متفاهمان إلى أبعد الحدود، لا نبالي إلّا بكلّ ما هو جميل. سأَحصل على غَيْضتي، ولا شيء غير هذا يهمّ. إنّما حاليًا لا أريد أن أفكّرَ في الأمر.»

جذبت ماي الصَّغيرة الحبل من الأسفل وصاحت: «اِرفعني! وإياك أن تفلتني! تذكّر النّمل.»

اشتغل المصعد بشكل مثاليّ. في الحقيقة هي لم تفترض قطّ أنّه لن يكون إلّا مثاليًا.

عاد بابا مومين إلى البيت عبر الخلنج، متعبًا وسعيدًا في الوقت نفسه. بطبيعة الحال، في أعماق رأسه عرف أن عليه المحاولة ثانيةً ليُضيء الكشّاف، لكنّه عرف أيضًا أنّ لديه بضع ساعات قبل حلول الغسق. وقد أمضى يومه وهو يُدحرج حجارة كبيرة، حجارة هائلة الضّخامة، وكلّما تدحرج أحدها وحطّ في الماء، أدارت ماما مومين رأسها وراقبت ما يجري من الحديقة. قرّر

بابا مومين في طريق عودته الالتفاف في جولة حول رأس الجزيرة الغربيّ.

مرّ صيّاد السّمك مُجدّفًا من ناحية هبوب الرّيح وقصبات الصّيد عند قوس قاربه. لم يسبق لبابا مومين أن سمع من قبل أنّه يمكن صيد السّمك بقصبة وخيط في وقت متأخّر جدًّا من السّنة، فشهر تمّوز هو شهر الصّيد بتلك الطّريقة. إلّا أنّ الرّجل لم يكن صيّاد سمك عاديًّا، ولعلّه أحبّ البقاء وحده. همّ بابا مومين برفع يده ليحيّيه ثمّ أعرض عن ذلك، فهو على أيّ حال لن يحصل على جواب.

تسلّق الصّخر وتابع طريقه مخترقًا الرّيح. كانت الصّخور هناك مقوّسة وتبدو مثل ظهور حيوانات هائلة تمشي ميمّمة البحر جنبًا إلى جنب. وكان قد وصل إلى البُحيرة حتّى قبل أنْ يراها. بحيرة ساكنة قاتمة ذات شكل بيضاويّ كأنّها عين كبيرة وواسعة. غمرت بابا مومين البهجة. بحيرة حقيقيّة، بركة سوداء، أكثر الأشياء غموضًا التي قد يعثر عليها أحد! ما بين تارة وأخرى كانت موجة صغيرة تشقّ طريقها إليها من البحر، وتقلقُ السّطحَ الشّبيه بالمرآة للحظةٍ وهي تشطف أطرافه، ثمّ تنحسر لتعود البحيرة بعدها إلى سكونها السّابق، محملقة بلا اهتمام في السّماء.

– «إنها عميقة،» فكّر بابا مومين. «نعم، لا شكّ في أنّها عميقة الأغوار. جزيرتي هذه عالم قائم بحدّ ذاته، فيها كلّ شيء ومساحتها مثالية. يا لسعادتي! العالم كلّه في يدي!»

عاد بابا مومين إلى المنارة بأسرع ما يستطيع. أراد أن يريهم البحيرة السّوداء قبل أن يكتشفوها بأنفسهم.

– «مؤسفٌ أنّها ليست ماء مطر،» علّقت ماما مومين.

– «لا، لا، هي من البحر!» قال بابا مومين وهو يشير بيديه. «قذفت

الرّياح العاتية ماء البحر نحو الجزيرة ودوّمت مُدحرجةً الصّخور في القاع إلى أن أصبحت البقعة جدُّ عميقة.»

– «لعلّ فيها سمك،» ألمحت ماما مومين.

– «محتمل جدًّا،» أجاب بابا مومين. «إذا كان فيها سمك فهو بلا ريب بالغ الضّخامة. تخيّلي سمكة كراكي عملاقة عاشت في هذه الأعماق لمئات السّنين، تزداد مع الوقت سُمنة وحُنقًا.»

– «سيكون هذا مثيراً للاهتمام!» علّقت ماي الصَّغيرة بنبرة مُنبهرة. «قد أرمي خيطَ صيدٍ وأكتشف.»

– «صيد السّمك ليس من شؤون البنات الصَّغيرات،» صدّها بابا مومين بحزم. «لا، البحيرة السّوداء تخصّ الآباء فقط. ولا تقتربي كثيراً من طرفها! عليكِ أن تدركي أنّها في غاية الخطورة. سأقوم بتحرّيات في غاية الدّقة إنّما ليس في الوقت الحاضر. يشغل المرسى تفكيري الآن، ثمّ يجب أن أبني فرنًا لتدخين الحنكليس والكراكي الّتي يزيد وزنها عن أربعة عشر رطلًا. وكذلك عليّ أن أُخرجَ شِباك الصّيد قبل أن تُمطر...»

– «وأيضًا شيء يعمل كالمزاريب للسطح،» أضافت ماما مومين. «في غضون يومين لن نجد ماءً للشرب.»

– «لا تقلقي يا عزيزتي،» قال بابا مومين بصوت رؤوم. «ستحصلين على مزرابك. تحلّي بالصبر ولن أتوانى عن القيام بكلّ ما هو ضروري.»

انطلقت العائلة عائدة إلى المنارة، وتابع بابا مومين حديثه عن الكراكي العملاقة. هبّت ريح لطيفة خلال الخلنج، والشّمس المائلة إلى الغروب نقعت الجزيرة بضوء ذهبيّ دافئ، وفي الخلف استقرّت البحيرة السّوداء في الظلّ بين الصّخور.

كانت ماما مومين قد أجْلَت ما خلّفته ماي الصَّغيرة من فوضى، وأُغلِق الباب القلاّب. وحالما دخل بابا مومين وقعت عيناه على التّقويم.

– «هذا بالضّبط ما أحتاجه،» قال. «أين عثرتم عليه؟ إذا أردتُ المحافظة على النّظام في هذه الجزيرة يجب أن أعرف في أيّ يوم نحن. اليوم الثّلاثاء، هذا أعرفه.» أمسك بابا مومين قلمًا ورسم دائرة كبيرة في الهامش، محدّدًا به يوم الوصول، ثمّ رسم خطّين متقاطعَين صغيرَين تحت يومي الاثنين والثلاثاء.

– «أسَبَق أن رأيتم فرس بحر من قبل؟» سأل مومين ترول. «أهي بجمال هذه الّتي في الصّورة؟»

– «ربّما،» أجابت ماما مومين. «لا أعرف. يُقال إن الذين يرسمون اللوحات يُبالغون.»

هزّ مومين ترول رأسه ممعنًا في التّفكير. مؤسفٌ أن الصّورة لا تبيّن ما إذا كانت فرس البحر تنتعل حذاءً فضيًّا أم لا.

ملأ الغروب الغرفة باللّون الذهبيّ الّذي لن يلبث بعد فترة قصيرة أن يتحوّل إلى أحمر. وقف بابا مومين في وسط الغرفة يفكّر. حان الوقت الّذي ينبغي فيه أن يصعد ويُضيء الكشّاف، لكن إنْ تسلّق السّلّمَ لن يخفى على العائلة ما هو بصدد القيام به. وعندما يعود وينزل سيعرف الجميع

أنّه لم يفلح في تشغيل الكشّاف. لماذا لا يبقون خارج البيت إلى أن يحين الغسق، ويتركونه بسلام ليحاول خفيةً؟ هناك شيء يتعلّق بالحياة العائليّة لا يستسيغه بابا مومين أحيانًا. فعائلته تفتقر إلى الحسّ المرهَف في ظروف كهذه، على الرّغم من أن أفرادها عاشوا معه مدّة طويلة.

فعل بابا مومين ما يفعله أيّ شخص في اللحظات المزعجة. ذهب ووقف أمام النّافذة مُوليًا الغرفة ظهره.

كان مؤشّر شِباك الصّيد مستقرًا على عتبة النّافذة. فأدرك أنّه نسي تمامًا فرد الشِّباك. وذاك أمر مهمّ، مهمّ جدًّا. ارتاح بابا مومين كثيراً للفكرة فالتفت، وقال: «سنفرد الشِّباك اللّيلة. ينبغي أن تكون في البحر قبل الغروب. في الواقع علينا أن نفردها كلّ ليلة بما أنّنا الآن نعيش في جزيرة.»

جدَّف مومين ترول وأبوه القاربَ ومعهما الشّباك. «علينا أن نضعها على شكل قوس من ناحية الرّأس الشّرقي،» أعلن بابا مومين. «الرّأس الغربي يخصّ صيّاد السّمك. وليس من الصّواب أن نباشر في صيد السّمك من ناحيته. جدِّف ببطء الآن بينما أبقي عيني على القاع.»

بدأ الماء يزداد عمقًا فوق مُدرّجات ترابيّة سلسة وساحقة، تنحدر في الماء كأنّها درجات سلّم احتفاليّ عريضة. جدَّف مومين ترول نحو الرّأس الشّرقي فوق غابات من الأعشاب البحريّة ما فتئت تغدو أحلَك فأحلَك.

– «توقّف!» صاح بابا مومين. «عُد قليلًا إلى الوراء. القاع مناسب

هنا. سننشر الشّباك على نحو مائل قرب تلك الصّخور. هيّا، تمهّل الآن!»

قذف العوّامة بعلمها الأبيض الصّغير في الماء، وغطّس الشّبكة في البحر، فانزلقت ببطء بحركات مديدة متجانسة، وقطرات الماء المتجمّعة على خيوطها تتلألأ. بقي الفلّين لحظة طافيًا على السّطح، ثمّ رأياه يغوص، مثل قلادة من الخرز خلفهما. كان نشر الشِّباك عملاً يشيع رضا كبيراً في النفس. هو عمل من أعمال الرّجال، شيء يفعله المرء من أجل العائلة كلّها.

عندما انتهيا من إلقاء الشِّباك الثّلاث، بصق بابا مومين على المؤشِّر وأسقطه في الماء. انقلب رأسًا على عقب ثمّ اختفى في الأسفل فوراً. وأخيراً جلس بابا مومين عند مؤخّرة المركب.

كانت أمسية مُسالمة. بدأت الألوان تشحب وتختفي في الغسق، إلّا أن السّماء بقيت محتفظة بحمرتها فوق الأجمة. جرّ المركب إلى الشّاطئ بصمت، ثمّ مضيا يقطعان الجزيرة عائدين إلى البيت.

عندما بلغ بهما السّير أشجار الحور، سمعا نواحًا خفيفًا ينبعث من ناحية الماء. تسمّر مومين ترول في أرضه.

– «سمعتُ هذا العويل أمس أيضًا،» قال بابا مومين. «إنّه طائر ما على ما أظنّ.»

أمعن مومين ترول النّظر في الأفق.

– «هناك شيء يجلس على تلك الصّخرة،» قال.

– «ذاك مشعل،» أجاب بابا مومين وتابع المشي.

– «لم يكن هناك أيّ مِشعل أمس،» فكّر مومين ترول. «لم يكن هناك أيّ شيء مطلقًا.» وقف بهدوء تامّ وانتظر.

رأى ذاك الشّيء يتحرّك. وببطء، ببطء شديد انزلق عن الصّخرة

واختفى. ذاك ليس صيّاد السّمك قطعًا، فهو قصير ونحيل. من المؤكّد أنّ ذاك شيء آخر.

لملم مومين ترول شتات نفسه وتابع طريقه نحو البيت. لن يقول أيّ شيء قبل أن يتأكّد. على أيّ حال، تمنّى مومين ترول ألّا يعرف أبدًا ما ذاك الشّيء الّذي يقبع هناك ويولول في المساء.

أفاق مومين ترول من نومه في منتصف اللّيل. استلقى بلا حراك وأرهف السّمع. تهيّأ له أن أحدًا يستدعيه، لم يكن واثقًا من هذا طبعًا، إذ لعلّه ليس إلّا حلمًا راوده. كان سكون اللّيلة لا يختلف عن السّكون الّذي لفّ ذلك المساء. ليلة يغمرها ضوء ذو بياض أزرق، والقمر يُشرفُ من عليائه على الجزيرة.

غادر مومين ترول سريره بهدوء جمّ لئلا يوقظ بابا مومين وماما مومين، ومضى إلى النّافذة، فتحها بحرص ونظرَ إلى الخارج. وإذ فعل صار في وسعه سماع هدير الأمواج الخافت وهي تتكسّر على الشّاطئ. ولمح الصّخور الدّاكنة الهائمة على وجهها في البحر. صاح طائرٌ ما من بعيد. كانت الجزيرة بأسرها هاجعة هجوعًا كليًّا.

لا، كان هناك شيء يحدث على الشّاطئ. وقعٌ بعيدٌ لأقدام تهرول، وشيء يخوض في الماء. نعم هناك حدثٌ ما يجري في الأسفل. تأجّجت حماسة مومين ترول. لم يساوره أيّ شكّ في أنّ أيًّا ما كان ذاك فهو يعنيه، يعنيه وحده، وحده فقط من دون الآخرين. وينبغي أن ينزل ويتفقّد الأمر. حدّثته نفسه بأنّ ذلك مهمّ، وأنّه يتحتّم عليه الخروج إلى اللّيل ويرى ما يجري عند الشّاطئ. كان هناك مَن يستدعيه وليس عليه بالتالي أن يخاف.

عندما أصبح أمام الباب تردّد إذ تذكّر الدّرج. كان من المروّع تخيّل

الدّرج الحلزوني ليلًا. في النّهار يمكن أن يقصده المرء بسرعة من غير أن يتيح لنفسه وقتًا للتّفكير. عاد مومين ترول إلى الغرفة وأخذ مصباح الأعاصير عن الطّاولة. وجد علبة عيدان الثقاب على رفّ الموقد.

بعد أن أغلق الباب خلفه، فغر البرج فمه تحته مثل بئر مظلم عميق الأغوار. لم يره لكنّه عرف أنّه هناك. ارتعشت شعلة مصباح الأعاصير، سطعت وخبت، ثمّ بدأت تحترق بثبات. وضع المصباح أرضًا واستجمع شجاعته ليلقيَ نظرة.

أفزع الضوءُ جميع الظّلال، فرفرفت مترنّحة حوله عندما عاد وحمل المصباح. ظلال عديدة، أشكال رائعة تتأرجح صعودًا ونزولًا في تجويف المنارة. كان المشهد جميلًا. التفّ الدّرجُ نزولًا، امتدّ وامتدّ وامتدّ نزولًا، رماديًا ومقلقلًا مثل هيكل حيوان يعود إلى ما قبل التّاريخ تاهَ في غياهب ظلمة القاع. مع كلّ درجة نزلها رقصت الظّلال على الجدران حوله. كان ذلك أجمل من أن تراوده فكرة تتعلّق بالخوف.

وهكذا نزل مومين ترول درجة درجة، حاملًا المصباح بإحكام، وبلغ أخيرًا الأرضيّة الموحلة في أسفل المنارة. صرّ الباب كالمعتاد وبدا ثقيلًا جدًّا. وقف في الخارج على الصّخرة تحت نور القمر الأسطوريّ البارد.

– «أليست الحياة مشوّقةً!» فكّر مومين ترول. «يمكن أن يتغيّر كلّ شيء فيها على حين غرّة، وبلا أيّ سبب مطلقًا! أصبح الدّرج فجأة جميلًا جدًّا، أما الغَيْضة فلا أريد التّفكير فيها أكثر ممّا فعلت.»

وطئ الصّخور بأنفاس متقطّعة، ثمّ تجاوز الخلنج، ومرّ خلال أيكة الحور الرّجراج. كانت ساكنة بلا حراك، وليس هناك أيّ نفَس للرّيح. مشى بتؤدة يرهف السّمع. كان الشّاطئ ساكنًا تمامًا.

– «لقد أفزعتُ مَن كان هنا،» فكّر مومين ترول وانحنى ليطفئ المصباح.

«كائنًا مَن كان ذاك الّذي يأتي إلى هنا ليلًا لا ريب في أنّه جدّ متحفّظ. والجزر يمكن أن تغدو شديدة الحذر في اللّيل.»

بعد أن أُخمِدت شعلة المصباح، بدت له الجزيرة كما لو أنّها تدنو منه. أمكنه الشّعور بها قربه بينما استقرّت بلا حراك تحت القمر. لم يفزع مطلقًا، بل جلس هناك ساكنًا. وما لبث أن سمعه، سمع وقع خطوات تقفز على الرّمل في مكان ما وراء الحور الرّجراج. خطوات تجيء وتروح، ثمّ تمضي إلى الشّاطئ فالماء، حيث تخوض فيه مخلّفة حولها رغوة متطايرة.

إنها هي، أفراس البحر، أفراسُه هو. في تلك اللّحظة اتّضح له كلّ شيء؛ الحدوة الفضيّة الّتي عثر عليها في الرّمل، التّقويم والقمر يُغطّس رجليه في الموج المتصاعد، النّداء الّذي سمعه وهو نائم. وقف مومين ترول بين الأشجار وراقب فرسَي بحرٍ ترقصان.

صعدتا إلى الشّاطئ ثمّ هبطتا منه برأسَين شامخَين. شعرهما يتطاير، وذيلاهما يطفوان خلفهما على شكل تموّجات طويلة متألّقة. كانتا رائعَتي الجمال، وكانتا على علم بهذا. رقصتا بدلال وحريّة وانفتاح، رقصت كلّ منهما لنفسها ورقصت لرفيقتها، وللجزيرة والبحر. بدا أنّ الأمر سيّان بالنسبة إليهما. تارة قامتا باستدارة فجائيّة في الماء وجعلتا الرّذاذ يتناثر عاليًا فوقهما، مشكّلًا أقواس قزح تحت القمر. وتارةً قفزتا إلى الوراء خلال أقواس القزح تلك وهما تحنيان رأسيهما وتنظران عاليًا لتُبرِزا منحنيات العنق وخطّ الظّهر نزولًا إلى الذّيل. كان الحال كما لو أنهما ترقصان أمام مرآة.

ثم وقفتا هادئتين تمسّد كلّ منهما الأخرى، ولا تفكّران في أحد سواهما. معًا تلبسان قطيفة رماديّة بدت دافئة وناعمة الملمس ولا أثر للماء عليها.

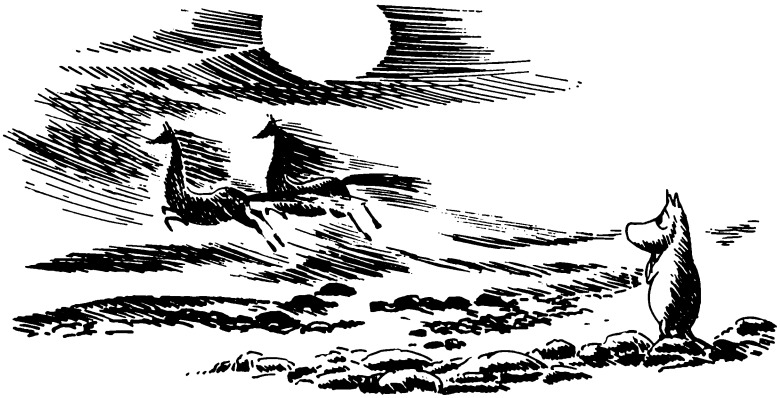

وبدت أيضًا مطرّزة بالزهور.

بينما وقف مومين ترول يراقبهما، طرأ عليه شيء غريب ولكن طبيعي. خطر له فجأة أنّه هو جميل كذلك. شعر بالاسترخاء والمرح وخفّة القلب. جرى إلى الشّاطئ وهو يصيح: «انظرا إلى نور القمر! نور دافئ! أخالُ أنني قادر على الطّيران!»

جفلت الفرسان منه، تراجعتا وأفلتتا مبتعدتين تحت القمر. اندفعتا على مقربة منه بعيون محدّقة وشعرهما يتماوج وحوافرهما تضرب الأرض بفزع، إلّا أنّه عرف طوال الوقت أنّهما تتظاهران فقط. عرف أنّهما ليستا خائفَتين منه فعلًا، ولم يدرِ أيجدُر به أن يربّتهما أو يحاول تهدئتهما. شعر أنّه عاد من جديد صغيراً وسمينًا وأخرق. وبينما مرّتا به مندفعتين نحو البحر صاح: «أنتما في منتهى الجمال، في منتهى الجمال! لا تتركاني!» تصاعدت في الهواء غيمة من الرّذاذ، اختفى آخر قوس قزح وأقفر الشّاطئ.

افترش مومين ترول الرّمل وانتظر. راوده شعور أكيد بأنّهما ستعودان. مؤكّد أنّهما ستعودان إذا تحمّل بما يكفي من الصّبر.

مرّت اللّيلة وتنحّى القمر.

– «ربّما تودّان أن تريا ضوءًا على الشّاطئ، ضوءًا يُغريهما بالعودة إلى مرحهما،» فكّر مومين ترول وأضاء مصباح الأعاصير ثمّ وضعه أمامه على الرّمل ممعنًا النّظر بترقّب شديد في الماء القاتم. بعد فترة نهض وأخذ يحرّك المصباح جيئة وذهابًا. كانت تلك إشارة. حاول التّفكير بالأشياء العاديّة الّتي تشيع الهدوء في النّفس وواصل تحريك المصباح. كان صبورًا، صبورًا جدًّا.

بدأ الجوّ عند الشّاطئ يبرد، ربّما لأنه يستعدّ لاستقبال الصّباح. طفا البرد من البحر وعام فوق الجزيرة، وبدأت كفّا مومين ترول تتجمّدان. ارتعش ورفع رأسه ينظر؛ هناك في البحر، أبصر أمامه الغروك جالسة على الماء.

كانت عيناها تلاحقان مصباح الأعاصير، وما عدا ذلك لم تحرّك ساكنًا. لكنّه أدرك أنّها لن تلبث أن تقترب. لم يرغب في أن يكون له أيّ شأنٍ معها. ما أراد إلّا الابتعاد عن صقيعها وجليدها، الابتعاد قدر المستطاع عن عزلتها المرعبة. إلّا أنّه لم يستطع الإتيان بحركة. لم يستطع بكلّ بساطة.

وقف في مكانه يلوّح بالمصباح على نحو أبطأ فأبطأ. بدأ الوقت يمرّ من غير أن يُقدِم أحدهما على فعل شيء. في النّهاية راح مومين ترول يمشي القهقرى بتمهّل بالغ. وبقيت الغروك حيث هي على جزيرتها الثّلجيّة الصّغيرة. تابع مومين ترول تراجعه من غير أن يزيح عينيه عنها، صعد مغادرًا الشّاطئ، ثمّ إلى أشجار الحور الرّجراج وأطفأ المصباح.

أرأى طيفًا يتقدّم عبر الماء؟ لم يستطع مومين ترول الجزم. كانت الدّنيا مظلمة وكان القمر قد غادر إلى ما وراء الجزيرة. وهكذا سلك طريقه إلى المنارة ورأسه مثقل بأشياء كثيرة تستدعي منه التّفكير.

كان البحر هادئًا جدًّا، لكن بين أشجار الحور الرّجراج تصاعدت همسات الأوراق بفزع. شمّ في طريقه رائحة بارافين نفّاذة تنبعث من الأجمة. رائحة لم يشعر أنّها تنتمي إلى الجزيرة، ولا إلى اللّيل.

– «أُفكّرُ في هذا غدًا،» قال مومين ترول لنفسه. «لديّ الآن أشياء أهمّ تشغل ذهني.»

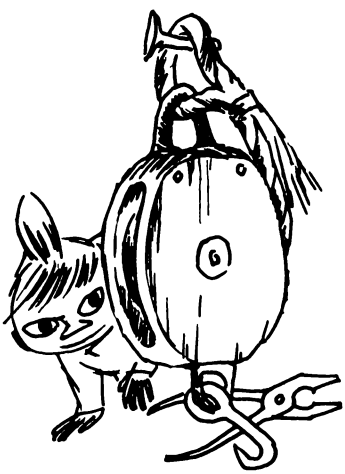

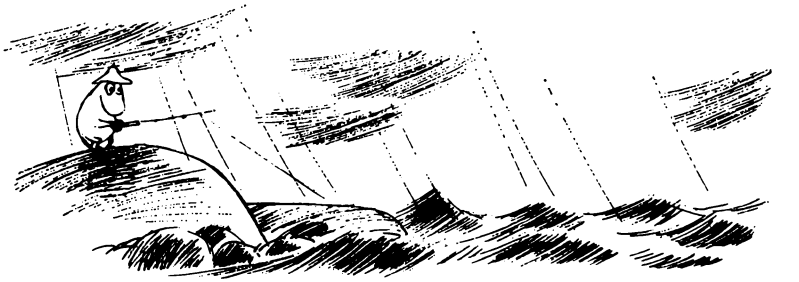

الرّياح الشّماليّة الشّرقيّة

قبل شروق الشّمس تمامًا، هبّت الرّيح. ريح خسيسة وعنيدة آتية من الشّرق. استيقظت العائلة حوالي السّاعة الثامنة، وفي ذلك الوقت كانت الرّيح محمّلة بالمطر الّذي راحت زخاته العنيفة تلسع المنارة من جميع جهاتها.

– «سنحصل الآن على بعض الماء،» قالت ماما مومين. «يُسعدني أنني حظيت بذلك البرميل ونظّفته!» أردفت وهي تضع حطبًا في الموقد وتشعله.

بقي مومين ترول ملازمًا سريره وعازفًا عن مخاطبة أحد. شاهد في السّقف لطخة رطبة توسّطتها قطرة ماء ما فتئت تكبر، ثمّ سقطت على الطّاولة، وعلى الفور حلّت محلّها قطرة أخرى.

زحفت ماي الصّغيرة عبر الباب. «هذا ليس جوًّا مناسبًا للمصعد،» قالت وهي تعصر شعرها من الماء. «الرّيح تهبّ مباشرة على جدران المنارة.»

تناهى إليهم عزيف الرّيح يحوم حول المنارة، وسرعان ما صُفق الباب بعنف.

– «ألدينا قهوة جاهزة؟» سألت ماي الصَّغيرة. «هذا الجوُّ يجعلني أتضوّر جوعًا. اكتسح البحرُ البحيرةَ السّوداء، والرّأس الّذي يشغله صيّاد السّمك أصبح جزيرة! والرّيح قلبت الرّجل رأسًا على عقب، وهو يقبع السّاعة تحت قاربه يُعدّ حبّات المطر.»

– «الشِّباك!» هتف بابا مومين وهو يقفز خارج السّرير. «شِباكنا في البحر.» ذهب إلى النّافذة إلّا أنّه لم ير أثرًا للعوّامة. كانت الرّياح الشّرقيّة تعصف برأس الجزيرة. وانتشال الشِّباك سيكون مهمّة فظيعة والرّيح تهجم من الجانب. من غير أن نُغفل ذكر المطر أيضًا.

– «لِنتركها حيث هي،» قرّر بابا مومين. «إذا تركناها ستحتوي مزيدًا من السّمك، هذا كلّ شيء. بعد تناولي وجبة الإفطار أصعد إلى الأعلى وأرى إن كان يمكنني استشفاف هذه العاصفة. من المؤكّد أنّها ستستهلك جلَّ طاقتها مع حلول المساء، سترون.»

لم يتغيّر مشهد العاصفة من الأعلى. وقف بابا مومين يعاين الكشّاف، حلّ عزقة ثمّ شدّها ثانية، فتح باب الكشّاف وأغلقه. كان ذلك بلا فائدة، إذ ما زال يجهل كيف يعمل. إنّه لَتصرّف طائش جدًّا أن لا يتركَ أحد تعليمات صحيحة في منارة كهذه! تصرّفٌ لا يُغتفَر في الواقع.

جلس بابا مومين على إحدى أسطوانات الغاز وأسند ظهره إلى الحائط. فوقه تدافع المطر يضرب زجاج النّافذة، يجلده ويصفعه كلّما هبّت نفخة ريح. كان لوح الزّجاج الأخضر مكسورًا. وعلى الأرض تحته ظهرت بحيرة صغيرة. تأمّلها بابا مومين بذهن شارد، وتخيّل أنّها دلتا ذات أنهار طويلة متشعّبة، ثمّ أطلق العنان لعينيه تتجوّلان على الحائط وتستكشفانه. رأى أن أحدهم قد خطّ بقلم رصاص على الجدران ما تهيّأ له أنّه شِعر. اقترب بابا

مومين ووقف يقرأ:

هناك في البحر الخالي،
حيث لا يظهر غير القمر،
لم يُلمح شراع واحد يمرّ
في أربع سنوات طوال موحشة.

– «لا شكّ في أن حارس المنارة هو مَن كتب هذا،» فكّر بابا مومين. «خطرت له الكلمات والبؤس يكتنفه في أحد الأيّام. صعب أن يتخيّل المرء إضاءة كشّاف لسفنٍ لا تمرّ أبدًا.» ثم، في موضع أعلى من الجدار ظهر أن الحارس يشعر بشيءٍ من البهجة، إذ كتب هناك:

عاصفة من الشّرق، وتهكّمات عفاريت أزلية،
معًا تنتهيان، في الغالب، باكيتان.

شرع بابا مومين يتفقّد الجدران واحدًا واحدًا متفقّدًا ما خطّه حارس المنارة. طالعته ملاحظات عديدة عن قوّة الرّياح. وتبيّن له أن أسوأَها هي عاصفة الجنوب الغربي الّتي تبلغ عشر درجات. في موضع آخر كتب حارس المنارة مزيدًا من الأشعار، بيد أنّها شُطبت بخطوط سوداء ثخينة. كلّ ما استطاع تمييزه كان شيئًا عن الطّيور.

– «عليّ أن أعرف أكثر عنه،» فكّر بابا مومين. «حالما تهدأ العاصفة أبحث عن صيّاد السّمك. لا ريب في أنّهما كانا على صلة. فقد عاشا في الجزيرة نفسها. أما الآن فسأغلق هذا الباب القلاّب. ولن أصعد إلى هنا ثانية. هذا جدٌّ مُحبِط.»

نزل على السّلم وقال: «انها تتّجه قليلًا نحو الشّمال الشّرقي. وربّما لن

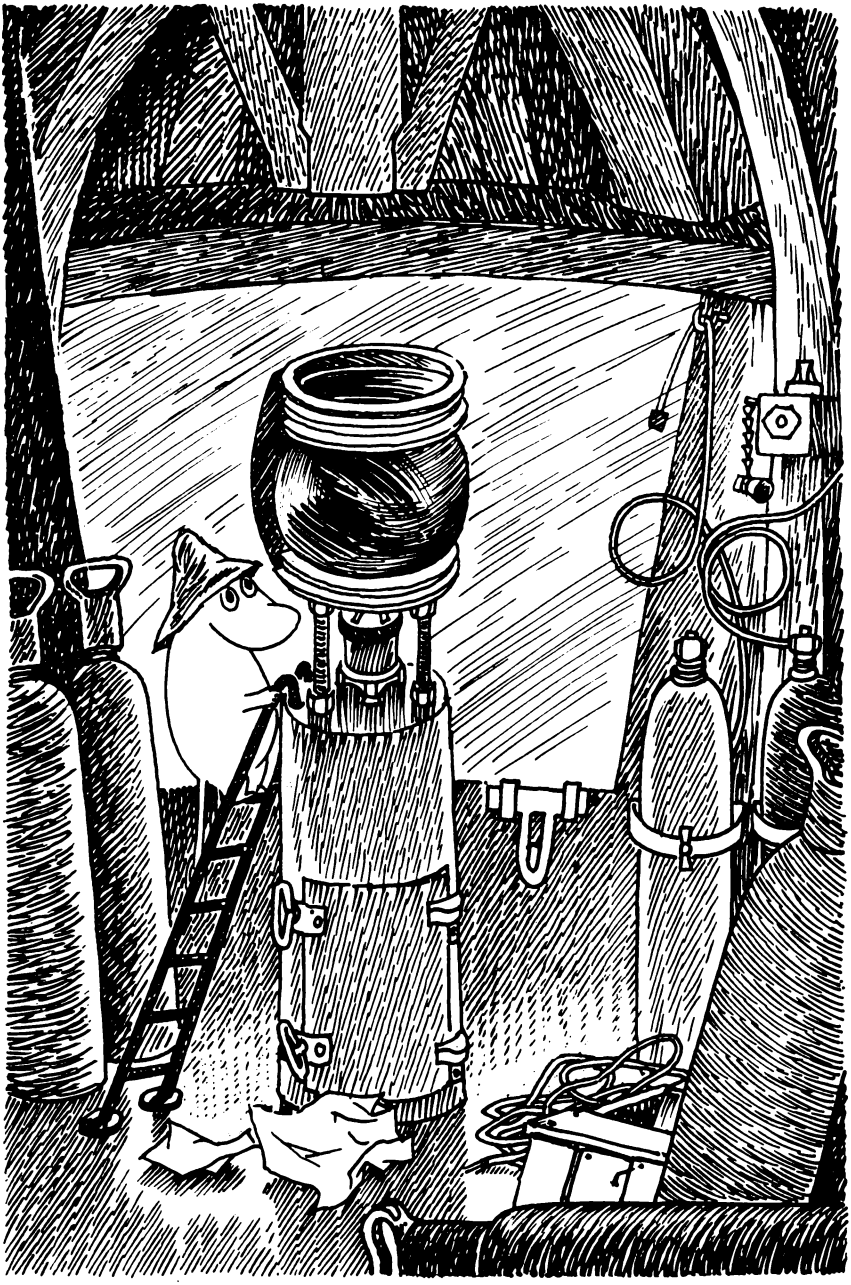

تلبث أن تهمد. يجدر بنا أن ندعو صيّاد السّمك ذاك إلى القهوة في يوم ما.»

– «أراهن أنّه لا يشرب القهوة،» قالت ماي الصَّغيرة. «أنا واثقة من أنّه لا يتناول إلّا الطّحالب البحريّة والسّمك النيء. وربّما يشفط العوالق بأسنانه الأمامية.»

– «ماذا؟» صاحت ماما مومين. «يا لذوقه الغريب!»

– «يبدو عليه كما لو أنّه لم يأكل أيّ شيء آخر،» أضافت ماي الصَّغيرة. «وهذا لن يفاجئني قطّ. لكنّه يعرف جيّدًا ما يريد، ولا يطرح الأسئلة مطلقًا،» أردفت بنبرة مُفعمة بالتقدير.

– «ألا يخبرك شيئًا؟» استفسرت ماما مومين.

– «ولا أيّ شيء،» أجابت ماي الصَّغيرة ثمّ تسلّقت إلى حافّة المدخنة وتقوقعت هناك عند الجدار الدّافئ لتنام بانتظار توقّف المطر.

– «هو على أيّ حال جارنا،» قالت ماما مومين لا شعوريًا. «أعني لا بدّ من أن يحظى المرء بجيران.» وبعد أن تنهّدت أضافت: «أعتقد أنّ المطر يتسرّب إلى الدّاخل.»

– «سأصلح هذا،» قال بابا مومين. «أفعلُ ذلك قريبًا، عندما يساعدني الوقت.» لكنّه فكّر بينه وبين نفسه: «ربّما يصحو الجوّ. لا أريد الصعود إلى الأعلى مجددًا. هناك الكثير ممّا يذكّرني بحارس المنارة.»

اقترب اليوم الماطر الطّويل من نهايته، وقُبيل المساء خفّت سرعة الرّياح كثيراً، فقرّر بابا مومين أن يجمع الشّباك.

– «يمكنكم الآن أن تروا أنّني أعرف شيئًا عن أحوال البحر،» قال مسرورًا جدًّا من نفسه. «نعود في الوقت المناسب لتناول شاي المساء،

ومعنا أكبر سمكة. أمّا الباقي فنعيده إلى البحر.»

كان الماء يُخضِل الجزيرة كلّها. بدت رخوة وأفقدها المطر جميع ألوانها. وبسبب ارتفاع مستوى الماء كثيراً لم يتبقّ ما يمكن رؤيته من الشّاطئ إلّا القليل. كان المركب يمور مترنّحًا من جانب إلى جانب ومؤخّرته في البحر.

– «ينبغي أن نسحبه إلى الشّاطئ نحو أجمة شجر الألدر،» قال بابا مومين. «ها أنتَ ترى الآن ما يفعله الماء عندما يأتي الخريف. لو انتظرتُ إلى الغد لأرفع الشّباك لما بقي لدينا مركب. مع البحر لا شيء يُجدي مهما احتاط المرء! وإنّي لأتساءل،» تابع بابا مومين، «أتساءل لماذا يعلو البحر وينخفض هكذا. لا بدّ من أنّ هناك تفسيراً...»

التفت مومين ترول ينظر حوله. تبّدل الشّاطئ تبدّلًا كاملًا، والبحر المنتفخ اصطخب مُكفهّرًا وسَئِمًا وطرح أكوامًا من الطّحالب على طول الشّاطئ. «ما عاد شاطئًا يصلح لأفراس البحر. لا أظنّها تحبّ سوى الشّواطئ الرّملية، ولن تحفل بالعودة إلى هنا من جديد! وماذا لو أفزعَتها الغروك وجعلتها تولّي هاربة...» فكّر مومين ترول. ألقى نظرة متردّدة مستشفًّا الجزر الصّغيرة البعيدة عن الشّاطئ، لكنّها كانت متوارية خلف وابل الرّذاذ.

– «انتبه إلى وجهة تجديفك!» صاح بابا مومين. «تحرّى مكان الطّوافة وخُذ حذرك من الأمواج وإلا تقذفنا إلى اليابسة!»

وضع مومين ترول جلّ ثقله على مجدافه الأيسر. استدارت 'المغامرة' بسرعة مواجهةً الرّيح وعلقت بين الأمواج المنخفضة.

– «جدّف خارجها! جدّف خارجها!» صاح بابا مومين من المؤخّرة. «أدِر 'المغامرة'! إلى الوراء! إلى الوراء!» ثمّ انبطحَ فوق مؤخّرة المركب وحاول الوصول إلى الطّوافة. «لا، لا، لا! من هذه النّاحية! لا، من النّاحية

الأخرى، أعني! نعم هكذا. أمسكتها. جدّف الآن إلى الأمام مباشرة!»

قبض بابا مومين على الشّبكة وبدأ يرفعها. كان المطر يلسع وجهه والشّبكة ثقيلة جدًّا.

– «لن نقدر مطلقًا على أكل هذا السّمك كلّه،» قال لنفسه بذهن مشوّش من فكرة الحصول على مثل ذلك الصّيد الهائل. «يا له من عمل!» حدّث نفسه. «لكن إذا كان لدى المرء عائلة، فلدى المرء عائلة...»

تهيّأ لمومين ترول وهو يبذل طاقته في التّجديف كالمهووس أنّه لمح شيئًا أسود في الشّبكة. ولم يكن ذلك الشّيء الأسود إلّا أعشاب البحر. لم تحتوِ الشّبكة إلّا أكوامًا وأكوامًا من أعشاب البحر!

لم يقُل بابا مومين شيئًا. كفّ عن محاولة رفع الشّبكة بحرص، وقبع فوق قوس المركب يسحبها بذراعيه بالطّريقة القديمة المعهودة. وما لبثت أن ظهرت من جوانبها حفنات من طحالب كثّة ذات لون بني مائل إلى الصّفرة، إنّما ولا سمكة واحدة. وهكذا كان حال الشّباك الأخرى، لا شيء سوى الأعشاب البحرية. أدار مومين ترول المركب وتركه ينجرف نحو

الشّاطئ ممسكًا بالمجداف الأيمن من غير أن يجدّف، وخلال لحظات دسّت 'المغامرة' أنفها في اليابسة. لطمت الموجة التّاليّة طرفها فانقلبت. وفجأة عادت الحياة إلى بابا مومين.

– «اقفز إلى الماء واسحب الجؤجؤ،» صاح. «اسحبه وأَمسكه بقوّة!»

وقف مومين ترول والماء يصل إلى خصره، ممسكًا بـ 'المغامرة' وموجة تلو موجة تتكسّر على رأسه. كان الماء شديد البرودة ولسعُهُ موجِعًا. حاول بابا مومين جذب الشّباك إلى اليابسة، جذب وشدّ وقبعته تحجب عينيه، وما لبثت المجاديف أن تدحرجت نحو الرّمل وعلقت بالشّباك وبساقيه، وبهذا وصلت الأمور إلى أسوأ ما يمكن أن تكون. عندما نجحا أخيراً في جرّ 'المغامرة' وتأمين سلامتها أسدل المطر ستارة جديدة فوق البحر، وأخفت الظّلمة معالم كلّ شيء. كان اللّيل يخيّم.

– «حسنًا، تدبّرنا الأمر جيدًا،» قال مومين ترول وهو ينظر بحذر إلى أبيه.

– «أتظنّ؟» ردّ بابا مومين بنبرة شكّ. حدّق في أكوام الشّباك والأعشاب البحريّة الهائلة ثمّ استقرّ به القرار على أن مومين ترول مُحقّ. «نعم صحيح،» قال. «معركة مع المحيط! هذا ما حدث هنا كما ترى.»

عندما سمعت ماي الصَّغيرة حكايّة مغامرتهما، وضعت شطيرتها على الطّاولة أمامها وقالت: «حسنًا! قريبًا تتسلّون كثيراً. قد يستغرق منكم الأمر ثلاثة إلى أربعة أيّام لتنظّفوا هذه الشِّباك. تلك الأعشاب البحريّة تعلق بقوّة شيطانية. يحدث هذا نتيجة ترك الشِّباك طوال اليوم.»

– «هكذا إذًا؟» بدأ بابا مومين.

– «لدينا الكثير من الوقت،» علّقت ماما مومين بسرعة. «وربّما هو

عمل مُسلّ فعلًا في حال كان الجوّ لطيفًا...»

– «يمكن أن ينظّفها صيّاد السّمك بالتهام ما فيها،» اقترحت ماي الصَّغيرة. «هو يحبّ الأعشاب البحرية.»

شعر بابا مومين بخواء عظيم. واجهته مشكلة الطّحالب البحريّة بعد مشكلة الكشّاف التعيس مباشرة، وليس في هذا عدل. يكدح المرء ويكدح ولا شيء ينفع. تبدو الأشياء كأنّها تنزلق من بين أصابعه. بدأت أفكار بابا مومين تهيم على وجهها، واسترسل يُحرّك ويُحرّك ملعقته في فنجانه على الرّغم من أنّ السّكر قد ذاب منذ مدّة. في وسط الطّاولة استقرّت أصغر قِدر لديهم. وعلى مراحل سقطت فيها قطرة ماء من السّقف مُصدرة صوتًا. جلس مومين ترول يحملق في التّقويم، وبفتور راح يشكّل عقدًا في ذيله.

– «يُستحسن أن نشعل المصباح،» قالت ماما مومين بنبرة مرحة. «اللّيلة عاصفة، لذا لا مانع من أن نعلّق المصباح عند النّافذة!»

– «لا، ليس النّافذة،» صاح مومين ترول وهو ينتفضُ واقفًا.

تنهّدت ماما مومين، فهذا بالضّبط ما خشيَته. الجوّ الماطر يجعلهم يتصرّفون بغرابة كما لو أن المطر منعهم من القيام بنزهة. وطبعًا الأيّام الماطرة الّتي تنتظرهم كثيرة جدًّا. هناك في بيتهم القديم لطالما وجدوا ما يشغلهم في الدّاخل، أمّا هنا... قامت ماما مومين، اتّجهت نحو المنضدة وفتحت دُرجها الأعلى.

– «تفقّدتُ هذا الدّرج اليوم،» قالت. «هو فارغ تقريبًا، ولا يمكن أن تتخيلّوا على ماذا عثرت فيه! أحجيَة صُور مقطّعة. هناك على الأقلّ ألف قطعة صغيرة، ولا أحد يستطيع أن يخمّن ما الصّورة إلّا بعد تركيب القطع معًا. ألا تعتقدون أن هذا مسلٍّ؟»

أفرغَت الدّرج من القطع وكوّمتها على الطّاولة بين أقداح الشّاي.

حدّقت العائلة في الكومة الهائلة بوجوه مُمتعضة.

قلب مومين ترول قطعة. كانت سوداء. سوداء بسواد الغروك. أو تلك الظّلال في الأجمة، أو بؤبؤ عيون أفراس البحر. أو حتّى مثل ملايين الأشياء الأخرى. يمكن أن تمثّل تلك القطعة أيّ شيء، ولن يعرف المرء مكانها إلّا بعد أن تكتمل الأحجية.

في تلك اللّيلة كانت الغروك ترسل صوتها بالغناء وهي على البحر. لا أحد جاء إلى الشّاطئ ومعه مصباح. انتظرت وانتظرت ولم يأت أحد.

بدأت بهدوء، ثمّ بالتدريج أصبحت أغنيتها عن عزلتها تعلو وتعلو. لم تعد أغنيّة حزينة وحسب، بل أصبحت جريئة أيضًا. «لا غروك أخرى غيري. أنا الغروك الوحيدة. أنا الكائن الأبرد من أيّ شيء على الإطلاق. أنا أبدًا أبدًا لا أغدو دافئة...»

– «هذا صوت فقمة،» غمغم بابا مومين بينه وبين وسادته. غطّى مومين ترول رأسه بالبطّانيّة. عرف أن تلك ليست إلّا الغروك قابعة تنتظر الفانوس، لكنّه لن يسمح لها أن تسبّب له الشّعور بعذاب الضّمير. في وسعها أن تعوي بقدر ما تشاء، فهو لا يكترث. لا يكترث قيد أُنملة. ثمّ إن ماما مومين قالت أنّهم يستهلكون البارافين أكثر مما هو ضروري. وليس هناك المزيد ليُقال.

مرّت الأيّام، وزاد ارتفاع مستوى الماء بينما واصلت العاصفة الشّرقيّة العنيدة هبوبها. تدافع الموج حول الجزيرة بهدير مخدِّر متواصل. انقطع بيت صيّاد السّمك الصَّغير عن بقيّة العالم انقطاعًا تامًّا، لكن، حسب ما قالت ماي الصَّغيرة، لا شيء يُسعده أكثر من أن يُترك وشأنه. ولمّا توقّف المطر

نزلت العائلة إلى الشّاطئ لتتفقّد الأحوال هناك.

– «يا لأكوام الطّحالب الهائلة!» هتفت ماما مومين، مبتهجةً لرؤيتها. «أستطيع الآن تشييد حديقة أكبر بكثير!» ارتقت الصّخرة بسرعة، وفجأة تسمّرت حيث تقف. اختفت حديقتها، اختفت عن بكرة أبيها بلا أيّ أثر. لقد جرفها البحر.

– «حسنًا، جعلتُها قريبة جدًّا من البحر طبعًا،» فكّرت ماما مومين وشعور عظيم بالإحباط يجتاحها. «عليّ أن أحمل الأعشاب البحريّة إلى مكان أعلى وأبدأ في زراعة حديقة جديدة...»

تفرّست في الشّاطئ المغمور بالماء والأمواج العاتية تقتحمه بأنصاف دوائر مهسهسة، وترتفع ضاربة مؤخّرة المركب الجاثم ملتصقًا بشجيرات الألدر، جاعلة إياه يقفز باستياء. رأت بابا مومين واقفًا في الماء يبحث عن مانع الأمواج الّذي شيّده. ذهب هنا وذهب هناك، وخاض إلى خصره. التفت وصاح بشيء ما.

– «ماذا يقول؟» استفسرت ماما مومين.

– «اختفى،» أجاب مومين ترول. «جميع أحجار مانع الأمواج انزلقت

بعيدًا وتدحرجت.»

كان هذا حدثًا جللًا. أسرعت ماما مومين على الرّمل الرّطب وإلى الماء لتُظهر تعاطفها. هذا أفضل بكثير من قول أيّ شيء في لحظة كهذه.

وقف بابا مومين وماما مومين جنبًا إلى جنب في الماء والبرد يسري في عظامهما. «بحره هذا قاس...» فكّرت ماما مومين بينها وبين نفسها.

– «تعالي نصعد إلى اليابسة،» قال بابا مومين بذهن شارد. «لعلّ هذه الأحجار ليست كبيرة كفاية كما ظننتُ.»

تحرّكا مخلّفين كلّ شيء وراءهما، مرّا بالقارب وهما يتّجهان نحو أجمة الحور الرّجراج. هناك وقف بابا مومين وقال: «من العبث أن نحاول تمهيد درب هنا. هذه الأحجار البائسة ضخمة للغاية. ولو كان هذا ممكنًا لمهّد حارس المنارة دربًا منذ عهد بعيد، وكذلك الحال بالنسبة إلى إنشاء مرسى.»

– «ربّما ليس على المرء أن يحاول تغيير طبيعة الأشياء هنا في هذه الجزيرة،» قالت ماما مومين. «بل ينبغي تركها على حالها. هناك في دارنا السّابقة كانت الحياة أسهل بطريقة ما... مع ذلك سأحاول إنشاء حديقة جديدة، في مكان أعلى.»

لم يقل بابا مومين شيئًا.

– «وهناك الكثير مما ينبغي القيام به في المنارة،» تابعت ماما مومين. «يستطيع المرء أن يصنع رفوفًا، ومجموعة من الأثاث اللّطيف! أليس كذلك؟ ويُثبّتُ ذلك الدّرج البغيض... ويصلح السّقف أيضًا...»

– «لا أريد أن أصلحَ شيئًا،» فكر بابا مومين. «لا أريد أن ألتقطَ أعشاب البحر... أريد أن أبني أشياء ضخمة، أشياء منيعة، أريد هذا بكلّ جوارحي... إلّا أنّني لست أدري حقًّا... صعب جدًّا أن يكون المرء ربّ أسرة!»

توجّها إلى المنارة، لمحهما مومين ترول وهما يختفيان وراء المرتفع وذيلاهما متدلّيان.

استشفّت عيناه فوق صخرة المنارة قوس قزح متكسّر بكل أطيافه الشّفافة. وبينما وقف يتأمّله لاحظ أن الألوان بدأت تبهت، وأدرك في الحال أنّه من المهم له الذّهاب إلى غَيْضته قبل أن تختفي جملة وتفصيلًا. أسرع إلى الأجمة، انبطح أرضًا وزحف إلى الدّاخل.

كانت الغَيْضة تخصّه وحده، وكانت جميلة كالمعتاد حتّى في الجوّ الغائم. لمح بيت عنكبوت فضّي بين الفروع يتلألأ بقطرات الماء. وعلى الرّغم من الرّيح العاصفة في الخارج ساد السّكون الغَيْضة، ولا أثر للنّمل فيها. ولا حتّى نملة واحدة.

خطر له أن النّمل مختبئ من المطر، وبدأ ينبش الطّبقة العليا من التّراب بيديه الاثنتين. آنذاك عاد وشمّها ثانية؛ رائحة البارافين. وهناك عثر على النّمل، أعداد غفيرة من النّمل وكلّها مسحوقة. أهوال مرعبة! مذبحة فظيعة لم تنجُ منها نملة واحدة! أغرقها البارافين وأبادها.

نهض مومين ترول، وعلى حين غرّة صدمته الحقيقة: «الذنب ذنبي. كان يجدر بي أن أعرف. ليست ماي الصَّغيرة من النوع الّذي يساير النّاس ويحاول إقناعهم. فهي إما أن تتصرّف بطريقة ارتجاليّة أو لا تفعل أبدًا. ماذا أفعل الآن؟ ماذا أفعل؟»

جلس مومين ترول في غَيْضته، الغَيْضة الّتي تخصّه وحده إلى الأبد، وراح يميل إلى الأمام والخلف ورائحة البارافين تزكمه وتلتصق به. بقيت ملتصقة به طوال طريق عودته إلى البيت، وكان واثقًا من أنّه لن يتخلّص منها مطلقًا.

– «لكنّ النّمل مثل البعوض،» قالت ماي الصَّغيرة. «ومن الجيّد

التخلّص منه! وأنت في جميع الأحوال عرفتَ تمامًا ما كنتُ أنوي فعله! تمنيّتَ فقط ألّا أخبركَ ولا تعرف. أنت بارع جدًّا في خداع نفسك!»

لم يكن هناك جواب على ذلك.

في ذلك المساء ضبطت ماي الصَّغيرة مومين ترول يزحف خلسة بين الخلنج في محاولة واضحة للتّخفّي. تبعته حالًا، ورأته يبعثر السّكر حول أطراف أجمة التنّوب. ثمّ عاد واختفى في الأجمة ومعه تنكة.

– «هه!» همهمت ماي الصَّغيرة. «إنّه يحاول الآن أن يريح ضميره. يمكنني أن أخبره أن النّمل لا يأكل السّكر، وأنه سيذوب على أيّ حال لأن الأرض رطبة. وأن أيّ نملة سهوتُ عنها لا تبالي مطلقًا بكلّ ما جرى، ولا تحتاج إلى المواساة. إنّما لا داعي لأن أزعج نفسي بهذا.»

ثمّ مرّ يومان لم يفعل فيهما مومين ترول ولا ماما مومين شيئًا ما عدا تنظيف الشِّباك من الطّحالب والأعشاب البحرية.

ثمّ عاد المطر ثانية. اتّسعت البقعة الرّطبة الّتي تتخلّل السّقف أكثر فأكثر، وسقطت منها قطرات الماء في القِدر الصَّغيرة مُصدرةً صوت «بليب، بليب، بليب» وصوت «بلوب، بلوب، بلوب» في القِدر الكبيرة. يومها جلس بابا مومين في حجرة الكشّاف يتأمّلُ النّافذة المكَسورة بنفور عظيم. وكلّما أدام النّظر إلى النّافذة التعيسة وأمعن في التّفكير فيها، ازداد فراغ ذهنه. ينبغي أن تُسمّر من الخارج، أو تغلّف من الدّاخل بنسيج سميك وصُمغ. هذا ما اقترحته ماما مومين.

شعر بابا مومين بإعياء شديد، وفي النّهاية تمدّد على الأرضيّة. أصبح زجاج النّافذة الأخضر في عينيه زمرّدًا جميلًا. فبدأ يشعر بالتّحسّن، وبعد

فترة راودته فكرة مُبدعة. فكرة وليدة خياله هو وحده. «إذا قطعتُ شريطًا عريضًا ومتينًا من نسيج كيس سميك، ثمّ نشرت عليه الصّمغ، ثمّ كسرت الزّجاج الأخضر إلى قطع زمرّديّة كثيرة وألصقتها فوق الصّمغ...» هبّ بابا مومين جالسًا ولسان حاله يقول: «يا لها من فكرة مشوّقة!»

– «يمكن أن أرشّ رملًا أبيض ناعمًا بين الزمرّد قبل أن يجفّ الصّمغ نهائيًا. لا، ربّما أضع الأرزّ بدلًا منه. نعم. في وسعي أن أستخدم حبوب أرزّ دقيقة بيضاء، مثل اللآلئ، آلافًا وآلافًا منها.»

نهض بابا مومين، حمل مطرقة ومشى إلى النّافذة المكسورة. بدأ يفصل الزّجاج عنها بعناية بالغة. سقطت قطعة كبيرة على الأرضيّة وتحوّلت إلى شظايا. انتقى حفنة من القطع الصَّغيرة وبصبر لا نهائي بدأ يكسرها محوّلًا إيّاها إلى قطع جميلة متساوية.

بعد الظهر، حينما أصبح الحزام جاهزًا فتح بابا مومين الباب القلاّب ونزل.

– «جرّبته،» قال لماما مومين. «ثم ضيّقته قليلًا. مؤكّد أنّه الآن يناسبكِ.»

رفعت ماما مومين الحزام فوق رأسها ومرّرته منه وتركته ينزلق إلى خصرها حيث ينبغي أن يكون.

– «لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا!» صاحت ماما مومين. «إنّه أجمل ما أُعطي لي على الإطلاق!»

كانت سعيدة جدًّا إلى درجة أنّها شعرت فجأة بالأهميّة.

– «لم نفهم لماذا طلبتَ الأرزّ!» هتف مومين ترول. «إنّه ينتفخ عندما يتعرّض للماء... لذا ظنّنا أنّك تنوي استخدامه لتمتين النّافذة بطريقة ما...»

– «رائع،» علّقت ماي الصَّغيرة بإعجاب مُمانع. «لا أكاد أصدّق،» أردفت وهي تضع طشت الغسيل في مكان مختلف بحيث لا يصدر عن قطرات الماء السّاقطة من السّقف صوت «بليب» أو «بلوب» بل «بلب»، ثمّ أضافت: «حسنًا، هذا يعني أن علينا توديع حلوى الأرزّ!»

– «خصري عريض قليلًا،» قالت ماما مومين بنبرة عتاب. «يمكن أن نأكل الثّريد بدلًا منها.»

قُوبِل هذا الاقتراح بصمت كامل. في هذه الأثناء سمع بابا مومين قطرات الماء السّاقطة من السّقف وهي تحدث نغمًا من ثلاث نوتات بدلًا من اثنتين، نوتات كُتبت له خصيصًا. ولم يَستسِغ هذا.

– «يا عزيزي لو اضطررتُ إلى الاختيار بين قطعة حُلي وبين حلوى الأرز،» بدأت ماما مومين، إلّا أن بابا مومين قاطعها قائلًا، «ما كميّة الطّعام الّتي أكلناها؟»

– «كميّة كبيرة إلى حدّ ما،» أجابت ماما مومين بقلق. «أنت تعرف ماذا يفعل هواء البحر...»

– «ما الكمية المتبقية لدينا؟» تابع بابا مومين. فقامت ماما مومين بحركة غامضة عَنَت أنّه لم يتبقّ هناك الكثير ما عدا العصيدة، وأنها ليست في النّهاية كميّة كبيرة.

حينئذ، فعل بابا مومين الشّيء الوحيد الممكن الّذي يستطيع فعله في مثل هذه الحالة. أخذ صنّارة الصّيد، اعتمر طاقيّة حارس المنارة، وبصمت شامخ اختار أفضل خيط صنّارة لديه.

– «أنا ذاهب لأصطاد السّمك،» قال بهدوء. «نحن في أنسب جوّ لصيد الكراكي.»

استنفدت العاصفة الشّماليّة الشّرقيّة طاقتها، لكنّ مستوى الماء بقي عاليًا جدًّا. كانت الدّنيا تمطر رذاذًا، والصّخور والماء اصطبغت باللّون نفسه، عدم رمادي وعزلة موحشة.

جلس بابا مومين يصطاد ساعة كاملة في البحيرة السّوداء. لم يفلح في الحصول على قضمة سمكة واحدة. «لا يجدر بالمرء أن يتحدّث عن سمك الكراكي قبل أن يصبح الصّيد في متناوله،» فكّر.

مثل معظم الآباء من طبيعة معيّنة أحبّ بابا مومين صيد السّمك. حصل على صنّارة الصّيد في عيد ميلاده قبل سنتين وكانت صنّارة ممتازة. إلّا أنّها غالبًا ما انتصبت في زاويتها بطريقة لا تسرّ العين، كأنّها بذلك لا تنفكّ تذكّره أنّها لصيد السّمك.

وقف بابا مومين وأمعن النّظر في ماء البحيرة القاتم، والبحيرة بادلته النّظر بعينها العظيمة. سحب خيط الصّنّارة ووضع غليونه في قبعته. ثمّ مضى نحو جهة منصرف الرّيح.

قد يكون هناك سمك كراكي، سمك صغير ربّما، أيّ شيء يعود به إلى البيت في جميع الأحوال.

على مقربة من الشّاطئ في البحر قعد صيّاد السّمك في قاربه يصطاد.

– «أهذا موقع مناسب للصّيد؟» سأله بابا مومين.

– «لا،» أجاب صيّاد السّمك.

جلس بابا مومين على صخرة وحاول التّفكير في شيء يقوله. لم يسبق له قطّ أن التقى شخصًا تصعب محادثته. بدا له كلّ شيء أخرق ومُربِكًا.

– «أظنّ أنّ المكان موحش قليلًا هنا في الشّتاء،» غامر وقال، لكنّه لم يسمع جوابًا. فحاول مرةً أخرى.

– «بيد أنّكما كنتما اثنين هنا طبعًا. كيف كان حارس المنارة؟»

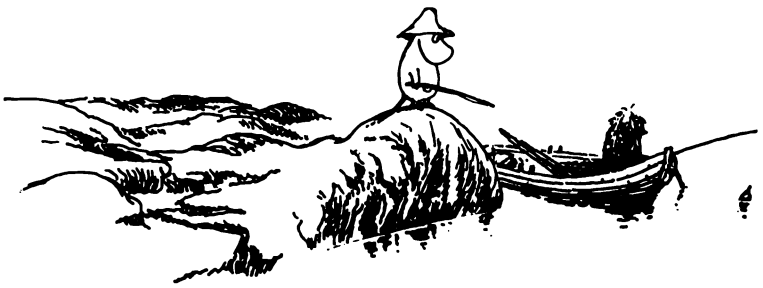

غمغم صيّاد السّمك بشيء ما وتململ مضطربًا قليلًا في مقعده.

– «أكان كثير الكلام؟ أأسهبَ في الحديث عن نفسه؟»

– «الجميع يفعل،» أجاب صيّاد السّمك فجأة. «كلّهم يتحدّثون عن أنفسهم. نعم، تحدّث عن نفسه دائمًا. لكن ربّما لم أعره انتباهي. نسيت.»

– «ماذا جرى حتّى رحل من هنا؟» سأل بابا مومين. «أخبا ضوء الكشّاف قبل رحيله أو بعد رحيله؟»

هزّ صيّاد السّمك كتفيه وسحب خيط صنّارته. كان الخطّاف خاليًا. «نسيتُ،» قال.

بيأس قام بابا مومين بمحاولة أخرى. «ماذا كان يفعل طوال اليوم؟ أَبَنى شيئًا؟ أأنزلَ أيّ شِباك في البحر؟»

قذف صيّاد السّمك خيط صنّارته بطريقة متأنيّة جميلة محدثًا دائرة مُتقنة على سطح الماء، ما لبثت أن توسّعت ببطء واختفت. التفتَ وأمعن النّظر في البحر.

قام بابا مومين ومشى قدمًا. بطريقة ما أشاع فيه غضبه شعورًا بالارتياح. قذف خيط صنّارته في البحر من غير أن يهتمّ بمراعاة اللّباقة في المسافة الفاصلة بينه وبين صيّاد السّمك، المسافة الّتي ينبغي على أيّ شخص محترَم

أن يُراعيها عندما يصطاد السّمك قرب صيّاد آخر. وعلى الفور تلقّفت سمكة الطّعم.

سحب سمكة فرخ تزن رطلًا. أحدث جلبة كبيرة، نفخ ولهث ورشّ الماء، ولطم السّمكة بالصّخر، فقط ليزعج صيّاد السّمك بقدر ما يستطيع. وما فتئ يختلس النّظر إلى الطّيف الرّمادي الجالسّ بلا حراك محدّقًا إلى البحر.

– «أظنّ أنّ هذه السّمكة تزن خمسة أرطال!» قال بصوت عالٍ، مُخفيًا السّمكة وراء ظهره. «سيكون تدخينها عملًا مهمًا!»

لم يتحرّك صيّاد السّمك ولا قيْد أنملة.

– «سيُلقّنه هذا درسًا!» غمغم بابا مومين. «مسكين حارس المنارة ذاك وهو يحكي ويحكي عن نفسه، وهذا، هذا الرّوبيان الضّئيل لا يستمع إليه.» مضى عائدًا إلى المنارة قابضًا بإحكام على سمكة الكراكي.

كانت ماي الصّغيرة جالسة على الدّرج، تُنشد إحدى أغانيها الرّتيبة عن الجوّ الماطر.

– «مرحبًا،» حيّاها بابا مومين. «أنا غاضب.»

– «جيّد!» أجابت ماي الصّغيرة باستحسان. «تبدو كما لو أنّك خلقت لنفسك عدوًّا يليق بك. هذا يساعد دائمًا.»

ألقى بابا مومين السّمكة على الدّرج. «أين هي؟» سأل.

– «تتجوّل في حديقتها،» أجابت ماي الصّغيرة. «سأعطيها السّمكة.»

هزّ بابا مومين رأسه موافقًا، ويمّم طرف الجزيرة الغربيّ. «سأصطاد السّمك على مرأى ومسمع ذلك الرّجل. سألتقط كلّ سمكة مباركة هناك. سأُريهم...»

عُلِّقت الشّباك الممزّقة تحت درج المنارة وسرعان ما نُسي أمرها. كفّت ماما مومين عن الإشارة إلى الرّفوف الصَّغيرة أو الأثاث، والبقعة الرّطبة في السّقف ما فتئت تتّسع وتتّسع كلّما هطل المطر. أما الباب القلاّب فبقي مغلقًا.

لم يعُد بابا مومين يعبَأ بشيء غير صيد السّمك. لَزم الخروج طوال النّهار حاملًا صنّارته ولم يرجع إلى البيت إلّا ليأكل. يغادر باكرًا في الصّباح ولا يسمح لأحد بمرافقته. كفّ عن محاولة استفزاز صيّاد السّمك، فاستفزاز أيّ شخص ضئيل مثله يرفض أن يغضب ليس فيه متعة على الإطلاق. ولم تشغل باله إلّا فكرة واحدة محدّدة: تأمين قوت العائلة. وحرص دائمًا على وضع ما يصيده على درج المنارة.

إذا اصطاد سمكًا كبيرًا أخذه إلى الشّاطئ ودخّنه. يجلس أمام الموقد في الرّيح يُلقّم النّار غُصينًا تلو غُصين بتأنٍّ ليبقي اضطّرامها منتظمًا. حصّن موقده جيّدًا بالرّمل والحصى، وجمع أغصان شجر العرعر، وقطع رقائق من خشب الألدر ليدخّن السّمك بالطّريقة الصحيحة. في تلك الآونة بات الآخرون لا يرونه كثيراً. وقُبيل المساء يجرّب حظّه في البركة السّوداء، بيد أنّه لم ينجح في اصطياد شيء هناك.

عندما يتحلّقون في المساء لشرب الشّاي لا يتحدّث إلّا عن السّمك وصيد السّمك. لم يفاخر بطريقته المُحبّبة المعهودة، بل ألقى محاضرات طويلة، وكانت ماما مومين تستمع إليه بدهشة محرَجة، غير مستوعبة حقًّا دروسه عن الذين يصيدون السّمك بالصّنّارة ولا عن طريقة الصّيد بها.

– «إنّه لا يلهو، بل هو في منتهى الجدّية،» فكّرت ماما مومين. «لقد عمِرت جميع الجِرار والحاويات الّتي لدينا بالسّمك المملّح، ومع ذلك ما زال يذهب للصّيد. طبعًا عظيم أن نحظى بطعام وفير، لكن بطريقة ما كان

الحال أحلى عندما لم يتوافر لدينا طعام يكفينا. أعتقد أن البحر هو ما يزعجه ويجعله هكذا.»

تزنّرت ماما مومين بالحزام الزمرديّ يوميًا لتؤكّد لبابا مومين إعجابها به، طبعًا على الرّغم من أن التأنّق به لا يليق إلّا بيوم الأحد، بل حتّى كثيراً ما سبّب لها الإزعاج لأن قطع الزّجاج ما برحت تعلق بكلّ شيء، وما لم تتحرّك بحذر بالغ لا يكفّ الأرزّ عن التساقط.

أصبحت حديقة ماما مومين الجديدة جاهزة، دائرة مشرقة من الأعشاب البحريّة أسفل صخرة المنارة. وضعت حولها حجارة صغيرة مستديرة بما أن البحر رفض تزويدها بالأصداف. في الوسط غرست شتلة شجرة الورد الّتي أحضرتها من بيتهم القديم مع التّربة الّتي جلبتها فيها. رأت وردة تهمّ بالتّفتّح، بيد أنّها بدت متردّدة في فعل ذلك أو عدم فعله. وهذا طبيعيّ حتمًا، لأنهم في شهر أيلول.

غالبًا ما حلمت ماما مومين بكلّ الأزهار الّتي تودّ زراعتها عندما يعود الرّبيع. رسمت تلك الزهور على عتبة النّافذة الشّماليّة. وكلّما جلست تتأمّل البحر من النّافذة رسمت زهرة بذهن شارد، وأفكارها مُنصَبّة على شيء مختلف كلّ الاختلاف. أحيانًا تعتريها الدّهشة من أزهارها تلك، ويتراءى لها أنّها نمت وحدها في غفلة منها، إلّا أن هذا جعلها تبدو أكثر جمالًا في ناظريها.

أصبح المقعد عند النّافذة يشيع الشّعور بالوحدة بعد أن خلا الخارج من طيور السّنونو الّتي هاجرت جنوبًا في يوم عاصف ماطر عندما لم يكن هناك من يراقبها. وغدت الجزيرة آنذاك مسربلة بصمت غريب. كانت ماما مومين قد ألِفت أصواتها وثرثرتها اللانهائيّة تحت الإفريز. ولم يبق في الفضاء إلّا النّوارس الّتي تمرّ أمام النّافذة بعيون صفراء لا ترفّ. وقد تتردّد أحيانًا في

الفضاء نداءات طيور الغرنوق وهي تحلّق متّجهة جنوبًا، ومتوغّلة جدًّا فيه.

ليس من المستغرب في الواقع ألّا يلاحظ بابا مومين وماما مومين ما كان مومين ترول يفعل، بما أن رأسيهما شُغلا دومًا بالتّفكير بأمور أخرى. لم يعرفا شيئًا عن الأجمة أو الغَيْضة، ولم يلاحظا أن مومين ترول ينهض في اللّيل بعد طلوع القمر، وينزل إلى الشّاطئ حاملًا مصباح الأعاصير.

ما رأته ماي الصّغيرة وما اعتمل في ذهنها بقي طيّ الكتمان. داومت معظم الوقت على اللّحاق بصيّاد السّمك أينما ذهب، إلّا أنّهما نادرًا ما تبادلا الحديث. تحمّل أحدهما الآخر قسرًا، وبالكاد استأنس به، وحافظ كلّ منهما على استقلاليته. لم يهتمّ أيّ منهما بفهم الآخر، أو سعى إلى ترك انطباع ما لديه، وهذه أيضًا طريقة أخرى للاستمتاع.

هكذا كانت الأحوال تسير في الجزيرة عندما عادت فرسا البحر وظهرتا في إحدى اللّيالي الخريفيّة.

لم يكن هناك ما هو جديد في مداومة مومين ترول على النّزول إلى الشّاطئ ومعه مصباح الأعاصير. كان قد بدأ يألف وجود الغروك: رأى أنّها مصدر إزعاج أكثر من كونها مصدر خطر. ولم يعرف أهو ينزل إلى الشّاطئ من أجلها أو على أمل أن تعود فرسا البحر. كلّ ما في الأمر أنّه يستيقظ حالما يظهر القمر ويشعر أنّ عليه النهوض. كانت الغروك هناك دائمًا. تقف على مسافة غير بعيدة في الماء تراقب حركات المصباح بعينيها. وعندما يُطفئ المصباح، تعوم متغلغلة في ظلام البحر ثانيّة من غير أن تّصدر صوتًا، وبعدئذ يعود مومين ترول إلى البيت.

إلا أنّها أخذت تدنو قليلًا كلّ ليلة. وفي تلك اللّيلة وجدها قابعة على الرّمل تنتظر.

توقّف مومين ترول عند أجمة الألدر ووضع المصباح أرضًا. لقد كسرت الغروك الطّقس المعتاد بصعودها إلى الشّاطئ؛ وهذا تصرّف خطأ. هي لا تمتّ إلى الجزيرة بصلة، وهي تشكّل خطرًا على كلّ شيء ينمو هناك، كلّ شيء تسري فيه الحياة.

وقفا متواجهَين بصمت كما يفعلان عادة. حوّلت الغروك عينيها عن المصباح وحطّتهما على مومين ترول. لم يسبق لها قطّ أن فعلت هذا. حدّقت فيه بعينيها الصّقيعيّتين ومنهما تنبعث نظرة متلهّفة. وعندما أخفَت

القمرَ غيومٌ عابرة عجّ الشّاطئ بظلال تولّي هاربة بسرعة، ثمّ عاد القمر وبزغ ثانية.

عندئذ أقبلت فرسا البحر تعدوان من طرف الجزيرة. لم تباليا قيد أُنملة بالغروك؛ راحتا تتسابقان تحت نور القمر، تشكّلان أقواس قزح وتقفزان خلالها. لاحظ مومين ترول أن إحداهما تفتقر إلى فردة حذاء، إذ ليس لديها إلّا ثلاث حدوات. كان معطفها مزدانًا بالزهور حقًّا، أنواع مختلفة من الأقحوان، صغيرة عند جِيدها وسيقانها. أو ربّما هي زنابق ماء، بما أنّها أكثر شاعريّة. عدت تلك الفرس فوق مصباح الأعاصير مباشرة، فسقط على الرّمل.

– «أنتَ تفسد نور قمري! نور قمري!» صاحت الفرس.

– «أنا آسف،» قال مومين ترول، وأطفأ المصباح بأسرع ما يمكنه.

– «عثرتُ على حذائك...»

وقفت فرس البحر وأمالت رأسها جانبًا.

– «لكنّني في الحقيقة أعطيته لأمّي،» أضاف مومين ترول.

اختفى القمر. عادت الحوافر تجري، واستطاع مومين ترول أن يسمع الفرسين تتضاحكان في الظّلام.

– «أَسَمعتِ ما قاله؟ أَسَمعتِ ما قاله؟» قالت فرس للأخرى. «أعطاه لأمّه! لأمّه! لأَمّه!»

جرتا نحوه، تمسّحتا به. كنست ناصيتاهما وجهه كأنّهما عشب حريريّ أملس.

– «يمكن أن أسترجعَه! يمكن أن أذهب وأحضرَه!» صاح في العتمة.

ظهر القمر ثانية. رأى الفرسين تلجان البحر جنبًا إلى جنب، وشعرهما يعوم خلفهما. كانتا متماثلتين شكلًا. أدارت إحداهما رأسها وصاحت من بعيد: «في ليلة أخرى...»

قبع مومين ترول على الرّمل. لقد تحدّثت معه. وَعَدته بالرّجوع. سيكون هناك نور قمر في العديد من الليالي المُقبلة عندما لا تفترش الغيومُ السّماءَ. وحينها سيحرص على الامتناع عن إضاءة مصباح الأعاصير.

شعر فجأة أن ذيله آخِذ بالتّجمّد. اكتشف أنّه يجلس في البقعة عينها الّتي جثمت عليها الغروك.

في اللّيلة التاليّة نزل إلى الشّاطئ من غير أن يأخذ معه مصباح الأعاصير. كان القمر في طريقه إلى الزّوال، ما يعني أن فرسَي البحر ستقصدان مكانًا آخر لتلهوا. هذا، أدركه مومين ترول وشعر به غريزيًا.

استرجع مومين ترول حدوة الحصان الفضّية. ولم يكن استرجاعها عمليّة سهلة. احمرّ خجلًا وتصرّف بطريقة غريبة جدًّا. أمّا ماما مومين فنزعت الحدوة عن المسمار ولم تسأله لماذا يريدها.

– «فركتُها بورنيش الفضّة،» قالت. «انظر كم أصبحت رائعة!»

لم تقل أكثر من ذلك، وبصوت طبيعيّ تمامًا أيضًا.

غمغم مومين ترول ملمّحًا إلى أنّه سيعوّضها بشيء آخر، وانسحب وذيله بين ساقيه. لم يستطع أن يبوح بشيء عن فرس البحر، لم يستطع بكلّ بساطة. ما تمنّى إلّا أنْ يعثر على بعض الأصداف. ستُسرّ أمّه حتمًا بالحصول على أصداف أكثر من حدوة. ومن المؤكّد أنّه من اليسير على فرس البحر أن تستخرج له من قاع البحر أكبر الأصداف وأجملها. هذا طبعًا إذا كانت أفراس البحر تكترث لأمر أمهات الآخرين. وربّما من الأفضل له ألّا يسأل.

لم تأتِ.

أفل القمر ولم يظهر أثر لأي فرس بحر. طبعًا هي قالت «في ليلة

أخرى،» ولم تقل «ليلة غد.» ليلة أخرى قد تعني أيّ ليلة. جلس مومين ترول يلعب بالرّمل وشعر بنعاس شديد.

وطبعًا جاءت الغروك. جاءت فوق الماء تركب غيمتها الصّقيعيّة الّتي تشبه الضمير السّيئ، ودبّت إلى الشّاطئ.

استشاط مومين ترول غضبًا فجأة.

تراجع إلى أجمة الألدر وصاح: «لا مصباح معي لكِ! لن أضيئه لكِ مرّة أخرى أبدًا! لا ينبغي أن تأتي إلى هنا، هذه الجزيرة جزيرة أبي!» تقهقر مبتعدًا عنها، ثمّ استدار وأسلم ساقيه للرّيح. ارتعشت شجيرات الحور الرّجراج وحفّت كما لو أنّ هناك عاصفة في طريقها إلى الهبوب. عرفت تلك الأشجار أن الغروك في الجزيرة.

عندما عاد إلى سريره سمعها تعوي، وبدا صوتها أقرب بكثير من السّابق. «طالما أن الآخرين لا يعلمون بأمرها، آمل ألّا تأتي إلى هنا،» فكّر. «إنها تواصل الولولة مثل بوقِ تحذيرٍ من الضّباب... أعرف أنّ هناك مَن قد يقول إنني أتصرّف بغباء، وهذا هو أسوأ ما في الأمر برُمّته.»

عند طرف الأجمة قبعت ماي الصَّغيرة تتنصّت تحت غصن شجرة واطئ. أحكمت جذب العشب حولها ثمّ أخذت تصفّر مستغرقة في التّفكير. «لقد أقحم نفسه الآن في فوضى عارمة. هذا ما يحدث عندما يبدأ المرء في خلق مشكلة مع الغروك، ويتخيّل أنّه قادر على إنشاء صداقة مع فرس بحر.»

ثمّ تذكّرت النّمل فجأة، فضحكت من صميم قلبها وبصوتٍ عالٍ.

الضّباب

في الحقيقة، لم تقل ماما مومين شيئًا فظيعًا، وبالتّأكيد ليس كلامًا يمكن أن يجعل بابا مومين يشعر بالاستياء. وعلى الرّغم من بذل جهدٍ كبير لم يستطع بابا مومين أن يتذكّر ما قالته بالضّبط. كان على أيّ حال شيئًا عن اكتفاء العائلة من السّمك.

بدأ ذلك عندما لم تبدِ إعجابًا كافيًا بسمكة الكراكي. ومع أنّهم لا يملكون ميزانًا، كان في وسع أيّ شخص أن يرى أن وزنها يربو على ستّة أرطال، حسنًا، خمسة على الأرجح. عندما لا يصطاد المرء إلّا سمكة فرخ تلو الأخرى لأنه يريد تأمين قوت عائلته، يصبح اصطياد سمكة كراكي حدثًا مهمًا. وآنذاك أبدت تلك الملاحظة المتعلّقة بحصولهم على سمك أكثر من حاجتهم.

كانت ماما مومين قد جلست كالمعتاد عند النّافذة، ترسم الأزهار على عتبتها الّتي غصّت بتلك الرّسوم. فجأة قالت من غير أن تنظر إلى أحد معيّن بشكل خاصّ، أنّها باتت لا تدري ما عساها تفعله بكلّ ذلك السّمك الّذي اصطاده. أم تراها قالت أنّه ما عاد لديهم مزيد من الجِرار لحفظ السّمك فيها؟ أو ربّما ذكرت شيئًا عن أنّه من اللّطيف تناول العصيدة على سبيل التّغيير. كان على أي حال الأحوال شيء من هذا القبيل.

وضع بابا مومين صنّارة الصّيد في ركنها وخرج طلبًا للنزهة على طول الشّاطئ، إنّما ليس قرب الرّأس الّذي يشغله صيّاد السّمك.

كان يومًا غائمًا وفي منتهى السّكينة. وبالكاد يستطيع المرء أن يستشفّ تماوج سطح الماء الوئيد بعد هبوب الرّياح الشّرقية. كان البحر رماديّ اللون كلون السّماء ويشبه الحرير. حلّقت بضع بطات على مقربة من الماء، بسرعة كبيرة، وبدا واضحًا أنّها بصدد الاهتمام بمشاريعها الخاصّة. مشى بابا مومين، وذيله في البحر، إحدى قدميه تطأ الماء والأخرى على الصّخور. طاقيّة حارس المنارة مُسدلة فوق أنفه، وما انفكّ يتساءل إن كانت عاصفة ما ستهبّ أم لا. عاصفة حقيقيّة. وإذا حدث هذا لا يملك المرء وقتئذٍ إلّا أن يهرع هنا وهناك لينقذ ما يمكن إنقاذه، وليتأكّد من أنّ العائلة لم تُجرف. ثمّ يتسلّق برج المنارة ويحاول استبيان درجة العاصفة... ثمّ يعود وينزل وهو يقول: «تبلغ قوة الرّيح ثلاث عشرة. علينا المحافظة على هدوئنا. ليس هناك ما في وسعنا عمله...»

رأى في طريقه ماي الصَّغيرة تلتقط سمك 'أبو شوكة'.

– «لا أراك تصطاد السّمك؟» انبرت تستفسر.

– «توقّفت عن ذلك،» أجاب بابا مومين.

– «لا بدّ أن في هذا فرجةً لك،» علّقت ماي الصَّغيرة. «أجزم أنّك وجدته عملاً مملًّا كثيراً بعد فترة.»

– «أنت محقّة تمامًا!» أجاب بابا مومين بشيء من الدّهشة. «أصبح مملًّا للغاية. كيف غفلتُ عن ملاحظة هذا من قبل؟»

ذهب وجلس على نتوء صخرة حارس المنارة الصَّغير، وفكّر: «أريد القيام بشيء مختلف، شيء جديد. نعم، شيء هائل.»

إلا أنّه لم يعرف ما ذاك الّذي يودّ القيام به. كان مشوّشًا جدًّا وفي

منتهى الحيرة. ذكّره هذا بزمن قديم العهد عندما سحبَت 'بنت غافسان' الحصيرة من تحت قدميه. أو ربّما مثل كونه جالسًا في الفضاء إلى جانب كرسيّ ولكن ليس على الكرسيّ. لا، ما هو فيه ليس هكذا أيضًا. هو كما لو أنّ شيئًا ما قد خدعه.

بينما جلس يتأمّل سطح البحر الرّماديّ الأملس الّذي بدا أنّه يرفض حثّ نفسه ليتحوّل إلى إعصار جارف، تفاقم أكثر فأكثر شعوره بأنه تعرّض للخداع. «انتظِر فقط،» تمتم بينه وبين نفسه، «لن ألبث أن أعرف. سأغوص إلى قاع هذا الأمر...» ولم يدرِ أعنَى بذلك البحر أو الجزيرة أو البحيرة السّوداء. وربّما عنى المنارة أو حتّى حارس المنارة. على أيّ حال جاء وقْعُ ما قاله مفعمًا بالوعيد. هزّ رأسه الحائر ثمّ ذهب وجلس عند البحيرة السّوداء. هناك تابع التّفكير، وأنفه بين كفّيه. ومن وقت لآخر غسلت الأمواج ضفاف البحيرة ثمّ تلاشت في حنايا الماء القاتم الّذي يشبه المرآة.

– «هذا هو المكان الّذي اكتسحته العواصف لمئات السّنين،» فكّر. «عوّامات الفلّين وحطام السّفن والعصي الصّغيرة حملتها الأمواج إلى هنا ثمّ من هنا مرّة أخرى، مؤكّد أن هذا قد حدث كثيراً مرّات ومرّات... ثمّ في يوم ما...» رفع بابا مومين أنفه وخطرت له فجأة فكرة جدّ استثنائيّة.

– «تخيّل لو أن شيئًا ضخمًا وثقيلًا، شيئًا من حطام، جُرِف إلى هنا وغرق وبقي في القاع إلى أبد الآبدين!»

نهض بابا مومين. كنز دفين ربّما. صندوق عصير مهرّب. عِظام أحد القراصنة. أيّ شيء! البحيرة بأسرها قد تكون عامرة بأكثر الأشياء إثارة للدهشة.

غمرته سعادة هائلة. وبُعثت فيه الحياة فورًا. شيء ما بدا أنّه يستيقظ

داخله كما لو أن نابضًا فولاذيًا حُرِّر فجأة، مثلما تنطلق الدُّمية في لعبة 'جاك في الصندوق'. أسرع إلى البيت، طار على الدّرج طيرانًا، درجتين درجتين، دفع الباب وصاح: «أتتني فكرة!»

– «أحقًّا!» هتفت ماما مومين الّتي كانت جالسة قرب الموقد. «أهي فكرة جيّدة؟»

– «طبعًا هي كذلك،» أجاب بابا مومين. «بل هي فكرة عظيمة. تعالي واجلسي هنا لأخبركِ.»

جلست ماما مومين على أحد الصّناديق الفارغة وبدأ بابا مومين يوضح لها كلّ شيء عن فكرته. عندما انتهى قالت: «ربّاه! فكرتكَ مُدهشة! لا أحد غيرك يمكن أن يفكّر في شيء كهذا. يحتمل أن تعثر في الأسفل هناك على ما لا يخطر على بال!»

– «بالضّبط، أيّ شيء،» قال بابا مومين، ثمّ تبادلا النّظر وضحكا.

– «متى تنوي الشّروع في البحث؟» سألته ماما مومين.

– «الآن، حالًا، فورًا،» أجاب بابا مومين. «أنوي التنقيب بدقّة شاملة. لكن أولًا يجب أن أكتشف مدى عمقها. علينا أن نجرّ المركب إلى البحيرة. إذا حاولتُ رفع الأشياء إلى الضفّة قد تعود وتنزلق. ومن المهمّ جدًّا أن أصل إلى وسط البحيرة. أنا على ثقة من أن أفضل الأشياء تستقرّ هناك.»

– «ألا تريد أيّ مساعدة؟» سألته ماما مومين.

– «أوه لا،» أجاب. «هذا عمل يجب أن أقوم به أنا وحدي. عليّ أن أعثر على شاقول...» مضى إلى السّلّم ارتقاه وتجاوز الباب القلاّب إلى حجرة الكشّاف من غير أن يفكّر مطلقًا في الكشّاف، ثمّ صعد إلى العليّة. بعد فترة نزل ومعه حبل وسأل: «ألديك ما يمكن أن أستخدمه كثقل؟» أسرعت ماما مومين إلى الموقد وأعطته المكواة.

– «شكرًا،» قال بابا مومين وهو يختفي وراء الباب. سمعَتْه يجري نازلًا الدّرج، درجتين معًا. ثمّ عاد الهدوء من جديد.

جلست ماما مومين إلى الطّاولة وضحكت. «يا للروعة،» قالت. «يا له من فرج!»

كَمَنَ مومين ترول في غَيْضته يراقب أوراق البتولا تهتزّ فوقه. كانت تميل نحو الاصفرار وبدت أجمل من أيّ وقت مضى.

هيأ ثلاثة مداخل منفصلة إلى بيته: الباب الأمامي، باب المطبخ، وباب طوارئ إذا اضطرّ إلى الفرار فجأة. بصبرٍ سدّ فرجات الجدران الخضراء بأغصان مضفورة. وبإعداد الغَيْضة على ذلك النحو كرّسها خالصةً له وحده.

ما عاد مومين ترول يُشغل باله بالنّمل. أصبح ذلك النّمل جزءًا من الأرض تحته. تبخّرت رائحة البارافين في الجوّ، وعرف أن أزهارًا جديدة لن تلبث أن تنمو عوضًا عن تلك الّتي ماتت. وافترض أنّ هناك آلاف الحشود من النّمل الأحمر تستمتع بالسّكر حول الأجمة. كان كلّ شيء على أحسن ما يُرام.

لا، ليس كلّ شيء، إذ ما انفكّ يفكّر في فرس البحر تلك. وهناك شيء ما طرأ عليه. أصبح 'ترول' مختلفًا كلّ الاختلاف، بأفكار مختلفة كلّ الاختلاف. بات يحبّ البقاء وحده، فممارسة الألعاب الفكريّة في خياله كانت في غاية الإثارة، أفكار تتعلّق به وبأفراس البحر، بنور القمر، ناهيك عن طيف الغروك الّذي لازمه دائمًا. لم يخفَ عليه أنّها تديم جلوسها في مكان ما هناك، ولا تكفّ عن العواء في اللّيل، لكنّه اعتقد أنّ ليس في ذلك أيّ أهمية، أو هكذا تهيّأ له.

جمع شتّى أنواع الهدايا لفرس البحر. أحجار جميلة وقطع زجاج شذّبها البحر حتّى غدت كالجواهر. وبعض الأوزان النحاسيّة الملساء الّتي أخذها من دُرج حارس المنارة. تخيّل في ذهنه ما يمكن أن تقوله فرس البحر عندما يعطيها تلك الأشياء، تدرّب على مختلف ضروب الكلمات الذكيّة والشّاعريّة ليقولها لها.

ولبث ينتظر عودة القمر.

كانت ماما مومين قد وضعت كلّ ما جلبوه معهم من البيت القديم في مكانه المناسب منذ وقت طويل. لم تحتج إلى القيام بكثير من أعمال التنظيف. فهنا يندر العثور على الغبار، وعلى أيّ حال لا يجدر بالمرء أن يبالغ كثيراً في الاهتمام بالتنظيف. إعداد الوجبات كان مهمّة سهلة أيضًا، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أن المرء يفعل ذلك عن طيب خاطر. وهكذا بدت لها الأيّام طويلة ورتيبة على نحو غير محبّب مطلقًا.

لم ترغب في التشاغل بأحجية الصور المقطّعة لأنّها تجعلها تتذكّر الوحدة الّتي تعانيها.

بدأت في يوم من الأيّام تجمع قطع الخشب، بل حتّى التقطت جميع الأعواد الصّغيرة الّتي قد تراها في طريقها، إلى أن خلا الشّاطئ من أيّ شيء جرفه البحر إليه. مع مرور الوقت تراكمت لديها كومة كبيرة من الألواح والزنود الخشبيّة. اللّطيف في الأمر أنّها في الوقت نفسه نظّفت الجزيرة، وتصرّفها هذا جعلها تشعر أن الجزيرة أشبه بحديقة يمكن تنسيقها وتجميلها.

حملت وحدها كلّ ما عثرت عليه إلى موضع اختارته عند سفح صخرة المنارة المحجوب من الرّيح. هناك صنعت جحشًا خشبيًا لتنشر الخشب عليه. ومع أنّه كان معوجًّا قليلًا، أدّى وظيفته إذا ثبّتت طرفه الأيمن بيدها.

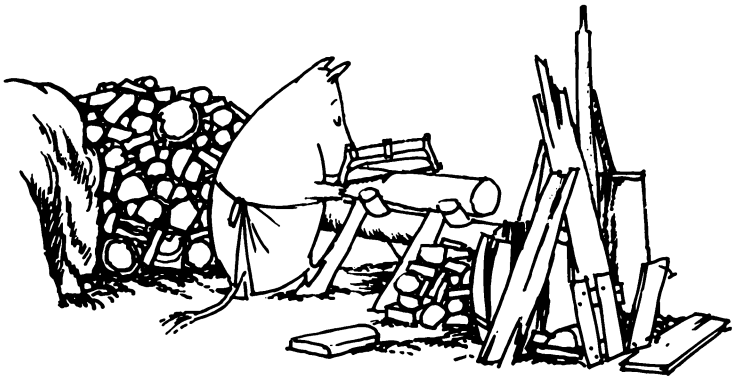

نشرت ماما مومين ونشرت في الجوّ الغائم المعتدل. قاست القطع بدقّة لتجعلها كلّها متماثلة في الحجم. ورتّبتها بعناية على شكل نصف دائرة حولها. وما لبث الجدار الخشبيّ المستدير أن أصبح أعلى فأعلى، إلى أن وقفت هناك تنشر في فسحة مُغلقة تخصّها وحدها. هذا منحها شعوراً لطيفًا بالأمان. كدّست الأعواد الجافّة قرب الموقد، ولم يطاوعها قلبها لتفعل ذلك بالزنود الكبيرة. هذا مع العلم أنّها لم تكن في يوم ماهرة كثيراً في استخدام الفأس.

على مقربة من المكان الّذي كوّمت فيه الخشب، نمت شجيرة غبيراء تعلّقت بها ماما مومين أيّما تعلّق. كانت عامرة بالتّوت الأحمر، الكثير جدًّا منه بالنسبة إلى مثل تلك الشّجيرة الهشّة. وتحتها كدّست ماما مومين أفضل ما لديها من أخشاب. كانت تعرف الكثير عن الأشجار. تعرف كيف يبدو البلّوط والجاكاراندا، وتميّز صنوبر البلسم والأوريغون والماهوغاني. مدركةً أن لكلّ منها رائحة مختلفة، ومَلمسًا مختلفًا. وجميع تلك المعلومات حصلت عليها بعد رحلة حياة مديدة، مديدة جدًّا.

– «جاكاراندا وباليساندا،» غمغمت ماما مومين بينها وبين نفسها برضا عميق، وتابعت نشر الخشب.

اعتاد الآخرون على رؤيّة ماما مومين تنشر الخشب، وما عادوا يلمحون إلّا القليل منها وهي تقف وراء حصنها الخشبي. في البداية تضايق بابا مومين كثيراً وأراد أن يجمع الخشب بنفسه. إلّا أن ماما مومين غضبت وقالت: «هذا العمل لي. أنا أيضًا أريد أن أتسلّى!» وتابعت نشر الخشب. وهكذا دأبت كلّ صباح على القيام بجولة في الجزيرة بحثًا عن قطع جديدة من الخشب.

في صباح رمادي بالغ الهدوء وجدت ماما مومين صَدفةً على الشّاطئ. كانت قوقعةً محارة كبيرة، باطنها ورديّ وذات لون بُنيّ باهت من الخارج مطعّم ببقع داكنة.

سُرَّت ماما مومين ودُهشت في الوقت نفسه. كانت القوقعة على الشّاطئ، ولكن في مكان لم يصل إليه الماء منذ أسبوع. على مسافة أبعد وجدت صَدفةً بيضاء، من النوع الّذي يحدّد به المرء حديقته. في واقع الأمر، كان الشّاطئ يعجّ بالأصداف، أصداف كبيرة وأخرى صغيرة، وما هو أروع من كلّ ذلك أنّها شاهدت على إحداها عبارة تقول «هديّة من شاطئ البحر،» مكتوبة بحروف دقيقة حمراء.

ازدادت دهشة ماما مومين، وبدأت تجمع الأصداف في مئزرها. ثمّ مضت لتريها لبابا مومين الّذي كان منهمكًا في تنقيب البحيرة السّوداء. رأته منبطحًا في المركب وأنفه فوق حافته. بدا صغيراً جدًّا من قمّة المنحدر. كان المركب يعوم مع التّيّار والمجاديف تواكبه في الماء.

– «تعالَ وانظر!» نادته ماما مومين.

جدّف بابا مومين نحو طرف البحيرة.

– «انظُر! أصداف حقيقيّة!» هتفت ماما مومين. «وجدتها أعلى الشّاطئ، وأمس لم يكن هناك أثر لها مطلقًا!»

– «غريب جدًّا.» قال بابا مومين وهو ينفض غليونه على الصّخر. «هذه إحدى ألغاز البحر. أحيانًا أسحَر تمامًا عندما أفكّر في طريقة تصرّف البحر بمثل هذه الأساليب الغامضة. تقولين أنّك وجدتها مستقرّة أعلى الشّاطئ ولم تكن هناك أمس؟ حسنًا هذا يعني أن البحر يمكن أن يرتفع ياردة كاملة خلال بضع ساعات ثمّ يعود إلى الانحسار. مع أن المدّ هنا عندنا ليس عاليًا بقدر علوّه على مسافة أبعد جنوبًا. هذا مثير للاهتمام، مثير للاهتمام كثيراً، كثيراً جدًّا في الواقع! والنقش على هذه، حسنًا إنه يفتح الباب على احتمالات لا نهائية.» نظر إلى ماما مومين بجدّيّة بالغة، «كما ترين، أمور كهذه يجب عليّ التحقّق منها، بل ربّما أؤلف كتابًا عنها. كلّ ما له علاقة بالبحر، وأعني البحر الحقيقيّ. يجب أن أكتشف كلّ ما يمكنني اكتشافه عن البحر. أما أرصفة الموانئ والممّرات وصيد السّمك فهي لذوي الأفق الضيّق الذين لا يهتمّون بالأمور العظيمة حقًّا.» ثمّ عاد وكرّر بوقار رصين «بالأمور العظيمة حقًّا،» وبدا وقع كلماته مؤثّرًا للغاية. «البحيرة السّوداء هذه، هي ما دفعني إلى التّفكير في كلّ تلك الأمور.»

– «أهي عميقة؟» سألته ماما مومين وهي تفتح عينيها على وسعهما.

– «عميقة للغاية،» أجاب بابا مومين. «لا يكاد الثّاقول يصل إلى القاع. أمس انتشلت هذه العلبة المعدنية، وهذا يثبت صحّة نظريّاتي.»

هزّت ماما مومين رأسها. بعد برهة قالت: «طيّب، ربّما أذهب وأضع هذه الأصداف في الحديقة.» لم يجب بابا مومين. كان غارقًا في أفكار وتخمينات عويصة.

في الوقت نفسه تقريبًا، وقف مومين ترول يحرق في موقد ماما مومين صندوقًا سبق أن أفرغ ما يحتويه من أصداف. أدرك أنّه لا ينبغي الاحتفاظ

به بعد أن أُفرِغ. صندوق عثر عليه في دُرج المنضدة السّفليّ؛ الدّرج الّذي امتنعت ماما مومين عن الاقتراب منه لأنّه حسب ما رأت يضمّ ممتلكات حارس المنارة الشّخصيّة والخاصّة جدًّا.

كانت العلبة المعدنيّة التي عثر عليها بابا مومين صدئة ومتكسّرة، وعلى الأرجح لم تحتوِ في السّابق شيئًا أكثر أهميّة من التربنتين أو الزّيت. إلّا أنّها جاءت برهانًا. البحيرة السّوداء هي المقرّ الّذي يُخفي فيه البحر الأشياء. أشياء أراد أن يُبقيها طيّ الكتمان. كان بابا مومين على قناعة راسخة من أن جميع تلك الأسرار تنتظره في القاع. ومن المحتمل أن يجد هناك أيّ شيء، أيّ شيء على الإطلاق. فكّر أنّه باستخراجه جميع مكنونات البحيرة يصبح في وسعه أن يفهم البحر، وأنّ الأمور حينذاك تتبلور وتصبّ في مكانها الصّحيح، وهو أيضًا يعثر على موقعه فيها.

لذا تابع بابا مومين التنقيب بتصميم عنيد في وسط البحيرة، مدلّيًا الشّاقول مرارًا وتكرارًا. أطلق على وسط البحيرة اسم الأعماق المبهمة. «الأعماق المبهمة،» همس لنفسه، وشعر بقشعريرة تسري في عموده الفقري من سحر العبارة.

غالبًا ما توقّف الحبل في أعماق مختلفة. وأحيانًا قد ينزل وينزل من غير أن يبلغ القاع مهما حاول بابا مومين. المركب بأكمله اكتظّ بالحبال المتشابكة: حبل الغسيل، حبال الصّيد، حبل المرساة، وأيّ وصلة حبل قصيرة استطاع أن يضع يديه عليها، وكلّها قصد استعمالها لأغراض مختلفة كلّيًّا، وهذا على أيّ حال هو الهدف من استعمال الحبال.

استخلص بابا مومين نظريّة مفادها أنّ البحيرة هي فُوّهة تؤدي إلى مركز الأرض؛ حفرة بركان خامد. أخيراً شرع يكتب تخميناته في كرّاس قديم عثر عليه في العليّة. بعض صفحات الكراس كانت تضمّ ملاحظات حارس المنارة، كلمات صغيرة بينها فراغ واسع، كما لو أنّ أحد العناكب قد زحف على الورق.

– «الميزان هو البرج الصّاعد، دخول القمر البيت السّابع،» قرأ بابا مومين، «زُحل مقترن بالمريخ.» ورجّح أن يكون حارس المنارة قد استقبل في نهاية المطاف بعض الزوّار. وهذا بالتّأكيد أبهجَهُ. كانت بقيّة الكتابة في الغالب أشكالًا لم يستوعبها مطلقًا. أدار الكرّاس وبدأ يكتب من طرفه الآخر. رسم معظم الوقت خرائط بيانيّة للبحيرة السّوداء، بعضها على أقسام وبعضها من وجهة نظر عامة، غرق غرقًا كاملًا في لجّة حسابات جدّ معقدة وتفسيرات من منظور شخصيّ.

لم يعد بابا مومين يتحدّث كثيراً عن تحرّياته. شيئًا فشيئًا توقّف عن التنقيب. بدلًا من ذلك درج على الجلوس على نتوء صخرة حارس المنارة مستغرقًا في التّفكير فقط لا غير. أحيانًا دوّن بعض الملاحظات عن البحيرة أو البحر في الكرّاس.

قد يكتب: «تيّارات البحر غريبة ورائعة، أشياء لا أحد أولاها اهتمامًا ملائمًا،» أو «تقلّب الأمواج شيء لن يكفّ عن إدهاشنا أبدًا،»...

وبعدئذ، يتخلّى عن الكرّاس ويشرد مع أفكار عميقة لا نهائيّة الأبعاد.

بدأ الضّباب يتسلّل خفية إلى الجزيرة. دبّ ممتطيًا البحر من غير أن يلاحظ أحد قدومه. وعلى حين غرّة تغلّف كلّ شيء بسحابة رماديّة شاحبة، وبدت صخرة المنارة كما لو أنّها تطفو وحيدة ومهجورة في فراغ صوفيّ المظهر.

استساغ بابا مومين التّواري بين ستائر الضّباب. نام قليلًا إلى أن زعق نورس فاستيقظ مجفلًا. نهض ومضى يتمشّى حول الجزيرة، مطيلًا تفكّره المنهِك بالتّيّارات والرّياح، أصل المطر والعواصف، والحفر العميقة في قاع البحر الّتي لا يستطيع أحد أن يسبر أغوارها. رأته ماما مومين يظهر من بين الضّباب ثمّ يختفي ثانية، شاردًا مع أفكاره وأنفه يستريح على بطنه. «إنه يجمع مادّته،» حدّثت نفسها. «أو هكذا قال. ولعلّ الكرّاس اكتظ بمادّة بحثه. انتهاؤه من ذلك سيكون باعثًا على الارتياح!»

عدّت خمس قطع حلوى ووضعتها في طبق صغير. ثمّ ذهبت ووضعت الطّبق على طرف المنحدر لتُبهجَه.

انزوى مومن ترول بين الأشجار المتشابكة يُمعن النظر باهتمام في بركة ماء صغيرة. غطّس حدوة الفرس في الماء البُنيّ الرّائق وراقبها تتحوّل إلى ذهبيّة فيه. رأى في تجمّع المياه ذاك انعكاس فروع الأشجار وأنصال الحشيش؛ أرض صغيرة مقلوبة رأسًا على عقب. والأماليد برزت جليّة في وجه الضّباب، بل حتّى استطاع أن يرى أصغر مخلوق على الإطلاق وهو يقفز هنا وهناك.

تملّكت مومين ترول رغبة مستميتة في التطرّق إلى الحديث عن فرس البحر مع شخصٍ ما. لمجرّد أن يصفها، أو لمجرّد التحدّث عن أفراس البحر بشكل عام.

رأى في انعكاس الماء زوجين من الزواحف الصَّغيرة على الأملود نفسه. فلمس السّطح الرّقراق واختفى المشهد المصغّر. نهض وتمشّى تجاه الأجمة. عند نهايتها تمامًا طالعه مسارٌ صغير ممهّد بين الحشيش. «من المرجّح أن ماي الصَّغيرة تقيم هنا،» فكّر. ولما سمع حفيفًا خفيفًا تأكّد أنّها هناك.

تقدّم مومين ترول خطوة إلى الأمام، ورغبته الجامحة في البوح بسرّه لأحد تشبه غصّة عالقة بحلقه. انحنى وزحف تحت الأغصان. وهناك رآها متقوقعة مثل كُرة بالغة الصّغر.

– «أرى أنّكِ هنا،» قال بطريقة حمقاء نوعًا ما. ثمّ جلس على الحشيش وحدّق فيها.

– «ماذا تحمل في يدك؟» سألته ماي الصَّغيرة.

– «لا شيء،» أجاب، مدركًا أنّه بذلك أفسد مناورته الافتتاحيّة. «صادف فقط أن مررت من هنا.»

– «هه!» همهمت ماي الصَّغيرة.

رنا أولًا إلى ناحية ثمّ إلى ناحية أخرى ليتفادى نظرتها المُحرِجة. رأى معطفها المطريّ معلقًا على غُصين، وفيه كوب عامر بإجاص مجفّف وزبيب. وزجاجة عصير فاكهة...

فجأة، هبّ مومين ترول واقفًا وانحنى إلى الأمام. على مسافة أبعد تحت الأغصان كانت الأرض مستوية ومكسوّة بإبر الصّنوبر الناعمة، وبقدر ما استطاعت عيناه استشفافه من بين الضّباب لمح صفوف صلبان صغيرة، صُنعت من الأعواد المتكسّرة ورُبطت بخيوط القنّب. «ماذا فعلتِ؟» صاح.

– «أتحسبني أدفنُ أعدائي في هذا المكان؟» قالت ماي الصَّغيرة باستمتاع كبير. «هذه قبور طيور. قام أحدهم بدفن العشرات منها هناك.»

– «وما أدراكِ؟» سألها مومين ترول.

– «نظرتُ،» أجابت. «هياكل عَظمية صغيرة، كتلك الرّقات الّتي عثرنا عليها عند المنارة في يومنا الأول هنا. تتذكّر طبعًا: انتقام العظام المنسيّة.»

– «لا ريب في أنّه من عمل حارس المنارة،» قال مومين ترول.

أومأت ماي الصَّغيرة برأسها، فاهتزّت عقدة شعرها الصَّغيرة الضيّقة.

– «مؤكّد أنّ تلك الطّيور طارت نحو الضوء،» بادر مومين ترول إلى القول ببطء. «هذا ما تفعله الطّيور... فقتلت نفسها. ولعلّ حارس المنارة درج على لمّها في الصّباح. ثمّ في أحد الأيّام استاء من كلّ ما حوله فأطفأ الكشّاف ورحل. يا له من أمر شنيع!»

– «مرّ زمن طويل على ذلك،» أجابت ماي الصَّغيرة وهي تتثاءب. «الكشّاف لا يعمل الآن على أيّ حال.»

نظر إليها مومين ترول وكرمش أنفه.

– «لا ينبغي أن تشعر بالأسف على كلّ شيء،» قالت. «هيّا غادر الآن. أريد أن آخذ قيلولة.»

عندما طلع مومين ترول من الأجمة فتح كفّه ونظر إلى الحدوة. لم يقل شيئًا عن فرس البحر الصَّغيرة. وما زالت حتّى اللّحظة تخصّه وحده.

لم يكن هناك قمر، ولم يُضَأ مصباح الأعاصير، مع ذلك نزل مومين ترول إلى الشّاطئ. عجز عن منع نفسه من النّزول. جلب معه الحدوة وهدايا أخرى.

لمّا تأقلمت عيناه مع الظّلام، رأى فرس البحر تُقبِل مُخترقة الضّباب مثل مخلوق أسطوريّ في إحدى القصص. وضع الحدوة على رمل الشّاطئ وهو لا يكاد يجرؤ على التنفّس.

اقترب الطّيف الغامض بخطوات قافزة قصيرة. وانتعلت فرس البحر فردة حذائها بذلك النوع من شرود الذّهن الّذي تنتهجه السّيّدات، وقفت محوّلة رأسها عنه وانتظرت إلى أن ثبّتت فردةُ الحذاء نفسها جيّدًا وبدأت تصبح من جديد جزءًا منها.

– «أحبُّ ناصيتك،» همس مومين ترول برقّة. «لدى إحدى صديقاتي ناصية أيضًا. ربّما تأتي وتقيم هنا في يوم ما... يخيّل إلي أنّك قد تستلطفين العديد من أصدقائي.»

أظهر صمت فرس البحر أن ما قاله لم يُثر اهتمامها.

حاول مومين ترول مرّة أخرى: «الجُزر في اللّيل جميلة جدًّا. هذه جزيرة بابا، لكنّي لا أعرف ما إذا ننوي أن نعيش هنا طوال عمرنا أم لا. أحيانًا أعتقد أن هذه الجزيرة لا تحبّنا. إنّما الأهمّ من هذا وذاك أن تحبّ هي بابا...»

لم تكن تستمع. لم ترغب في أن تعرف شيئًا عن عائلته.

بعدئذٍ فرد مومين ترول هداياه لها على الرّمل. دَنت فرس البحر قليلًا

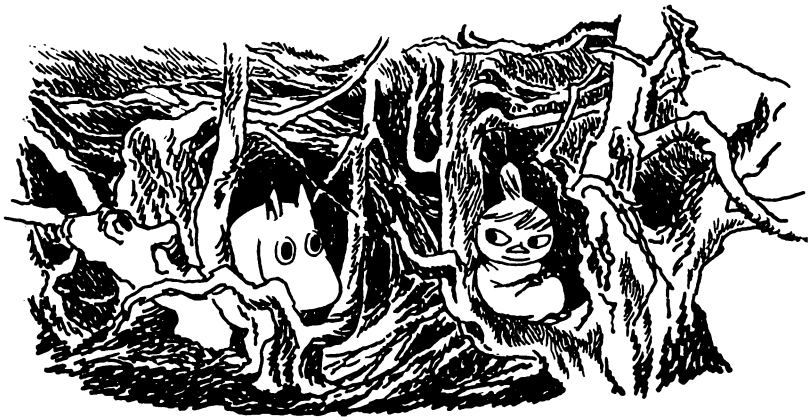

وشمّتها، إلّا أنّها بقيت صامتة.

أخيراً وجد شيئًا يقوله: «رقصكِ جميل.»

– «أتعتقد هذا؟ أتفعل؟» قالت. «أكنتَ تنتظرني؟ أكنتَ حقًّا؟ لم تتوقّع رؤيتي، أليس كذلك؟»

– «أكنتُ أنتظركِ!» هتف مومين ترول. «انتظرتُ وانتظرتُ ونهشني القلق عليك عندما ساء الجوّ هنا كثيراً... أريدُ أن أحميَكِ من جميع المخاطر! لديّ عشّي الصَّغير وفيه علّقت صورتك. ولن أعلّق أيّ شيء غيرها هناك...»

أصغت إليه فرس البحر بانتباه.

– «أنتِ أجمل مخلوق رأيته على الإطلاق،» تابع مومين ترول، وفي تلك اللّحظة تمامًا بدأت الغروك تعوي. وهناك أبصرها جالسة وسط الضّباب، تعوي من أجل المصباح.

شبّت الفرس الصَّغيرة على قوائمها وفرّت، مخلّفة وراءها لآلئ ضحكاتها الصَّغيرة. عقد كامل من اللؤلؤ تبعها بينما وثبت إلى البحر ثانية.

أقبلت الغروك تجرّ قدميها منبثقة من بين الضّباب نحو الموضع الّذي

يقف فيه مومين ترول. فاستدار وجرى. لكنّ اللّيلة لم تتوقّف الغروك عند الشّاطئ بل لحقت مومين ترول موغلة في الجزيرة؛ خلال الخلنج ثمّ صوب صخرة المنارة مباشرة. لمحها تتحرّك مثل ظلّ رماديّ عظيم ثمّ تقف وتجثم أسفل الصّخرة مترقّبة.

صفَق مومين ترول الباب خلفه، وصعد السّلم المتعرّج جريًا وقلبه غائر في بطنه. لقد حدث هذا: وطئت الغروك أرض الجزيرة!

لم يشعر به بابا مومين ولا ماما مومين عندما دخل، وكان السّكون يعمّ الغرفة. إلّا أنّه استشفّ حالة من الاضطراب تأتي من ناحية النّافذة بينما غمغمت الجزيرة في رقادها وتقلّبت. سمع صوت ارتعاش أوراق شجر الحور الخائفة، وبدأت النّوارس تزعق.

– «أجافاكَ النّوم؟» تمتمت ماما مومين.

كان مومين ترول لحظتها يغلق النّافذة.

– «صحوتُ،» أجاب وزحف إلى السّرير. كان أنفه متيبّسًا من البرد.

– «البرد يشتدّ،» أردفت ماما مومين. «أحسنتُ صنعًا بنشر تلك الأخشاب. أتشعر بالبرد؟»

– «لا،» أجاب مومين ترول.

كانت الغروك جاثمة أسفل المنارة تتجمّد وتجمّد ما حولها. وكان بردها لاسعًا إلى درجة أن الأرض تحتها تحوّلت إلى جليد... ها قد عادت من جديد. تسلّلت إلى الجزيرة ولم يستطع أن يتخلّص منها. كان من السّهل تخيّل أحد لا يمكن أبدًا أن يشعر بالدفء، أحد لا يحبّه مخلوق، أحد يدمّر كلّ شيء أينما ذهب. ليس في هذا عدل. لماذا تضيّق الغروك الخناق عليه من دون غيره طوال الوقت؟ هو ببساطة لا يستطيع مساعدتها لتشعر بالدفء!

– «أثمة ما يكدّركَ؟» سألته ماما مومين.

– «لا،» قال مومين ترول.

– «طيّب، ينتظرنا غدًا يوم آخر طويل ولطيف،» غمغمت ماما مومين. «وهو طوع بنانكَ من بدايته إلى نهايته. أليست هذه فكرة رائعة!»

بعد فترة عرف مومين ترول أن ماما مومين قد نامت. نحّى جميع الأفكار جانبًا وبدأ يلعب اللعبة الخياليّة الّتي يلعبها كلّ ليلة. في البداية لم يتوصّل إلى قرار. أيلعب لعبة «المغامرة» أم لعبة «الإنقاذ»؟ أخيرًا وقع اختياره على لعبة «الإنقاذ»، بدت له أكثر واقعيّة بطريقة ما. أغمض عينيه وأفرغ ذهنه. ثمّ بدأ يتخيّل عاصفة.

كانت العاصفة تهبّ مهتاجة على ساحل صخريّ مهجور قريب الشّبه من الجزيرة. وكانوا يجرون صعودًا وهبوطًا على الشّاطئ وهم يعصرون أيديهم. أحد ما في خطر هناك... إلّا أنّهم لم يتجاسروا على الخروج إليه، فذاك مستحيل، وأيّ مركب سيصبح حطامًا في غضون لحظة.

ليست ماما مومين مَن يسعى مومين ترول إلى إنقاذها الآن، بل فرس البحر.

مَن ذاك الّذي يكافح هناك؟ أهي فرس البحر صاحبة الحذاء الفضّي تتصارع مع ثعبان بحر؟ لا، هذا أكثر من اللازم. العاصفة وحدها تكفي.

السّماء مصطبغة بالصُّفرة، سماءُ عاصفةٍ حقيقيّة. نزل إلى الشّاطئ بنفسه. جرى نحو أحد القوارب بتصميم جبّار... تعالت صيحات الجميع: «أوقفوه! أوقفوه! لن ينجح مطلقًا! أمسكوه!» نحّاهم بعيدًا عنه، دفع القارب إلى الماء وجدّف كالمجنون. برزت الصّخور من البحر الهائج كأنياب سوداء هائلة... لكنّه لم يفزع. سمع ماي الصّغيرة تصيح من الشّاطئ: «لم أعرف أنّه على هذه الدّرجة من الشّجاعة! أوه، كم أنا آسفة على ما

مضى. لقد فات الأوان الآن!»... و'سنفكين' الّذي وقف هناك أيضًا عضّ غليونه القديم وغمغم: «وداعًا يا رفيقي.» أمّا هو فكافح وجاهد وناضل ليصل إلى حيث كانت فرس البحر الصَّغيرة على وشك أن تغرق للمرّة الثالثة. حملها إلى القارب، فتكوّمت فيه وشعرها الذهبي الرّطب يحيط بها. أوصلها بسلام إلى الشّاطئ الّذي غدا معزولًا ومقفرًا. همسَتْ: «خاطرتَ بحياتك لتنقذني. يا لكَ من مِقدام!» تكلّف الابتسام وقال: «عليّ الآن أن أتركك هنا. يجب أن تفترق طريقنا. قدري يناديني، وداعًا!» حدّقت فيه فرس البحر بدهشة وهو يبتعد والتأثّر بادٍ عليها. «ماذا؟» هتفَت. «أتتركني؟» لوح لها وهو يمضي وحيدًا فوق الصّخور في خضم العاصفة، ويغدو أصغر فأصغر... جميع الذين كانوا يقفون عند الشّاطئ دهشوا وانبرى كلّ منهم يقول للآخر...

عند هذه النقطة غفا مومين ترول. ندّت عنه آهة سعادة وتقوقع كَكُرة تحت البطّانيّة الحمراء الدّافئة.

– «أين اختفى التّقويم؟» سأل بابا مومين. «يجب أن أضع عليه علامة. هذا مهم جدًّا.»

– «لماذا؟» استفسرت ماي الصَّغيرة وهي تتسلّق النّافذة.

– «حسنًا، علينا أن نعرف في أيّ يوم نحن،» شرح بابا مومين. «نسينا أن نحضر السّاعة معنا، وهذه غلطة. وإذا لم يعرف المرء أهو في يوم الأحد أو الأربعاء، فالأمر لا يُطاق. لا أحد في وسعه أن يعيش هكذا.»

استنشقت ماي الصَّغيرة الهواء من أنفها وزفرته من بين أسنانها بطريقتها الشّنيعة تلك الّتي تعني: «لم أسمع قطّ في حياتي ما هو أغبى من هذا.»

فهم بابا مومين ما رمت إليه بتصرّفها، ولذلك اعتمل فيه الغضب

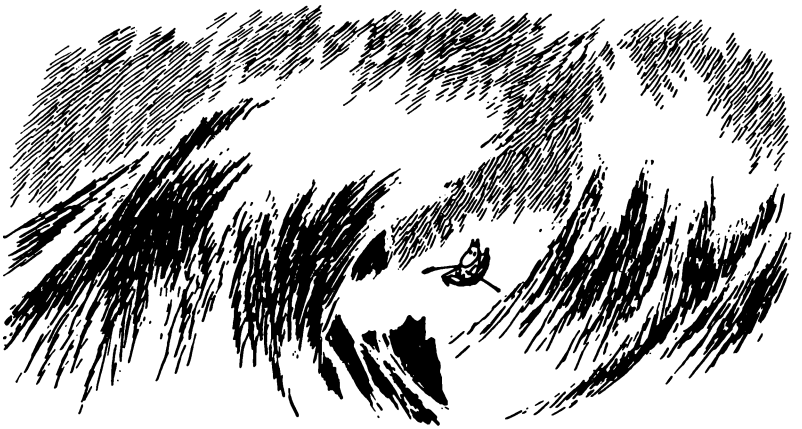

والارتياح معًا عندما قال مومين ترول: «في الحقيقة استعرت التّقويم لفترة.»

– «هناك أشياء معيّنة لها أهميّة بالغة في جزيرة كهذه،» قال بابا مومين. «خصوصًا تدوين الملاحظات المضبوطة في سجل. على المرء أن يلاحظ كلّ شيء، ولا ينبغي أن يهمل أمرًا واحدًا. الوقت، اتجاه الرّيح، مستوى الماء... كلّ شيء. عليك أن تعيد تعليق التّقويم هنا حالًا.»

– «طيّب، طيّب،» قال مومين ترول بصوت عالٍ. ابتلع قهوته ونزل الدّرج بصخب وخرج إلى صباح الخريف البارد. كان الضّباب ما زال منتشرًا، وقد غلّفت طيّاته المنارة التي لاحت أشبه بعمود ضخم، قمّته غير ظاهرة للعيان. في الأعلى هناك، في مكان ما وسط الضّباب المتموّج تجلس عائلته، عائلته الّتي لا تفهمه. كان غاضبًا وناعسًا، وفي تلك اللّحظة غير مكترث قيد أُنملة لا بالغروك أو أفراس البحر أو حتّى عائلته.

صحا قليلًا عندما وصل إلى أسفل صخرة المنارة. اكتشف هناك أن الغروك من بين جميع الأماكن المُتاحة اختارت الجلوس في حديقة ماما مومين. ربّما خطر له سابقًا أن شيئًا كهذا ممكن الحدوث، وتساءل إن

كانت قد جلست هناك مدّة تتجاوز السّاعة. اعتراه أمل في ألّا تكون قد فعلت.

زحف مومين ترول داخل الأجمة وأنزل عن الغصن التّقويم الّذي غضّن الضّباب أوراقه.

رمى إطار الزهور وجلس قليلًا، رأسه عامر بخواطر نصف مكتملة.

وفجأة فكّر: «ما المانع! سأنتقل إلى هنا! يمكنهم أن يعيشوا في تلك المنارة الكريهة القديمة بدرَجها البغيض ويعدّون الأيّام وهي تمرّ.»

ذاك كان تطلّعًا مثيراً للاهتمام، جديدًا، محفوفًا بالمخاطر ورائعًا. وهذا قلب الموازين كلّها. بدا الحال كما لو أنّه طُوِّق فجأة بهَمٍّ مختلف، باحتمالات مجهولة.

كان متيبّسًا ومقرورًا عندما عاد أدراجه إلى البيت. وضع التّقويم على المنضدة. فتقدّم بابا مومين فورًا ورسم علامة في زاويته العليا.

أخذ مومين ترول نفَسًا عميقًا وقال بقدر ما أسعفته الجرأة: «أفكّر في الانتقال إلى مكان آخر في الجزيرة وحدي.»

– «في الخلاء؟ نعم، طبعًا،» قالت ماما مومين، من غير أن تعيره انتباهًا كثيراً. كانت جالسة عند النّافذة الشّماليّة ترسم نبتة زاحفة. «لا بأس. خُذ كيس نومك معك كما جرت العادة.» ثمّ بدأت ترسم شُجيرة صريمة الجدي، وهي رسمة معقّدة للغاية. حداها الأمل أن تتذكّر شكلها الفعليّ. فشُجيرات صريمة الجدي لا تنبت قرب البحر لأنّها تحتاج إلى بقعة دافئة ومحمية.

– «ماما،» قال مومين ترول وهو يشعر بجفاف شديد في حلقه. «هذا ليس كالمعتاد.»

لكن ماما مومين لم تكن تصغي. ندّ عنها صوت مشجّع وتابعت الرّسم.

استغرق بابا مومين في عدّ العلامات الّتي وضعها. كان هناك يوم جمعة لم يتأكّد منه، ويُحتمل أنّه وضع علامتين على ذلك اليوم لأنه نسي أن يضع علامة يوم الخميس. أزعجه شيء ما وجعله غير واثق من ذلك. ماذا فعل في ذلك اليوم؟ عامت الأيّام مجتمعة في رأسه وحامت. كان ذلك مثل الالتفاف حول جزيرة في مسيرة أبديّة على طول الشّاطئ نفسه من غير الوصول إلى أيّ مكان.

– «حسنًا،» قال مومين ترول. «سآخذ كيس نومي ومصباح الأعاصير.»

خارج النّافذة، دوّم الضّباب وهو يمرّ، فشعروا كما لو أنّ الغرفة تنتقل بهم إلى مكان آخر.

– «أنا في حاجة ماسّة إلى قليل من اللون الأزرق،» حدّثت ماما مومين نفسها بعد أن جعلت شُجيرة صريمة الجدي تتجاوز النّافذة إلى الجدار الأبيض حيث تفتّح عليه برعمٌ رُسم بعناية فائقة.

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

القمر الآفل

في إحدى اللّيالي قبل الفجر، أيقظ الصّمت المُحدِق بالمنارة ماما مومين. ساد الهدوء في الأنحاء فجأة، كما هو الحال دائمًا عندما تتحوّل وجهة الرّياح.

بقيت مستلقيّة مدة طويلة تستمع بتركيز شديد.

من بعيد فوق البحر في الظّلام بدأت رياح جديدة تهبّ برفق. سمعتها ماما مومين تقترب كشخص يمشي على الماء. وما فتئ وقع الخطوات يزداد قوّة إلى أن وصلت أخيراً إلى الجزيرة. اهتزّت النّافذة من مفصّلاتها.

شعرت ماما مومين بأنّها صغيرة جدًّا وهي مستلقيّة هناك. دفنت أنفها في الوسادة وحاولت التّفكير في شجرة تفّاح، إلّا أنّها لم تر إلّا البحر ورياحه المتدافعة، بحر يكتسح الجزيرة بينما هي قابعة في الظّلام، بحر يغمر كلّ شيء باسطًا سلطته على الشّاطئ والمنارة والجزيرة بقضّها وقضيضها. تخيّلت أنّ العالم تحوّل إلى ماء سلس منساب، وأن الغرفة نفسها بدأت تبحر بعيدًا ببطء بالغ.

– «ماذا لو أصبحت الجزيرة طليقة، وفجأةً في صباح أحد الأيّام نراها تتخبّط في الماء عند المرسى هناك في دارنا القديمة. أو ماذا لو انزلقت

وانحدرت مبحرة بعيدًا لأعوام وأعوام إلى أن تسقط عن حافّة العالم مثل فنجان قهوة على صينيّة ملساء...»

– «هذا سيروق لماي الصَّغيرة،» فكّرت ماما مومين وهي تضحك بينها وبين نفسها. «أتساءل أين تنام. ومومين ترول أيضًا... من المؤسف أن الأمّهات لا يمكنهنّ الخروج للنّوم في الهواء الطّلق متى رغبن في ذلك. الأمّهات بوجه خاصّ يتشوّقن إلى فعل هذا أحيانًا.» ابتسمت لنفسها، وبذهن شارد بعثت إلى مومين ترول تحيّة محبّة صامتة على طريقة جماعة الترول. ومومين ترول الّذي استلقى صاحيًا في غَيْضته شعر برسالتها الصامتة، وكعادته في مثل هذه الحالات، أجابها بهزّة من أذنيه.

كانت الدّنيا غارقة في الظّلام ولا قمر هناك يرسل نوره.

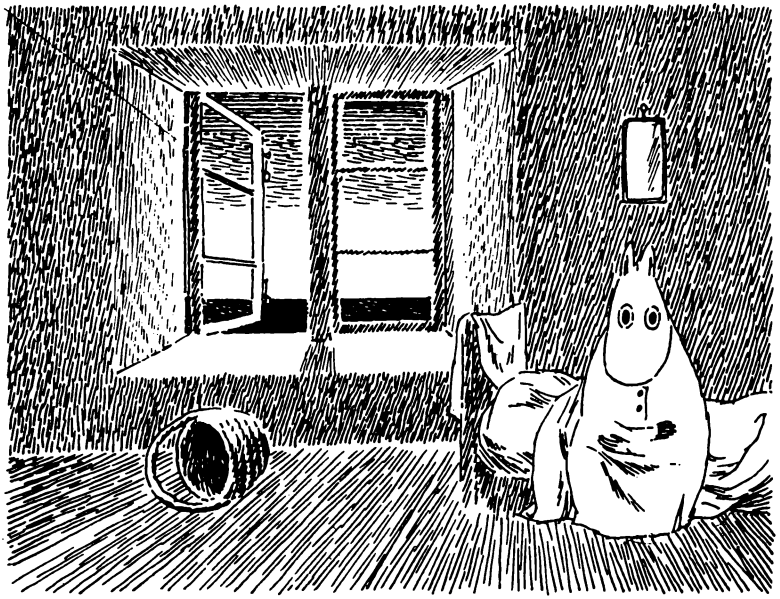

لا أحد أبدى أيّ نوع من الاهتمام بخصوص تركه البيت، وهو نفسه لم يدرِ أشعر بالارتياح أو خيبة الأمل.

في المساء، بعد أن يتناولوا الشّاي، تشعل ماما مومين شمعتين وتضعهما على الطّاولة، عندئذ يأخذ مصباح الأعاصير ويغادر. واعتاد بابا مومين أن يقول من باب إبداء الملاحظة فقط: «خُذ حذرك لئلا تشعل النّار في الغابة، وقبل أن تنام تأكّد جيّدًا من أنّك قد أطفأت المصباح.»

هكذا جرت الأمور دائمًا. لا أحد منهم استوعب شيئًا البتّة.

استلقى مومين ترول يستمع إلى صفير الرّيح وفكّر: «القمر غائب. ولن تعود فرس البحر إلى هنا مرّة أخرى قبل مضي وقت طويل.»

مع ذلك، لعلّ في هذا ما يبعث على الارتياح أكثر من إثارته للإحباط. ففي غيابها يستطيع أن يستلقي هناك ويتخيّل محادثات رائعة معها، ويحاول أن يستعيد شكلها في ذهنه. وأيضًا ما عاد لديه أيّ سبب ليغضب من الغروك. إذ يمكنها أن تديم النظر إلى المصباح بقدر ما يحلو لها. كان مومين ترول قد أقنع نفسه أن ارتياده الشّاطئ كلّ ليلة ومعه المصباح ما هو إلّا لأسباب عمليّة: ليمنع الغروك من المضيّ إلى المنارة مباشرة وإتلاف ورود أمه. وكذلك حتّى لا تكتشف العائلة أنّ الغروك هنا. هذا بغضّ النظر عن منعها من العواء. ولا أسباب أخرى غير هذه تجعله يقوم بما يقوم به.

وهكذا، واظب مومين ترول على حمل المصباح إلى الشّاطئ في اللّيل، حيث يضعه على الرّمل بينما يقف هناك متثائبًا، تاركًا المجال للغروك لتحدّق في الضوء وتشبع لهفتها إليه.

كانت تمعن النّظر في المصباح وتتبع طقوسًا خاصة بها. بعد تأمّله فترة من الوقت تبدأ في الغناء، أو لِنَقل شيئًا تخال أنّه غناء. تصدر صوتًا خافتًا، صوتًا يشبه الطّنين والصّفير معًا ويخترق كلّ شيء، حتّى شعر مومين ترول

بعد مدّة أن الصوت يدوّي في رأسه، وخلف عينيه، بل حتّى في بطنه. وبينما تفعل ذلك تتمايل ببطء وتثاقل من جانب إلى جانب، تاركة طبقات تنّورتها ترفرف إلى الأعلى والأسفل إلى أن تبدو في النّهاية مثل أجنحة خفافيش جافّة ومجعّدة. كانت الغروك ترقص!

كان سرورها الغامر واضحًا جدًّا. وبطريقة ما أصبح هذا الطّقس الغريب في منتهى الأهميّة لمومين ترول. لم يرَ أيّ سبب يستدعي منه وضع حدّ له، سواء أرادت الجزيرة ذلك أم لم تُرِد.

بيد أن الجزيرة أخذت تضطرب أكثر فأكثر. تهامست الأشجار في ما بينها وارتعدت، وسرت قشعريرة عنيفة كأنّها أمواج بحر في الأغصان الواطئة. اهتزّ حشيش الشّاطئ البحريّ وتسطّح مستويًا بالأرض، وحاول يائسًا جذب نفسه من جذوره طلبًا للفرار. وفي ليلة من اللّيالي أبصر مومين ترول شيئًا جعله يرتعد فزعًا.

كان ذاك الرّمل. رأى الرّمل يتحرّك. رأى ما يحدث بوضوح جليّ، رآه يجاهد زاحفًا بعيدًا عن الغروك. أكوام وأكوام متلألئة من الرّمل تفرّ من تحت قدمي الغروك الضّخمتين المُسطّحتين اللتين كانتا وهما ترقصان تخبطان الأرض وتحيلانها جليدًا.

اختطف مومين ترول المصباح وجرى بأسرع ما استطاع إلى الأجمة عبر نفق الطّوارئ. اندسّ في كيس النّوم ورفع سحّابه إلى نهايته وحاول أن ينام. لكنّه مهما أحكم إغلاق عينيه لم يبصر إلّا الرّمل الزاحف على الشّاطئ إلى البحر.

في اليوم التّالي اقتلعت ماما مومين من الأرض أربع أشجار ورد بريّ.

كانت جذور تلك الأشجار ملتفّة بين الأحجار بجَلَد مخيف، وأوراقها منبسطة على الصّخرة مثل سجّادة طيّعة.

رأت ماما مومين أنّ ليس هناك ما هو أجمل من انعكاس لون البراعم الورديّ على الصّخر الرّماديّ، لكن لعلّها لم تعطِ هذه الفكرة نصيبها الكافي من التعمّق عندما أعادت زرع تلك الأشجار في حديقتها المسمّدة بالعشب البحري البُنيّ. وبعدما انتصبت هناك في صفّ متتابع بدت غير مرتاحة على الإطلاق. منحت ماما مومين كلّ شجرة منها حفنة من التّربة الّتي جلبتها معها من البيت القديم، روتها جيّدًا ثمّ جلست قربها فترة من الوقت.

آنذاك بالضّبط أقبل بابا مومين وعيناه متّسعتان من شدّة الحماسة وصاح: «إنّها البحيرة السّوداء! إنّها حيّة! تعالي وانظري بسرعة!» ثمّ استدار وعاد جريًا إلى البحيرة. نهضت ماما مومين وتبعته، من غير أن تستوعب كلمة مما قاله. لكنّ بابا مومين كان مُحقًّا.

كان الماء القاتم يرتفع وينخفض، ينشل نفسه إلى الأعلى ثمّ ينحدر كما لو أنّه يتنهّد بعمق. كانت البحيرة السّوداء تتنفّس. كانت حيّة.

ظهرت ماي الصَّغيرة تجري فوق الصّخور. «حسنًا،» قالت، «شيء ما في طريقه إلى الحدوث الآن. الجزيرة تدبّ فيها الحياة! لطالما عرفت أنّها ستفعل.»

– «لا تكوني سخيفة،» قال بابا مومين. «لا يمكن أن تدبّ الحياة في جزيرة. البحر هو الحيّ...» ثمّ أخلد إلى الصّمت ووضع أنفه بين كفّيه.

– «ما الحكاية؟» سألته ماما مومين بنبرة قلقة.

– «لست متأكّدًا،» أجاب. «لم أتعمّق بعد في التّفكير لأصل إلى نتيجة. خطرت لي فكرة الآن إلّا أنّني لا أستطيع أن أتذكّر ما هي.» حمل

الكرّاس ومضى مبتعدًا فوق الصّخور وهو مستغرق في التّفكير.

حدّقت ماما مومين في البحيرة السّوداء وعلى وجهها تعبير ينمّ عن استنكار بالغ.

– «أعتقد،» قالت تحدّث نفسها، «أن هذا هو الوقت المناسب لنا جميعًا لنقوم بنزهة لطيفة.»

وهكذا ذهبت إلى المنارة مباشرة وبدأت تحزم الأغراض اللّازمة.

عندما حزمت كلّ ما قد يحتاجون إليه في النّزهة، فتحت النّافذة وبدأت تقرع الجرس. راقبتهم وهم يهرولون نحو المنارة من غير أن ينتابها أدنى شعور بالذّنب، مع أنّها عرفت أن الجرس لا يُفترض أن يُقرع إلّا في حالات الطّوارئ القصوى.

رأت بابا مومين ومومين ترول يقفان في الأسفل وينظران عاليًا نحوها. من حيث هي تراءى لها أنهما يشبهان إجاصتين كبيرتين. تمسّكت بعتبة النّافذة ومالت خارجها.

– «ابقيا هادئين،» صاحت. «ليس هناك حريق! إنّنا ذاهبون إلى نزهة بأسرع ما يمكننا.»

– «نزهة؟» صاح بابا مومين. «كيف تقرعين الجرس من أجل نزهة؟»

– «أشمّ رائحة خطر في الهواء،» صاحت ماما مومين. «إن لم نذهب في نزهة الآن فورًا، قد يحدث لنا أيّ شيء!»

وهكذا ذهبوا للنزهة. بجهد كبير انتشلت العائلةُ 'المغامرةَ' خارج البحيرة السّوداء. في البحر جدّفوا عكس الرّياح، وقصدوا الجانب الشّماليّ الغربيّ من الجزيرة حيث تستقرّ صخور ضخمة جدًّا. تحاملوا على أنفسهم وهم يرتعشون بردًا وتسلّقوا صخرة رطبة وجلسوا. أضرمت ماما مومين نارًا بين بعض الأحجار وبدأت تعدّ القهوة. فعلت كلّ شيء بالطّريقة نفسها الّتي

درجت على فعلها لسنوات وسنوات مضت. مفرش طاولة تثبّته أربعة أحجار، وعاء الزبدة مع غطائه، أقداحهم، مناشف الاستحمام الّتي نُشرت على الصّخرة كأنّها زهور يانعة، والمظلّة طبعًا. حالما أصبحت القهوة جاهزة بدأت السّماء تمطر رذاذًا.

كان مزاج ماما مومين رائقًا كثيراً. تحدّثت طوال الوقت عن أشياء يوميّة عادية، غاصت في سلّة النزهة وأعدّت لهم الشّطائر. ولأول مرّة مُذ جاءوا إلى الجزيرة أحضرت معها حقيبتها اليدويّة.

كانت الصّخرة الّتي استقرّوا عليها صغيرة وجرداء، لم يروا هناك أثرًا لأي شيء نام، لم يلمحوا أعشابًا بحريّة ولا أخشابًا طافية. لا شيء إلّا مجرّد عَدم رماديّ صَادف أنّه موجود في الماء.

بينما جلسوا يشربون قهوتهم بدا كلّ شيء فجأة كأنّه طبيعيّ وسويّ. دردشوا متطرّقين إلى أمور مختلفة، إنّما ليس عن البحر ولا عن الجزيرة، ولا عن وادي المومين.

ومن حيث هم لاحت الجزيرة بمنارتها الهائلة غريبة الشّكل، أشبه بظلّ رماديّ قَصيّ تحت المطر.

عندما أنهوا قهوتهم، شطفت ماما مومين أقداحهم في البحر وأعادت الأغراض إلى سلّتها. دنا بابا مومين من الماء وتحسّس الهواء بأنفه. «أعتقد أنّ علينا العودة إلى البيت قبل أن تشتدّ الرّيح،» قال. وهذا في الحقيقة ما درج دائمًا على قوله كلّما ذهبوا في نزهة في أيّ مكان. تجمّعوا في المركب وزحفت ماي الصّغيرة إلى المقدّمة. وفي طريق العودة كانت الرّيح خلفهم.

سحبوا 'المغامرة' إلى الشّاطئ.

حالما وصلوا إلى دارهم لاحت لهم الجزيرة مختلفة تمامًا بطريقة ما. شعروا بذلك كلّهم، إلّا أن أحدًا لم يَقل كلمة. هم لم يعرفوا ما المختلف فيها،

وخمّنوا أن هذا ربّما يعود إلى تركها فترة ثمّ العودة إليها. مضوا مباشرة إلى المنارة، وفي ذلك المساء تسلّوا بأحجية الصُّور المقطعة، وصنع بابا مومين رفّ مطبخ صغيراً ثبّته قرب الموقد.

استفادت العائلة كثيراً من تلك النزهة، بيد أنّها نوعًا ما أشاعت شيئًا من الحزن في نفس ماما مومين. في اللّيل حلمت أنّهم ذهبوا إلى زيارة 'الهاتيفاتريين' على جزيرة ساحليّة قرب بيتهم القديم، جزيرة خضراء ومسالِمة، وعندما استيقظت في الصّباح تملّكها الشّعور بالحزن.

حالما بقيت وحدها بعد وجبة الصّباح، جلست بهدوء إلى الطّاولة تتأمّل صريمة الجدي النّامية على عتبة النّافذة. كان قلم الكوبيا قد استُهلك تقريبًا، وما بقي منه احتاجه بابا مومين ليضع العلامات على التّقويم وليكتب ملاحظاته.

نهضت ماما مومين وصعدت إلى السّقيفة. عندما نزلت ثانيّة كانت تحمل ثلاثة أكياس من طلاء بُنيّ وأزرق وأخضر، وعلبة دهان رصاص، والقليل من سخام المصابيح وفرشاتين قديمتين.

وهكذا راحت ترسم الزّهور على الجدار بأكمله. زهور كبيرة فخمة لأن الفرشاتين كانتا كبيرتين، ولأن الجصّ تشرّب الطّلاء ظهرت الرّسوم حادّة وجليّة. كم بدت رائعة! كان في هذا العمل مرح يفوق نشر الخشب بمراحل! برعم تِلو برعم أخذ مكانه على الجدار، ورود، زهور المُخمليّة، زهور الثّالوث وزهور الفاوانيا... ولا أحد دُهش أكثر من ماما مومين نفسها. فهي لم تملك أدنى فكرة أنّها رسّامة ماهرة. قرب الأرضيّة رسمت عشبًا أخضر طويلًا ومتموّجًا، وفكّرت في أن تضع الشّمس في الأعلى لولا أنّها لم تملك طلاءً أصفر.

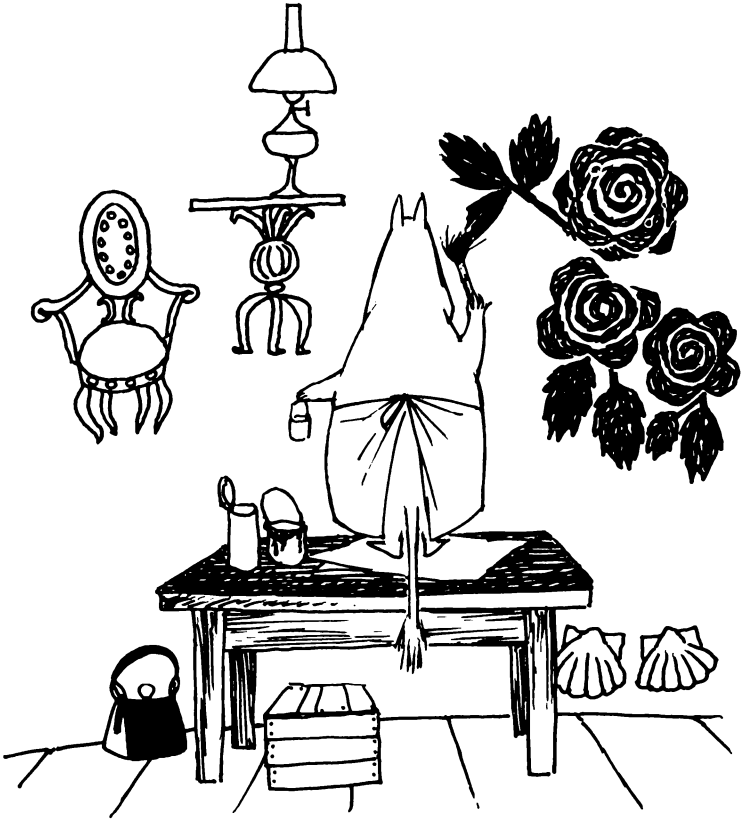

عندما عاد الآخرون من أجل الغداء لم تكن قد أشعلت النّار. رأوها واقفة على صندوق ترسم نحلة بُنيّة صغيرة بعينين خضراوين.

– «ماما!» هتف مومين ترول بإعجاب.

– «ما رأيكم في هذا؟» سألتهم ماما مومين والرّضا عن نفسها يغمرها بينما انهمكت ترسم عين النّحلة الثّانية، مُدركة أن عليها العثور على طريقة

أخرى لتفعل ذلك نظرًا إلى حجم الفرشاة الكبير، ومدركة أيضًا أنّها تستطيع تحويل النّحلة إلى عصفور إذا تحوّل السّيّئ إلى أسوأ.

– «إنّها تكاد تنطق بالحياة!» هتف بابا مومين. «في وسعي تمييز جميع هذه الزّهور! تلك الّتي هناك وردة.»

– «لا ليست وردة،» قالت ماما مومين باستياء. «إنها زهرة عود الصّليب. مثل الزّهور الحمراء الّتي كانت لدينا أسفل الدّرج في بيتنا القديم.»

– «أيُمكنني أن أرسم قنفذًا؟» صاحت ماي الصّغيرة.

رفضت ماما مومين طلبها بهزّة من رأسها، وقالت: «لا، هذا حائطي أنا. لكن إن أحسنتِ التّصرّف أرسم لك واحدًا.»

كان الجميع وقتَ الغداء في غاية الحبور.

– «ليتكِ تعطيني القليل من ذلك الطّلاء الأحمر،» قال بابا مومين. «يجب أن أضع علامة مائيّة منخفضة على الصّخر قبل أن يعاود البحر ارتفاعه. لا بدّ من أن أراقب بعناية مستوى الماء. وغايتي أن أعرف إن كان البحر يعمل وفق نظام ما أو أنّه يتصرّف على هواه... هذا مهمّ جدًّا.»

– «أدوّنتَ ملاحظات كثيرة؟» سألته ماما مومين.

– «نعم، الكثير. إلّا أنّني أحتاج إلى مزيد منها قبل أن أشرع في تأليف كتابي.» أجاب ثمّ اتكأ على الطّاولة، وكَمَنْ يبوح بسرّ قال: «أريد أن أعرف إن كان البحر يميل إلى العناد حقًّا أو أنّه يطيع.»

– «يطيع مَن؟» استفسر مومين ترول وهو يحملق في أبيه.

إلا أنّ بابا مومين استغرق فجأة في تناول حسائه وهمهم: «أوه... أيّ شيء... قوانين من هذا النوع أو ذاك.»

أعطته ماما مومين القليل من الطّلاء الأحمر في قدح فخرج فورًا بعد الغداء ليرسم العلامة المائيّة الواطئة.

اصطبغت أشجار الحور الرّجراج بالحُمرة، وفي الغَيْضة اكتست الأرض بسجّادة صفراء من أوراق البتولا. وعندما هبّت الرّياح الجنوبيّة الغربيّة حملت معها فوق الماء أوراقًا حمراء وصفراء.

طلى مومين ترول ثلاثة جوانب من زجاج مصباح الأعاصير بالسّخام، مثل شقيّ يُضمر نيّة شريرة. غادر المنارة متّخذًا طريقًا ملتوية، متحاشيًا الغروك الّتي دأبت على ملاحقته بعينيها الخاويتين. كان المساء يقترب وكانت الجزيرة تهمّ بالاستيقاظ. شعر بها تتقلقل، وسمع زعيق النّوارس حول رأس الجزيرة.

– «لا أستطيع إلّا أن أفعل هذا،» فكّر. «لن يمانع بابا لو عرف. لا أريد أن أرى الرّمل يلوذ بالفرار اللّيلة. ربّما أذهب إلى طرف الجزيرة الشّرقيّ هذه المرّة.»

جلس مومين ترول على صخرة وانتظر، ومصباح الأعاصير مسلّط على البحر. توارت الجزيرة خلفه تحت جناح الظّلام، ولم يظهر للغروك أثر.

لم يره أحد إلّا ماي الصّغيرة. ورأت الغروك أيضًا، جاثمة تنتظر عند الشّاطئ.

هزّت ماي الصّغيرة كتفيها، وزحفت عائدة إلى مأواها بين الحشيش. لطالما رأت أشخاصًا ينتظر أحدهم الآخر في المكان غير المناسب، ويبدون حمقى وضائعين. «حسنًا، لا شيء يمكن فعله حيال هذا،» فكّرت. «هكذا هي الأمور.»

كانت اللّيلة مظلمةً. سمع مومين ترول طيورًا غير مرئيّة تطير في السّماء، وصوت خوض في البحيرة السّوداء خلفه. التفتَ، وعلى شعاع المصباح لمح فرسَي البحر. كانتا تسبحان أسفل الجرف. ولعلّهما داومتا على القدوم إلى

هناك في كلّ ليلة من غير أن يعرف شيئًا عن ذلك.

تضاحكت فرسا البحر وتبادلتا رشّ الماء وهما تنظران إليه من تحت ناصيتيهما. حوّل مومين ترول نظره من إحداهما إلى الأخرى. كانتا تملكان العينين نفسيهما، الأزهار نفسها على جيديهما، ورأساهما النابضان بالحيويّة متماثلان. حار في تمييز الفرس الّتي تخصّه.

– «أهيَ أنت؟» سأل.

سبحتا نحوه، ووقفتا على مقربة من حافة الماء، فلم ير إلّا رُكبهما.

– «إنّها أنا! إنّها أنا!» أجابتا معًا وضحكتا بجنون.

«ألن تنقذَني؟» قالت إحداهما. «ألن تنقذَني، يا قنفذي البحري السّمين؟ أما زلتَ تتأمّل صورتي يوميًّا؟ ها، أما زلت تفعل؟»

– «إنّه ليس قنفذ بحر،» قالت الأخرى مؤنّبة رفيقتها. «إنّه حبّة فطر صغيرة على شكل بيضة، وعد بإنقاذي إذا هبّت العاصفة. هو حبّة فطر صغيرة على شكل بيضة يجمع الأصداف لأمّه! هذا شيء ساحر، ساحر فعلًا!»

شعر مومين ترول أنّه يتضرّج بحُمرة الخجل.

لقد صقلت ماما مومين حدوة الحصان بملمّع الفضّة، ولم يغب عنه أن إحدى الحدوات لا بدّ أن تكون لامعة أكثر من غيرها.

وعرف أيضًا أنّهما لن تُخْرِجا حوافرهما من الماء، وأنّه لن يكتشف مطلقًا أيّهما الّتي تخصّه.

عادتا إلى الخوض في البحر. سمعهما تضحكان، وبينما ابتعدتا أكثر فأكثر تراءى له أنّ صدى ضحكهما لم يعد إلّا صوت الرّيح تهبّ على الشّاطئ برفق.

تمدّد مومين ترول على الصّخرة وتأمّل السّماء. عجز عن تخيّل فرس البحر الّتي تخصّه. كلّما حاول رأى في خياله زوجًا منهما، رأى فرسين متماثلتين، متماثلتين تمامًا، تضحكان معًا ومتطابقتين في الشّكل. كلّ ما فعلتاه هو الخبب في الماء إلى أن كلّت عيناه من مراقبتهما. ثمّ أصبح هناك الكثير، الكثير جدًّا من أفراس البحر، أكثر من أن يرهق نفسه بعدّهن. وما عاد يروم شيئًا إلّا أن ينام ويُترك بسلام.

غدت جداريّة ماما مومين أجمل فأجمل، وامتدّت مساحتها إلى أن وصلت إلى الباب. احتوت الجداريّة على أشجار تفّاح أخضر كبيرة عامرة

بالأزهار والفاكهة، والعشب في أسفلها مكتظّ بفاكهة أسقطتها الرّيح. وكذلك انتشرت أشجار الورد في جميع الأرجاء، مُعظم ورودها حمراء، كتلك الّتي تنمو في حدائق الناس. وكلّ شجرة منها مطوّقة بأصداف صغيرة بيضاء. كانت البئر خضراء اللون وسقيفة الخشب بُنيّة.

في مساء أحد الأيّام كانت الشّمس ترسل أشعتها في الغرفة، وماما مومين منهمكة ترسم زاويّة من زوايا شرفتها.

دخل بابا مومين الغرفة ليلقي نظرة على الجداريّة.

– «ألن ترسمي بعض الصّخور؟» سألها.

– «لا صخور هناك،» أجابت ماما مومين بذهن شارد وهي مستغرقة في رسم الدّرابزين، وكان جعله مستقيمًا صعبًا جدًّا.

– «أذَاك الأفق؟» تابع بابا مومين.

نظرت ماما مومين إلى الأعلى. «لا، ذاك الشّرفة الزرقاء،» أجابت. «لا بحر هنا مطلقًا.»

تأمّل بابا مومين الجداريّة مليًا، لكنّه لم يقل شيئًا. ثمّ مضى ووضع سخّان الماء على النّار.

عندما استدار ثانية، لاحظ أن ماما مومين رسمت رقعة زرقاء كبيرة، وفوقها شيء تراءى له أنّه يمثّل قاربًا، إلّا أنّه لم يكن متقنًا.

– «ذاك ليس متقنًا أبدًا،» قال.

– «لم ينته كما أردت له،» اعترفت ماما مومين بحزن.

– «حسنًا، هي على أيّ حال فكرة لطيفة،» قال بابا مومين مواسيًا. «مع ذلك أقترح أن تغيّريها وتجعليها شرفة. ليس من المُجدي أن ترسمي ما لا تريدين رسمه.»

منذ ذلك المساء فصاعدًا بدأت جداريّة ماما مومين تزداد شبهًا بوادي المومين. أحيانًا وجدت صعوبة في نقل المشهد بدقّة، وأحيانًا اضطرّت إلى اقتطاع شيء من مكانه وطليه على حِدة خارج غرفة الرّسم، مثل الموقد وأشياء أخرى. وكان من المستحيل شمل جميع الأشياء. فالمرء لا يستطيع إلّا أن يرسم على جدار واحد فقط في كلّ مرة، وعلى نحو ما بدت الجداريّة غير طبيعيّة.

اكتشفت ماما مومين أن أفضل وقت للرّسم هو قبل الغروب. فالغرفة تكون خالية آنذاك، ويمكنها أن ترى بعين خيالها وادي المومين بوضوح جليّ.

في مساء أحد الأيّام كانت السّماء تشتعل بنيران أجمل غروب رأته في حياتها؛ مَعْمَعةٌ من لهب أحمر وبرتقاليّ ووردي وأصفر، لهب تغلغلت ألوانه المشتعلة في الغيوم المسافرة فوق البحر القاتم والهائج. ومن الجنوب الغربيّ راحت الرّياح تهبّ على الجزيرة آتية من خطّ الأفق الحادّ المدجّج بسواد فاحم.

في تلك الآونة وقفت ماما مومين على الطّاولة ترسم تفّاحًا بالطّلاء الأحمر على رأس شجرة. «ليت لديّ مثل هذه الألوان لأرسم بها في الخارج،» فكّرت. «حينها، يا لروعة ما سيكون لديّ من تفّاح وورد!»

وبينما هي تمعن النّظر في السّماء، تسلّل ضوء المساء إلى الحائط وأسبغ نوره على الأزهار في حديقتها. فبدا كأن الحياة والإشراق تدبّان فيها. اتّسعت الحديقة، واتّضح فجأة الطّريق الحصويّ ببعده المنظوريّ العجيب وقاد مباشرة إلى الشّرفة. حطّت ماما مومين كفّيْها على جذع الشّجرة. كان دافئًا من أشعة الشّمس، وتملّكها الشّعور بأن اللّيلك في أوجّ إزهاره.

كومضة برق مرّ طيْف عبر الحائط. شيء أسود طار أمام النّافذة. طائر أسود هائل أخذ يدور ويدور حول المنارة، مارًا بنافذة تلو أخرى، النّافذة الغربية، والجنوبيّة والشّرقيّة والشّماليّة... مثل روح تشتعل غضبًا... وجناحاه يخفقان بلا هوادة.

– «نحن محاصَرون!» فكّرت ماما مومين بذهن مشوّش. «إنها دائرة سحريّة. أنا خائفة. أريد أن أعود إلى البيت وأغادر هذه الجزيرة المهجورة الفظيعة والبحر القاسي...» رمت ذراعيها حول شجرتها المحمّلة بالتفّاح وأغمضت عينيها. كان ملمس لحائها خشنًا ودافئًا. تلاشى صوت البحر نهائيًا، وأصبحت ماما مومين في قلب حديقتها تمامًا.

كانت الغرفة خالية. وعلب الطّلاء ما زالت على الطّاولة، وفي الخارج واصل الطّائر الأسود التفافه حول المنارة. عندما اختفت الألوان من السّماء الغربية، يمّم البحرَ وطار بعيدًا.

لمّا حان وقت الشّاي عادت العائلة إلى البيت.

– «أين ماما؟» تساءل مومين ترول.

– «لعلّها خرجت لتحضر بعض الماء،» قال بابا مومين. «انظر، رسمت شجرة جديدة منذ أن خرجنا.»

توارت ماما مومين خلف شجرة التفّاح وراقبتهم يُعدّون الشّاي. لاحت أشكالهم ضبابيّة قليلًا، كما لو أنّها تراقبهم يتحركون تحت الماء. لم تُفاجأ مطلقًا بما حدث. ها هي أخيراً هنا في حديقتها حيث كلّ شيء في مكانه الصحيح، وكلّ شيء ينمو كما ينبغي له أن ينمو. طبعًا ثمّة أشياء هنا وهناك لم تُرسم بإتقان، إنّما هذا لا يهمّ. جلست على العشب الطّويل، وأصغت إلى الوقواق ينادي من مكان ما في الطّرف الآخر من النهر.

عندما غلى إبريق الشّاي، كانت ماما مومين مستغرقةً في النّوم ورأسها يتّكئ على شجرة التفّاح.

الرّيح الجنوبيّة الغربيّة

ساعة الغسق، اعتمل في نفس صيّاد السّمك شعور بأن الأمواج الجميلة العاتية آتية. سحب قاربه نحو رأس الجزيرة، ثمّ قلبَه وأحكم ربط صنارات الصّيد. زحف إلى بيته الصَّغير وتقوقع حتّى بدا مثل كُرة صغيرة مُجعّدة. جثم هناك وأفسح المجال للخلوة المثاليّة كي تطوّقه.

من بين جميع الرّياح كانت الجنوبيّة الغربيّة المفضّلة لديه. وقد حطّت تلك الرّياح رحالها في الجزيرة فعلًا، ولم تهمد مطلقًا في ذلك المساء. كانت ريحًا خريفيّة ويمكن أن تواصل عصفها لأسابيع وأسابيع إلى أن تصبح الأمواج جبالًا رماديّة عاليّة تحيط بالجزر.

قبع صيّاد السّمك في بيته يراقب البحر ينتفخ. بالنسبة إليه لا شيء كان أكثر روعة من ألّا يضطر إلى الاهتمام بمطلق شيء، وألّا يكون هناك أحد يحادثه، ولا أحد يطرح الأسئلة. بل حتّى لا أحد ليشعر بالأسف عليه. لا شيء سوى الغموض ورحابة البحر غير المُدركة، وطوفان السّماء فوقه وحوله الّذي لا يمكن أن يخذله أبدًا.

كانت الدّنيا أقرب إلى الظّلام عندما أفسد عليه مومين ترول خلوته المثاليّة تلك بقدومه فوق الصّخور الزلقة. لوّح مومين ترول بيده، اصطنع

جلبة صاخبة، وأخيراً بدأ يقرع على النّافذة. صاح بأعلى صوته قائلًا إن ماما مومين مفقودة، ابتسم صيّاد السّمك وهزّ رأسه. كان زجاج النّافذة أسمك من أن يتيح له سماع شيء.

تمايل مومين ترول مع الرّيح، ترنّح عائدًا من رأس الجزيرة عبر الأمواج المتكسّرة ومضى إلى الخلنج ليبحث هناك.

سمع مومين ترول نداء أبيه، وتسنّى له أن يرى مصباح الأعاصير يتأرجح ذهابًا وإيابًا بينما تلمّس بابا مومين طريقه فوق الصّخرة. كانت الجزيرة قلقة ومضطربة، مفعمة بهمسات وصيحات غريبة، وإذ سارع مومين ترول يجري أحسّ بما لا يقبل الشّكّ بأن الأرض تتحرّك تحت قدميه.

– «اختفت ماما،» فكّر. «أمضّها الشعور بالوحدة إلى درجة أنّها اختفت.»

لمّا صادف ماي الصّغيرة الّتي انزوت متكوّمة بين الأحجار قالت له: «انظر، الأحجار تتحرّك.»

– «لا يهمّني،» صاح. «ماما مفقودة!»

– «لا يمكن أن تُفقد الأمهّات بمثل هذه السّهولة،» أجابت ماي الصّغيرة. «ولو نظرتَ كما ينبغي تستطيع دائمًا أن تعثر عليهنّ. أريد أن أُقيّل قليلًا قبل أن تبدأ الجزيرة بأكملها في الانزلاق بعيدًا. تذكّر كلامي، عمّا قريب، لن يلبث أن يأخذ حدث شيطاني مجراه هنا!»

شعّ مصباح الأعاصير من ناحية البحيرة السّوداء، فذهب مومين ترول إلى هناك. التفت إليه بابا مومين وهو يحمل المصباح عاليًا وقال: «عساها لم تسقط فيها...»

– «لا بأس، ماما تُحسن السّباحة،» أجاب مومين ترول. ثمّ وقفا صامتين للحظة يتبادلان النّظر. أرغى البحر وأزبد على صخرة المنارة.

– «بالمناسبة،» قال بابا مومين، «أين كنت تقيم طوال هذا الوقت؟»

– «أوه، هنا وهناك،» تمتم مومين ترول وهو ينظر إلى النّاحية الأخرى.

– «شُغلتُ بأمور كثيرة تستدعي الاهتمام،» قال بابا مومين على نحو مبهم.

كان في وسع مومين ترول أن يسمع صوت الأحجار وهي تتقلّب. كان صوتًا مُستهجَنًا وعنيفًا. «سأبحث في الأجمة،» قال.

في تلك اللّحظة شعّت شمعتان في نافذة المنارة. لقد عادت ماما مومين إلى البيت.

عندما دخلوا الغرفة رأوها تجلس إلى الطّاولة تحيك منشفة.

– «أين كنتِ بحقّ الله؟» هتف بابا مومين.

– «أنا؟» تساءلت ماما مومين ببراءة. «خرجت في جولة قصيرة طلبًا لبعض الهواء النقيّ.»

– «لا ينبغي أن تُروِّعينا هكذا،» قال بابا مومين. «عليكِ ألّا تنسي أننا

معتادون على رؤيتك هنا عندما نعود إلى البيت مساءً.»

– «هو هكذا إذًا،» تنهّدت ماما مومين. «لكنّ المرء يحتاج إلى التغيير أحيانًا. إنّنا نأخذ كلّ شيء كأمر مسلّم به أكثر مما ينبغي، بما في ذلك بعضنا بعضًا. أليس هذا صحيحًا يا عزيزي؟»

حدّق فيها بابا مومين بارتياب، إلّا أنّها ضحكت وتابعت الخياطة. فذهب إلى التّقويم ووضع علامة عليه تُبيّن أنّهم في يوم الجمعة. وتحتها كتب: «قوّة الرّيح 5».

تراءى لمومين ترول أن صورة فرس البحر قد تبدّلت بطريقة ما. البحر الحقيقي ليس على تلك الدّرجة من الزرقة، والقمر أيضًا مُبالَغ فيه. جلس إلى الطّاولة وهمس بقدر ما استطاع من رقّة: «ماما أنا أقيم في غَيْضة وسط الأجمة.»

– «أحقًّا؟» هتفت ماما مومين. «أهو مكان لطيف؟»

– «نعم، كثيراً جدًّا. فكّرت أنّك ربّما ترينه بنفسك في وقتٍ ما.»

– «بودّي أن أفعل،» أجابت ماما مومين. «متى تأخذني إلى هناك؟»

تلفّت مومين ترول ينظر حوله بسرعة، ولما تأكّد أن بابا مومين مستغرق في كرّاسه همس: «الآن. حالًا. اللّيلة.»

– «نعـ...م،» قالت ماما مومين. «إنّما أليس من الألطّف لو رافقناك كلّنا في الصّباح؟»

– «لن يكون الأمر نفسه آنذاك،» أجاب مومين ترول فهزّت ماما مومين رأسها وتابعت الخياطة.

كتب بابا مومين في كرّاسه: «بعض الأشياء قد تتغيّر في اللّيل. من أجل الاستقصاء: ماذا يفعل البحر في اللّيل؟ الملاحظات: جزيرتي مختلفة تمامًا في الظّلام بسبب (أ) أصوات غريبة معيّنة، و(ب) تحرّكات واضحة مؤكّدة.»

نحّى بابا مومين قلمه متردّدًا للحظة. ثمّ تابع الكتابة: «أيمكن أن تنتقل اضطرابات المرء العاطفيّة القويّة إلى بيئته المحيطة؟ مثال: تكدّرت كثيراً لأننا لم نعثر على ماما. يجب أن أتحرّى هذا.»

قرأ ما كتبه وحاول التوصّل إلى نتيجة ما. وعندما عجز عن ذلك تخلّى عن المحاولة وتثاقل ماضيًا إلى سريره.

قبل أن يغطّي رأسه بالبطّانيّة قال: «تأكّدوا من إطفاء المصباح بطريقة صحيحة قبل أن تناموا. فنحن لا نريد أن تفوح رائحته.»

– «طبعًا يا عزيزي،» أجابت ماما مومين.

بعدما نام بابا مومين أخذ مومين ترول مصباح الأعاصير وقاد ماما مومين عبر الجزيرة. توقّفت عند الخلنج وأرهفت السّمع.

– «أهكذا هو الحال دائمًا في اللّيل؟»

– «نعم، إنّها تشيع في النفس شيئًا من الاضطراب في اللّيل،» قال مومين ترول. إنّما ليس عليك أن تقلقي. إنّها الجزيرة ولا شيء آخر. هي كما ترين تصحو ليلًا بعد أن ينام الجميع.»

– «طيّب،» قالت ماما مومين. «أذاك كلّ ما في الأمر؟»

قاد مومين ترول الطّريق خلال المدخل الرّئيس المؤدي إلى غَيْضته. بين حين وآخر التفت ليتأكّد من أن ماما مومين ما زالت تتبعه. علقت بين بعض الأغصان، بيد أنّها بطريقة ما نجحت في الوصول إلى الغَيْضة.

– «هنا تقيم إذًا!» هتفت. «يا له من مكان رائع!»

– «فقدَ السّقف معظم أوراقه،» شرح لها مومين ترول. «لكنّ يجب أن تريه وهو أخضر. يبدو الآن علي نور المصباح أقرب إلى الكهف.»

– «نعم هذا ما يبدو عليه فعلًا. أرى أن علينا إحضار حصيرة وصندوقًا

صغيراً لنجلس عليه...» أجابت ماما مومين ثمّ نظرت عاليًا ورأت النّجوم والغيوم المُبحرة. «أتعلم،» أردفت، «أحيانًا أشعر أن هذه الجزيرة تتحرّك ونحن عليها. وأننا ننجرف إلى مكان ما...»

– «ماما!» هتف مومين ترول فجأة. «قابلتُ فرس بحر، إلّا أنّها لا تبالي بي مطلقًا. ما أردتُ إلّا أن أجري على الشّاطئ معها وأشاركها الضحك، إنّها بديعة الجمال...»

هزّت ماما مومين رأسها. «لا أعتقد حقًّا أنّه يمكن إنشاء صداقة مع فرس بحر،» قالت بنبرة جديّة. «الأمر لا يستحقّ منك أن تشعر بخيبة

الأمل. أعتقد أنّه يُفترض بالمرء أن يُسَرّ من مجرّد مشاهدتها، كما قد يُسرّ من مشاهدة الطّيور الجميلة أو المناظر الجميلة.»

– «لعلّكِ مُحقّة،» أجاب مومين ترول.

استمعا إلى الرّيح تعصف في الأجمة. وكان مومين ترول قد نسي أمر الغروك تمامًا.

– «يؤسفني أن ليس عندي ما أقدّمه لكِ،» قال مومين ترول.

– «لدينا وقت لهذا غدًا،» قالت ماما مومين. «يمكن أن نقيم حفلة صغيرة هنا، ويمكن أن يأتي الآخرون أيضًا. حسنًا، من اللّطيف أن أرى أين تقيم. أظنّ أنّه يجدر بي الآن أن أعود إلى المنارة.»

بعد أن رافق مومين ترول أمّه إلى البيت أطفأ مصباح الأعاصير. أراد أن يبقى وحده. كانت الرّيح تزداد عتوًّا. والظّلمة وهدير البحر وما قالته ماما أشاعت فيه مجتمعةً شعورًا بالأمان.

وصل إلى الموضع الّذي سقطت منه صخرة في البحيرة السّوداء. تناهى إليه صوت الماء يتدفّق في أسفل المنحدر لكنّه لم يتوقّف. تابع المشي وهو يشعر أنّه بخفّة بالون ولا يراوده أدنى إحساس بالنّعاس.

ثم رآها. كانت الغروك قد توغّلت في الجزيرة وراحت تستقصي الأجواء أسفل صخرة المنارة. هناك كانت، تمشي متثاقلة طلوعًا ونزولًا، وتدسّ أنفها في الخلنج، ممعنةً بنظرها الضّعيف في ما حولها. ثمّ هامت على وجهها تجاه سبخة الطّحالب.

– «إنّها تبحث عني،» فكّر مومين ترول. «لكن عليها أن تأخذ الأمور بيُسر. أحجمتُ عن إضاءة المصباح اللّيلة لأنه يستهلك الكثير من البارافين.»

وقف بلا حراك للحظة، يراقبها تطوف يائسةً في الجزيرة.

– «يمكنها أن ترقص غدًا،» حدّث نفسه والتعاطف معها يغمره. «إنّما ليس اللّيلة. أرغب اللّيلة في ملازمة بيتي.»

وهكذا أدار ظهره للغروك وسلك طريقًا غير مباشرة عائدًا إلى غَيْضته.

استيقظ مومين ترول فجرًا والفزع يأخذ بتلابيبه. كان مُحاصَرًا. كان يختنق داخل كيس نومه. شيء ما ثبّته أرضًا وحال بينه وبين إخراج يديه. بدا كلّ شيء مقلوبًا رأسًا على عقب، وثمّة ضوء بُنيّ عجيب يطوّقه ورائحة غريبة تزكمه، كما لو أنّه مُستلقٍ في باطن الأرض.

أخيرًا نجح في فكّ سحاب كيس النّوم. فأبصر غيمة ترابيّة وإبر صنوبر تدوّم حوله. وإذا بدا له العالم كلّه مختلفًا، انتابه الشعور بضياع مطلق. رأى الجذور البُنيّة تزحف على الأرض نحو كيس نومه من جميع الاتجاهات. ومع أنّه لم ير الأشجار تتحرّك حينئذ، إلّا أنّها كانت قد تحركت في الظّلام ومرّت من فوق رأسه. الغابة بأسرها انتزعت جذورها ووطئته في طريقها كما لو أنّه مجرّد حجر. لاحظ أنّ علبة عيدان الثّقاب ما زالت في مكانها المعتاد وإلى جانبها قنينة عصير العنّاب، لكن غَيْضته اختفت. اندثرت. وجميع الأنفاق الّتي حفرها طُمرت. تراءى له أنّه في غابة بدائية، تفرّ هاربة بأشجارها الّتي

دبّت على الأرض جاذبة في طريقها كيس نومه. كان عليه أن يتمسّك به جيّدًا لأنه كيس نوم ممتاز إلى جانب أنّه جاءه هدية.

وقعت عيناه على مصباح الأعاصير. رآه معلقًا على الشّجرة حيث وضعه، إلّا أن الشّجرة كانت قد تحركت وغيّرت مكانها.

قعد مومين ترول وصاح مناديًا ماي الصَّغيرة بأعلى صوته. ردّت فوراً. أجابت بسلسلة إشارات سمعيّة طويلة بصوت كأنه نفير بوق صغير جدًّا، أو صوت عوّامة إنقاذ في عرض البحر. بدأ مومين ترول يزحف نحو الجهة الّتي تناهى منها الصوت.

خرج إلى ضوء الشّمس حيث لفحت الرّيح وجهه مباشرة. نهض مرتعد الفرائص ونظر إلى ماي الصَّغيرة بارتياح لا يُوصف. بل حتّى رأى أنّها، ولو لمرّة واحدة على الأقلّ، تكاد تبدو جميلة.

على مسافة أبعد قليلًا بين الخلنج، كانت بعض الشّجيرات الّتي انتزعت جذورها من التّربة بلا أيّ صعوبة مطروحة على الأرض متشابكةً ومُربَكة. أما سبخة الطّحالب فغارت في الأرض وبدت مثل وهد أخضر عميق.

– «ماذا يحدث؟» صاح مومين ترول. «ما يجعلها تنتزع جذورها هكذا؟ أنا لا أفهم.»

– «هي مُرتاعة،» أجابت ماي الصَّغيرة وهي تنظر مباشرة بين عينيه. «إنها خائفة جدًّا إلى درجة أن جميع إبر الصّنوبر تقف على رؤوسها. بل هي خائفة أكثر منك بكثير! ولو لم أعرف أن الحقيقة خلاف هذا، لظننت أنّ الغروك هنا. ها؟»

أحسّ مومين ترول ببطنه يتقلّص فجلس على الخلنج. الخلنج الّذي بقي ولله الحمد على حاله! كان مزهرًا كالمعتاد، وكأنه قد قرّر أن يبقى حيث هو.

– «الغروك،» تابعت ماي الصَّغيرة بنبرة مدروسة. «ضخمة، وتشعر ببرد قارس دائمًا، وتهيم على وجهها هنا وهناك، وتجلس أينما اتفق. أتراك تعرف ما يحدث عندما تجلس؟»

طبعًا هو يعرف. لا شيء يمكن أن ينمو ثانيّة مطلقًا حيثما تجلس.

– «لماذا تحدجينني هكذا؟» هتف مومين ترول.

– «أكنتُ أحدجكَ؟» سألته ماي الصَّغيرة ببراءة. «ما الدّاعي لأن أفعل؟ لعلّي كنت أحدّق في شيء خلفك...»

هبّ مومين ترول واقفًا والتفت ينظر حوله بفزع.

– «ها، ها! كنتُ أمازحك فقط!» صاحت ماي الصَّغيرة مبتهجة. «أليس مضحكًا أن يجنّ جنون جزيرة وتبدأ في الهيجان؟ هذا جدّ مسلٍّ.»

لكن مومين ترول لم ير ذلك مضحكًا. كانت الأجمة تتحرّك نحو المنارة؛ تقطع الجزيرة ميمّمة درج المنارة مباشرة. ولن تلبث مع مضيّ كلّ ليلة أن تزداد اقترابًا إلى أن يدفع أول غُصين واطئ الباب ويحاول الدّخول.

– «نحن لن نفتح الباب!» قال فجأة وهو يصوّب نظره بين عيني ماي الصَّغيرة. كانت عيناها ترقصان مرحًا كأنّهما تسخران منه، وكما لو أنّهما تقولان: «نعرف كلّ أسرارك.»

بطريقة ما، جعله هذا أفضل حالًا بكثير.

بعد وجبة الصّباح ذهب بابا مومين وجلس على نتوء صخرة حارس المنارة عند المنحدر. وسرعان ما استغرق في شتّى أنواع التّخمينات.

كان كرّاسه شبه ملآن بتلك التّخمينات. تخمينات عن البحر. وآخِر عنوان أضافه: «طريقة تغيّر البحر في اللّيل.» وهذا وضع تحته خطًا. وقد جلس الآن يحدّق في الفراغ تحت ذلك العنوان بينما حاولت الرّيح اختطاف

الكرّاس من بين يديه. تنهّد وقلّب الصّفحات إلى أن وصل إلى الصّفحة 5 الّتي كان مولعًا بها كثيراً. في هذه الصّفحة استنبط أن البحيرة السّوداء متّصلة بالبحر بوساطة نفق في منتهى العمق (يظهر في الخريطة)، وأنّه عبر هذا النّفق، لسوء الحظّ، جُرفت الكنوز وصناديق المشروبات والهياكل العظيمة واستقرت في قاع البحر. أمّا العلبة الصّدئة فصدف أن علقت عند حافة الموضع المعلَّم بحرف أ. وإذا سلّمنا جدلًا أن شيئًا أو شخصًا يُدعى X ضخّ الماء في النفق ثمّ عاد وشفطه ثانيّة يكون من الطّبيعي أن يعلو وينخفض بحيث يبدو كما لو أنّه يتنفّس. إنّما مَن أو ما يكون هذا الX ؟ وحش بحري؟ هذا تعذّر إثباته. وهكذا حوّل تساؤله عن البحر إلى الفصل الّذي يحمل عنوان «الفرضيات»؛ الفصل الّذي ما انفكّ يطول ويطول.

في فصل «الحقائق،» جزم بابا مومين أن برودة الماء تزداد كلّما ازداد عمقه. كان قد عرف هذا قبل أن يبدأ طبعًا؛ إذ لم يضطر إلّا إلى تغطيس ساقه في الماء ليتحقّق من الأمر. ومع ذلك استطاع بوساطة قنينة جعلها تنتصب واقفة بطريقة مبدعة أن يثبّت نظريّته على نحو حاسم. وتوصّل أيضًا إلى أن الماء ثخين ومالح. وكلّما ازداد عمق الماء زادت كثافته، وكلّما اقترب من السّطح زادت ملوحته. البرهان: بحيرات الماء المالح الضّحلة. هي مالحة جدًّا. وفي وسع المرء أن يشعر بكثافة الماء عندما يغوص فيه.

وبالنسبة إلى الأعشاب البحريّة والطّحالب فهي تُطرح مع اتجاه الرّيح وليس عكس الرّيح. إذا ألقى المرء لوحًا خشبيًا في وجه الرّيح عن صخرة المنارة، فلا ينجرف نحو اليابسة بل يطفو حول الجزيرة على مسافة بعيدة قليلًا من الشّاطئ. وإذا حمل المرء لوحًا خشبيًا مواجهًا للأفق، لا يظهر خطّ السّماء مستقيمًا بل يبدو مثل قوس دائرة. في الجو السّيئ يرتفع مستوى الماء ولكن أحيانًا يحدث العكس. الموجة السّابعة هائلة دائمًا، وأحيانًا

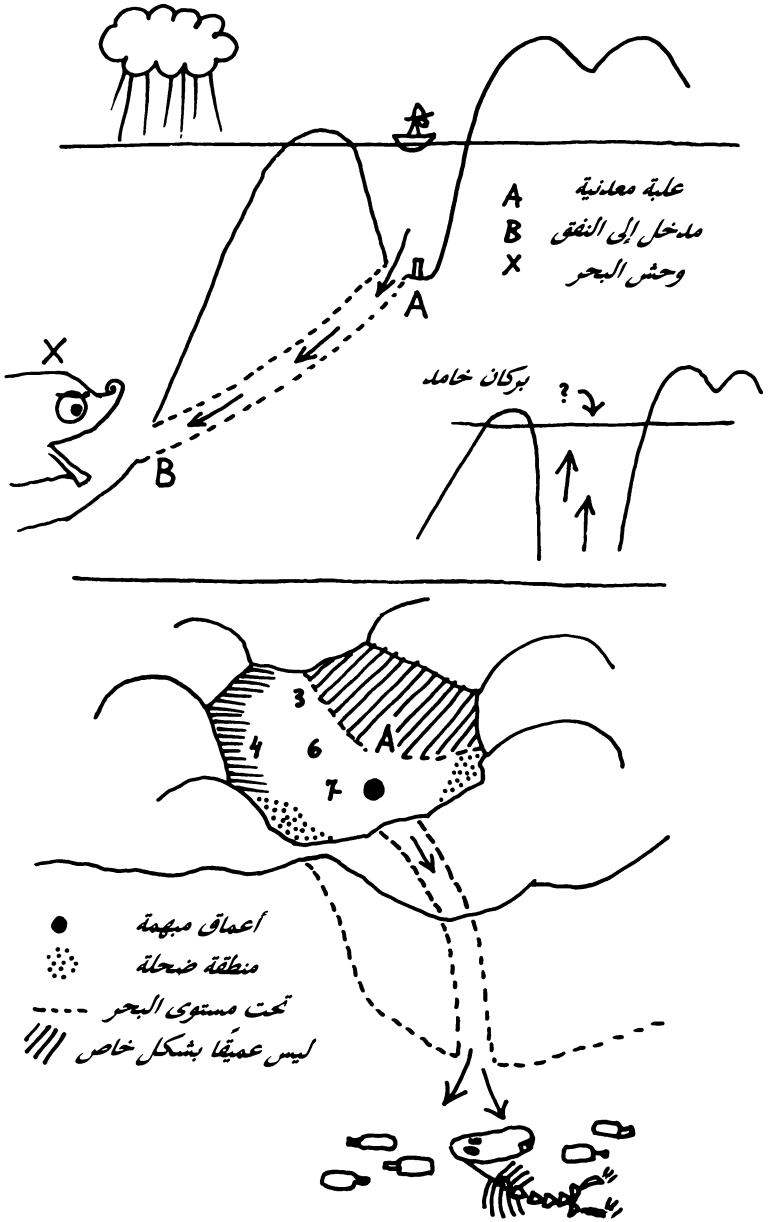
علبة معدنية
A
مدخل إلى النفق
B
وحش البحر
X
A
X
B
بركان خامد
?
3
4
6
A
7
أعماق مبهمة
منطقة ضحلة
تحت مستوى البحر
ليس عميقًا بشكل خاص

تكون الموجة التّاسعة هي الهائلة، وفي أحيان أخرى لا يظهر أنّ هناك أيّ نظام متناسق.

وماذا عن صفوف الزّبد الطّويلة الّتي تبرز فجأة قبل هبوب العاصفة مباشرة؟ من أين تأتي وإلى أين تذهب؟ حاول بابا مومين العثور على أجوبة لهذه الأسئلة وكثير غيرها، إلّا أنّ هذا كان في منتهى الصعوبة. بدأ يشعر بالكلل وقلّة المعرفة العلميّة فكتب: «لا تحيط بالجزر جسور ولا أسوار، لذا من المستحيل أن يخرج منها شيء أو يؤسرَ فيها شيء. هذا يعني أن المرء يشعر...» لا، لم ير أن هذا الاستنتاج جيّد. شطب ما كتبه، وانتقل إلى الفصل الهزيل المسمّى «الحقائق».

عادت إليه الفكرة المربِكة الّتي تقول إن البحر لا يلتزم بأيّ قانون. حاول جاهدًا صرف تفكيره عنها. كان مصمّمًا على الاستيعاب، مصمّمًا على حلّ لغز البحر حتّى يتعلّم أن يحبّه وفي الوقت نفسه يحتفظ بماء الوجه.

بينما قعد بابا مومين يمعن التّفكير في هذه المعضلات، كانت ماما مومين غارقة تمامًا في جداريّتها. اكتشفت أنّ هناك أشياء كثيرة ينبغي رسمها من جديد. بالتّدريج تنامت جسارتها وما عادت تختبئ وراء أحد جذوع الأشجار عندما تسمع وقع خطوات على الدّرج. لاحظت أنّها عندما تقف بين الأشجار المرسومة على الجدار يصبح حجمها أقرب إلى حجم إبريق قهوة، وكانت قد رسمت مجموعة كبيرة من ماما مومين مصغّرة في جميع أرجاء الحديقة الجداريّة. وبذلك، يمكنها إذا حدث ووقعت عين أحد عليها، أن تقف ثابتة حيث هي، ولن يخمّن أيّ واحدة هي ماما مومين فعلًا.

– «حسنًا، هذا حقًّا قمّة الجنون،» هتفت ماي الصَّغيرة. «أما كان ممكنًا أن ترسمينا أيضًا، لا أن ترسمي نفسك فقط؟»

– «ولكن أنتم دائمًا تسرحون في الجزيرة،» أجابت ماما مومين.

ثم انبرت تسأل مومين ترول عن إمكانيّة إقامة حفلة في غَيْضته إلّا أنّه همس بكلام مُبهم وخرج.

– «فرس البحر هي السّبب،» حدّثت ماما مومين نفسها. «آه، طيب، هذه طبيعة الأمور!» ثمّ رسمت ماما مومين أخرى، هذه المرّة رسمتها جالسة أسفل شجيرات اللّيلك تروّح عن نفسها.

نزل مومين ترول الدّرج على مهل وخرج إلى صخرة المنارة. كانت غَيْضته قد اختفت وما عاد هناك أثر لأفراس البحر.

وقف يتأمّل حديقة ماما مومين عند أسفل الصّخرة. كانت أشجار

الورد ذابلة لأنّها نُقلت إلى تلك البقعة الطّريّة وما عادت مدعومة بالرّمل والأحجار. وفي منتصف حوض الأزهار، رأى أن ماما مومين قد شيّدت سياجًا صغيرًا يُفترض به أن يطوّق شيئًا ما. لكن مومين ترول لم يفلح في تخمين ما ذاك الّذي يطوّقه. رجّح فقط أنّه شيء تحاول جعله ينمو هناك.

أقبلت ماي الصَّغيرة مسرعة نحوه. «مرحبًا،» هتفت. «أتعرف ماذا؟ أعطني ثلاثة تخمينات.»

– «لا، أخبريني أنتِ،» أجاب مومين ترول.

– «إنّها تفّاحة،» أعلنت ماي الصَّغيرة. «زرعت تفّاحة لفظها البحر نحو اليابسة. تقول إن البذور ستنمو وتصبح شجرة تفّاح.»

– «تفّاحة!» كرّر مومين ترول بدهشة. «تحتاج شجرة التفّاح إلى سنوات وسنوات لتنمو!»

– «أراهنكَ أنّ هذا صحيح!» صاحت ماي الصَّغيرة وهي تندفع مبتعدة.

بقي مومين ترول حيث هو يتأمّل السّياج. رأى أنّه متقن الصّنع، وبدا من بعيد مثل أسوار الشّرفة في بيتهم السّابق. أخذ يضحك بينه وبين نفسه. سرى فيه شعور لطيف. كان من المريح فعلًا أن يضحك. لا أحد يضاهي عناده عنادَ ماما مومين. تساءل إن كانت في نهاية المطاف ستحصل على شجرة تفّاحها. ورأى أنّها تستحق ذلك. وبما أنّ الشّيء بالشّيء يذكر، لا شكّ في أنّ الحصول على كوخ صغير فيه متعة أكبر من الحصول على غَيْضة. كوخ منمنم يبنيه المرء بيديه. وفي وسعه أن يصفّ أحجارًا صغيرة عند النّافذة.

لم يلاحظ بابا مومين ولا ماما مومين تصميم الغابة على الاقتراب من

المنارة إلّا بعد وقت ما في العصر. بدا شجر الألدر في عجلة من أمره أكثر من الأشجار الأخرى، وبلغ في زحفه الدائب على الجزيرة منتصف الطّريق تقريبًا. ولم تبق في مكانها إلّا شجرة الألدر الّتي رُبطت بها 'المغامرة'، هذا على الرّغم من أنّها كادت تخنق نفسها من هول الجهد الّذي بذلته في شدّ الحبل. أمّا أشجار الحور الرّجراج ففقدت جميع أوراقها، وما عادت أيضًا من شدّة خوفها تصدر أيّ حفيف. بدلًا من ذلك ترامت على الخلنج بمجموعات صغيرة فزعة.

بدت الأشجار كلّها مثل الحشرات وهي تحاول عقد جذورها حول الأحجار، وتتمسّك بالخلنج في محاولة مستميتة لتصمد أمام الرّياح الجنوبيّة الغربية.

– «ما معنى هذا؟» همست ماما مومين وهي تنظر إلى بابا مومين. «ما يدفعها إلى فعل ذلك؟»

عضّ بابا مومين غليونه وحاول يائسًا العثور على أيّ تفسير ممكن. كان من الشّنيع أن يضطرّ إلى القول: «لا أعرف.» كان مستاءً من عجزه عن الفهم.

أخيرًا قال: «هذا من الأمور الّتي تحدث في اللّيل. الأشياء كما تعلمين يمكن أن تتغيّر خلال اللّيل.»

تفرّست ماما مومين فيه.

– «من المحتمل أن،» تابع بابا مومين بعصبية، «أن... أ... أ... هو نوع من التحوّل السّرّي في الظّلام، أعني... لو ذهبنا إلى الخارج و... أ... مع كلّ هذا الإرباك... سيكون عظيمًا جدًّا... أعني الإرباك...أ... إنّنا بعد أن نستيقظ في الصّباح يكون كلّ شيء قد عاد إلى ما كان عليه...»

– «عن أيّ شيء تتحدّث يا عزيزي؟» استفهمت ماما مومين بنبرة قلقة.

اصطبغ بابا مومين باللون القرمزيّ.

ثم، بعد فترة من الصّمت المحرج غمغم مومين ترول: «إنها خائفة.»

– «أهذا ما تظنّه؟» قال بابا مومين بامتنان. «نعم أعتقد أنّ لديك وجهة نظر سليمة...» أجال نظره في ندوب الأرض. كانت كلّ شجرة هناك قد نأت بنفسها عن البحر.

– «أخيراً فهمت!» هتف بابا مومين. «إنها خائفة من البحر. البحر أفزعها. شعرتُ أن شيئًا ما يجري عندما خرجتُ ليلة أمس...» فتح الكرّاس وقلّب صفحاته. «هذا ما كتبته صباح اليوم... لحظة، عليّ أن أفكّر في الأمر بتركيز بالغ...»

– «أيستغرق هذا وقتًا؟» سألته ماما مومين.

لكن بابا مومين كان في طريقه إلى صخرة المنارة وأنفه محشور في ملاحظاته. تعثّر بدُغل ثمّ اختفى بين الأشجار.

– «ماما،» هتف مومين ترول. «لا أعتقد أن هذا يستدعي القلق. الأشجار تنتقل مسافة قصيرة فقط، ولن تلبث أن تعود وتحشر جذورها في الأرض وتزدهر بالطّريقة المعتادة.»

– «أتظنّ؟» قالت ماما مومين بصوت خافت.

– «ربّما تصنع عريشة صغيرة حول حديقتك،» قال مومين ترول. «ألن يبدو هذا لطيفًا؟ الكثير من أشجار البتولا بأوراق باهتة الخضرة...»

هزّت ماما مومين رأسها وسارت ميمّمة المنارة. «لطيفٌ منك أن تقول هذا،» قالت. «لكنّني لا أعتقد أن تصرّف الأشجار هذا طبيعي. الأشجار في بيتنا السّابق لم تفعل قطّ شيئًا مماثلًا.»

قرّرت أن تقصد حديقتها وتجلس هناك فترة لتهدأ.

حرّر مومين ترول شجرة الألدر من حبل 'المغامرة'. غدت الرّياح الجنوبيّة الغربيّة أعنف بكثير، وكانت السّماء صاحية وصافية، والأمواج المتكسّرة على طرف الجزيرة الغربيّ أعلى وأنصع بياضًا ممّا سبق له أن رآها قطّ. ذهب مومين ترول واستلقى بين الخلنج. شعر بسلام كبير، بل حتّى بالابتهاج. وشاع في نفسه ارتياح عظيم بعد أن لاحظ والداه أخيراً ما يجري!

طنّت نحلة وحيدة بلطف وهي تطير من زهرة متفتّحة إلى أخرى في الخلنج. والخلنج لم يظهر عليه أنّه خائف من أيّ شيء. بل تابع نموّه في المكان نفسه. «ماذا لو عمّرت كوخي الصَّغير هنا بالضّبط!» فكّر مومين ترول. «ملاصقًا للأرض وبأحجار مسطّحة أمام بابه.»

فتح عينيه عندما ألقى شيء ظلّه فوقه. كان بابا مومين واقفًا إلى جانبه والقلق البالغ باد عليه.

– «ماذا؟» سأله مومين ترول.

– «هذا لا يبشّر بالخير،» أجاب بابا مومين. «ما تقوم به الأشجار يفسد كلّ شيء. بتّ أقل استيعابًا للبحر أكثر من أيّ يوم مضى. لا نظام هناك، ولا ترتيب في الأشياء مطلقًا.» نزع قبعة حارس المنارة وراح يعصرها ويلويها ثمّ يعود ويفردها.

– «كما ترى،» أردف بابا مومين، «فكرتي أن أكتشف ما القوانين السّرّيّة الّتي يمتثل لها البحر. هذا ما يجب أن أفعله إذا أردت أن أتعلّم كيف أحبّه. لن أسعد بتاتًا في هذه الجزيرة إلّا بعد أن أتعلّم كيف أحبّ البحر.»

– «هذا بالضّبط الحال نفسه مع النّاس،» علّق مومين ترول بحماسة وهو يعتدل جالسًا. «أعني استلطاف المرء لهم.»

– «البحر لا ينفكّ يغيّر أساليب تصرّفاته،» تابع بابا مومين. «أحسبه

لا يفعل إلّا ما يحلو له. ليلة أمس أفزع الجزيرة برمّتها. لماذا؟ ماذا حدث؟ لا منطق ولا قافية منتظمة في ذلك. وإذا كان هناك منطق أو قافية فهو يفوق قدرتي على الاستيعاب.»

وقف يعاين مومين ترول بنظرة متسائلة.

– «أنا واثق من أنّه إذا كان هناك منطق أو نظام فلن يخفى عليك،» قال مومين ترول الّذي شعر بالإطراء من التّفكير في أن بابا مومين ارتأى أن يناقش معه مثل هذه الأمور المهمّة، وبذل جهدًا كبيرًا ليستوعب محور النّقاش.

– «أترى هذا حقًّا؟» قال بابا مومين. «أتعني أن ليس هناك منطق أو نظام في كلّ ما يجري؟»

– «أنا متأكّد من أنّه ليس هناك شيء من ذلك،» أجابه ابنه متمنّيًا من صميم قلبه أن يكون قد قال الشّيء المناسب.

حلّقت مجموعة نوارس من الرّأس وبدأت تحوم حول الجزيرة، وبدا لهما أن صدى الأمواج الكاسرة في الأسفل، يشبه ترداد أنفاس مخلوق كامن في باطن الأرض.

– «لكن لا رَيْب في أن البحر مخلوق حيّ،» قال بابا مومين متفكّرًا. «هو يملك القدرة على التّفكير. ويتصرّف تمامًا بالطّريقة الّتي يميل إليها... وفهمه مستحيل... إذا كانت الغابة خائفة من البحر أفلا يعني هذا أن البحر حيّ قطعًا؟»

هزّ مومين ترول رأسه إيجابًا. كان متحمّسًا جدًّا إلى درجة أنّه شعر بجفاف في حلقه.

سكت بابا مومين لحظة. ثمّ نهض وقال: «البحر إذًا هو من يتنفّس في البحيرة السّوداء. والبحر هو من يجذب الشّاقول. كلّ شيء في غاية

الوضوح الآن. دمّر لي مانع الأمواج وملأ شباكي بالطّحالب، وحاول قلقلة المركب...»

وقف يحملق في الأرض، متجهّمًا ومجعّد الأنف. ثمّ فجأة استرخى وجهه وقال وشعور عظيم بالارتياح يغمره: «في هذه الحالة ليس عليّ أن أستوعب البحر! البحر مجرّد مخلوق ضعيف لا يمكنك الاعتماد عليه...»

لاحظ مومين ترول أن بابا مومين كان يتحدّث مع نفسه، لذا لم يقُل شيئًا. راقبه يمضي نحو المنارة، مخلّفًا كرّاسه وراءه على الخلنج.

في هذه الآونة شُغلت السّماء بمزيد من الطّيور التي أخذت تزعق كما لو أن مسًّا أصابها. لم يسبق لمومين ترول أن رأى هذا العدد من الطّيور في وقت واحد. كانت السّماء شبه سوداء بسببها، حتّى الطّيور الصَّغيرة حلّقت فيها. وجميعها هامت في الفضاء بجنون، وأعداد أخرى أكثر وأكثر انضمت إليها آتية من عرض البحر. تفرّس فيها مومين ترول. عرف أنّها هي أيضًا تحاول الفرار من الغروك وصقيعها المخيف. وعرف أيضًا أن ليس بيده حيلة. لكن، ما أهميّة هذا الآن؟ لقد بادله بابا الحديث بطريقة مختلفة جدًّا، وهذا جعله فخورًا على نحو لا يُصدّق.

كان الآخرون يقفون خارج المنارة، يحدّقون في الطّيور الّتي بدت أنّها تسدّ السّماء بنداءاتها الفزعة. ثمّ بلمح البصر طارت صوب البحر. رحلت الطّيور، رحلت إلى البحر ولم تخلّف وراءها إلّا هدير الأمواج.

هاج البحر وماج على الجزيرة، وقذف رذاذه عاليًا جدًّا حتّى بدا كما لو أن الدّنيا تُثلج. في طرف الجزيرة الغربيّ لاحت الأمواج مثل تنانين بيضاء فاغرة الأفواه.

– «أراهن أن صيّاد السّمك مسرور الآن،» فكّر مومين ترول. وفي تلك اللّحظة تمامًا حدث ما حدث. رأى بيت صيّاد السّمك الإسمنتيّ الصَّغير يتداعى، والموجة التّالية تجرف جدرانه.

استطاع صيّاد السّمك أن يفتح الباب في الوقت المناسب، واندفع خارجًا بسرعة البرق من بين الزَّبد. زحف تحت قاربه الّذي استقرّ مقلوبًا على الصّخر. لم يبق شيء من بيته الصَّغير سوى المشابك الحديديّة الّتي نتأت من بين الصّخور مثل أسنان مُهملة.

– «ياه! يا ربّ احفظ ذيلي!» فكّر مومين ترول. «كان بابا على حقّ. البحر سيّئ الطّباع فعلًا!»

– «هو حتمًا يقطر ماءً حتّى العظام،» صاحت ماما مومين. «وربّما علقت شظايا زجاج النّافذة بجسمه... يجب أن نعتني به بما أنّه ما عاد لديه الآن مأوى!»

– «سأذهب وأتفقّده،» أعلن بابا مومين. «أنوي نيّة قاطعة أن أدافع عن جزيرتي!»

«لكن رأس الجزيرة ذاك أصبح تحت الماء، هذه مجازفة لا تُحمد عقباها!» صاحت ماما مومين. «وقد تجرفك الأمواج...»

قفز بابا مومين وانتزع شاقوله المعلّق تحت الدّرج. كان متحفّزًا. وأحسّ أنّه بخفّة الهواء.

– «لا تخافي،» قال. «في وسع البحر أن يفعل ما يحلو له. وليُرِنا أسوأ ما لديه، هذا لا يهمّني! أنا عازم على حمايّة أيّ مخلوق يعيش في هذه الجزيرة!»

نزل بابا مومين عن الصّخرة وماي الصّغيرة ترقص حوله. صاحت بشيء ما إلّا أن جلبة الرّيح ابتلعت صوتها. وقف مومين ترول وسط الخلنج يتفرّس في البقعة الّتي سبق أن قام عليها بيت صيّاد السّمك.

– «يمكنك أن ترافقني،» خاطبه بابا مومين. «إنّه الوقت المناسب لتتعلّم كيف تدافع عن نفسك!»

قطعا الجزيرة جريًا ميمّمين رأسها، وسرعان ما أصبحا تحت الماء. راحت ماي الصّغيرة تقفز صعودًا ونزولًا من شدّة الحماسة. شعرها الّذي حلّت الرّيح عقدته أخذ يتطاير حول رأسها كأنّه هالة.

نظر بابا مومين إلى البحر الغاضب يتكسّر على الجزيرة، قاذفًا رذاذه تارة، وعائدًا أدراجه ثانيّة بصوت شفط فظيع. عند رأس الجزيرة، حيث يتوجّب عليهما العبور، كانت الأمواج ترغي وتزبد. ربط بابا مومين الحبل حول خصره ومرّر طرفه الآخر إلى ابنه.

– «عليك الآن أن تستميت في التّمسّك به،» قال. «اصنع عقدة متينة حول خصرك واتبع خطاي وتأكّد من بقاء الحبل مشدودًا بيننا. سنخدع البحر! قوة الرّياح سبعة. قوتها سبعة!»

انتظر بابا مومين إلى أن هاجمت الجزيرة موجة هائلة ثمّ توجّه إلى صخرة برزت من الماء على مسافة ليست ببعيدة. كانت زلقة على نحو خطير أينما وضع قدميه، وعندما اندفعت الموجة التاليّة كان قد تجاوز الصّخرة. توتّر الحبل بينه وبين مومين ترول، والبحر دوّم تحت أقدامهما وقلبهما رأسًا على عقب في الماء. بيد أن الحبل صمد.

عندما تراجعت الموجة، انزلقا من بين الصّخور وكرّرا المناورة عند الصّخرة الكبيرة التّالية.

– «حان الوقت لتتعلّم شيئًا من آداب السّلوك!» فكّر بابا مومين

قاصدًا بذلك البحر طبعًا. «هناك حدود لكلّ شيء... لا يهمّ ما تسببه من إزعاج لنا، فنحن قادرون على التحمّل. لكن أن تعتدي على صيّاد السّمك ذاك، تلك الكومة المُكرمشة من الطّحالب، بينما هو يكنّ لكَ احترامًا شديدًا، فهذا تجاوز كبير للحدود. وهو أمر مزعج كثيراً حقًّا...»

هاجمته موجة هائلة وجرفت معها غضبه.

كان قد نجح في العبور تقريبًا. توتّر الحبل المعقود حول خصره. تعلّق بنتوء صخرة وتشبّث بيديه ورجليه. بيد أن موجة أخرى اكتسحته، وانحلّ الحبل.

حالما أخرج بابا مومين أنفه من الماء، تسلّق إلى رأس الجزيرة بأسرع ما يمكنه. كانت قدماه تقصفان. بدأ يشدّ طرف الحبل جاذبًا ابنه المتعلّق بطرفه الآخر، والذي كان يترنّح في الماء على مسافة تبعد قليلًا عن جهة مهبّ الرّيح.

جلسا متجاورين على الصّخرة يرتجفان بردًا. كانت ماي الصَّغيرة في طرف الجزيرة الآخر تنطّ كالكُرة، مهلّلة لهما، كما يظهر، بجنون. تبادل

مومين ترول وأبوه النظرات ثمّ طفقا يضحكان. نعم، لقد خدعا البحر.

– «كيف الحال عندك؟» صاح بابا مومين وهو يحشر أنفه تحت قارب صيّاد السّمك. التفتت عينا صيّاد السّمك الزرقاوان الرّقراقتان نحوه. كان غارقًا بالماء حتّى العظام إلّا أنّه نجا من شظايا زجاج النّافذة.

– «أتشعر برغبة في تناول قدح طيّب من القهوة؟» صاح بابا مومين بصوت يطغى على عويل الرّياح.

– «لا أدري، مضى زمن طويل منذ أن شربت القهوة...» تردّد صوت صيّاد السّمك كقعقعة صفيحة متصدّعة. فجأة شعر بابا مومين بأسف بالغ عليه. كان ضئيلًا جدًّا، وليس من الممكن أن يتدبّر أمر العودة إلى مأواه وحده.

وقف بابا مومين ونظر إلى مومين ترول. هزّ كتفيه ولوى قسمات وجهه كما لو أنّه يقول: «حسنًا، هكذا هي الأمور؛ ليس هناك الكثير مما يمكننا أن نفعله حيال هذا.» هزّ مومين ترول رأسه إيجابًا.

بدأوا يَغذّون في السّير نحو رأس الجزيرة بقدر ما استطاعوا. فرطحت الرّيح آذانهم، ولسع الرّذاذ المالح وجوههم. عندما لم يعودوا قادرين على التقدّم أكثر، توقّف بابا مومين ومومين ترول وراقبا عمود الرّغوة المهيب الّذي يرتفع أمامهم مع كلّ موجة، يرتفع رويدًا رويدًا، بطريقة شعائريّة تقريبًا، ثمّ يعود ويتراجع نحو البحر.

– «إنّه على أيّ حال عدوّ يستحق التعارك معه،» صاح بابا مومين وسط صخب الأمواج. هزّ مومين ترول رأسه. هو في الواقع لم يسمع ما قاله بابا مومين، إلّا أنّه مع ذلك فهم ما يرمي إليه.

كان هناك شيء تدفعه الأمواج نحو الشّاطئ. كان صندوقًا، وكان يعوم مع اتجاه الرّيح عند أحد أطراف رأس الجزيرة ويطفو ثقيلًا على سطح الماء.

غريب جدًّا كيف تفاهما من غير أن ينطقا بكلمة. قفز مومين ترول وأسلم جسمه لموجة منحسرة كي تحمله نحو الصندوق، وأحكم بابا مومين تثبيت نفسه بصخرة.

وصل مومين ترول إلى الصّندوق. اكتشف أنه وازنٌ وله مقبض مصنوع من الحبال. شعر بالحبل حول خصره يتوتّر وهو يخوض الماء ضدّ اتجاه الرّيح عائدًا إلى اليابسة. بدا له أنّه يلعب أخطر لعبة مثيرة على الإطلاق، والأهمّ من ذلك أنّه كان يلعبها مع أبيه.

سحبا الصندوق إلى اليابسة. اكتشفا أنه سليم. واكتشفا أيضًا أنّه صندوق مشروب منعش من إحدى المدن الأجنبيّة. عرفا هذا من التّصاميم الغريبة المخطوطة عليه باللونين الأحمر والأزرق.

حوّل بابا مومين عينيه نحو البحر، نصف مذهول نصف ممتنّ. كانت الأمواج مصطبغة بخضرة داكنة وشمس المساء تسدل أشعتها على قمّمها.

بعد أن حصّن صيّاد السّمك نفسه بجرعة من المشروب المنعش، ساعداه على العبور إلى الجزيرة. كانت ماما مومين واقفة هناك تنتظرهم وهي تحمل ثياب حارس المنارة القديمة. وجدت تلك الثياب في دُرج المنضدة السّفليّ.

– «لا يُعجبني هذا البنطلون،» مأمأ صيّاد السّمك وأسنانه تصطك. «إنه قبيح.»

– «اِذهب وتوارى خلف إحدى تلك الصّخور والبِسه،» أمرته ماما مومين بصوت حازم. «لا يهمّ أن تراه قبيحًا أو لا تفعل، هو سميك، إضافة إلى أنّه كان يومًا يخصّ حارس منارة محترم جدًّا، وليس هناك أيّ عيب فيه، ولا في صاحبه أيضًا، على الرّغم من أنّني أظنّه من النوع المُغرق في السّوداوية.»

حطّت الملابس على ذراع صيّاد السّمك، وجعلته يتوارى خلف إحدى الصّخور.

– «عثرنا على صندوق مشروب،» أخبرها مومين ترول.

– «رائع!» هتفت. «في هذه الحالة علينا أن نذهب في نزهة!»

ضحك بابا مومين. «أنتِ ونزهاتك،» قال.

بعد فترة ظهر صيّاد السّمك ثانيّة مرتديًا سترة من القطيفة وبنطلونًا قديمًا رثًّا.

– «ياه، كأن هذه الثياب صُنعت خصيصًا لك،» هتفت ماما مومين. «أرى أن علينا الآن دخول البيت وتناول فنجان من القهوة.»

لاحظ بابا مومين أنّها قالت البيت ولم تقل المنارة. وهذه هي المرّة الأولى الّتي تفعل فيها ذلك.

– «أوه، لا!» صاح صيّاد السّمك. «ليس هناك!» عاين بنطلونه بفزع وأطلق ساقيه للرّيح بأسرع ما يمكنه. راقبوه يختفي في الأجمة.

– «سيكون عليكَ أن تأخذ له بعض القهوة في ترمس،» قالت ماما مومين لمومين ترول. «أرفعتم الصندوق إلى مكان عالٍ ليبقى في مأمن؟»

– «لا تقلقي،» أجاب بابا مومين. «إنّه هديّةٌ من البحر، ولا أحد يسترجع هديّته ولا حتّى البحر.»

تناولوا الشّاي في وقت أبكر من المعتاد في ذلك المساء.

بعد ذلك أخرجوا لعبة الصّور المقطعة، وجلبت ماما مومين علبة حلوى التوفي عن رفّ الموقد.

– «إنّه يوم مميّز جدًّا، ولذا يمكن أن ينال كلّ واحد منكم خمس قطع،» بادرت تقول. «أتساءل إن كان صيّاد السّمك يحبّ التوفي!»

– «أتدرين،» قال بابا مومين. «أنا في الواقع لم أُسرّ قطّ بذلك التوفي الّذي كنت تتركينه لي على الصّخرة.»

– «ولماذا؟» سألته ماما مومين متفاجئة. «أنت تحبّ التوفي كثيراً، أليس كذلك؟»

– «هراء!» أجاب بابا مومين وهو يطلق ضحكة مُحرجة. «لعلّ هذا كان لأني لم أتوصّل إلى أيّ نتيجة في تحرّياتي. لا أدري.»

– «شعرتَ أنّكَ أحمق غبي، هذا كلّ شيء،» صاغت ماي الصَّغيرة الفكرة له. «والآن أيمكن أن أحسب قطعتَي توفي كأنهما قطعة واحدة إذا كانتا ملتصقتين معًا؟ أيعني هذا أنّك ستكفّ عن الاهتمام بالبحر؟»

– «بل على العكس تمامًا،» هتف بابا مومين. «أأكفّ عن الاهتمام بكِ لمجرّد أنّك تتصرّفين مثل حمقاء غبية؟»

استغرقوا كلّهم في الضحك.

– «كما ترون،» قال بابا مومين وهو يميل إلى الأمام، «مزاج البحر رائق أحيانًا، وأحيانًا سيّئ، ولا أحد في وسعه أن يفهم السّبب مهما حاول. فنحن لا نرى إلّا سطح الماء فقط. من ناحية أخرى طالما أننا نحبّ البحر

فلا شيء عدا ذلك يهمّ. يتعلّم المرء أن يرضى بالحلو والمرّ...»

– «أوه، أأفهم منك أنّك أصبحت تحبّ البحر الآن؟» سأله مومين

ترول باستحياء.

– «أحببته دائمًا،» أجاب بابا مومين بنبرة استياء. «كلّنا نحبّه. ألم نأت إلى هنا من أجل هذا السّبب؟» تابع وهو ينظر إلى ماما مومين.

– «نعم، أفترض هذا،» قالت. «انظروا، وجدت قطعة تناسب ذلك الفراغ المحيّر.»

انحنوا جميعًا يتفحّصون لعبة الصور المقطعة بإعجاب.

– «إنّه طير رماديّ ضخم!» هتفت ماي الصَّغيرة. «وهناك ذيل طير آخر، طير أبيض. وهما يخفقان بجناحيهما كما لو أن أحدًا أشعل عود ثقاب تحتهما!»

وسرعان ما اكتشفوا أربعة طيور، بعد أن خمّنوا ما الصّورة الّتي يفترض أن تسفر عنها اللّوحة. ولما بدأ الظّلام يخيّم أضاءت ماما مومين مصباح الأعاصير.

– «أتنوين النّوم في الخارج اللّيلة؟» سألت ماي الصَّغيرة.

– «ليس في حياتكِ،» أجابت ماي الصَّغيرة. «مخابئنا قُلبت رأسًا على عقب.»

– «أُفكّر في بناء بيت صغير لي،» أعلن مومين ترول. «ليس الآن بل قريبًا، في وقت ما. وعندما يكتمل تستطيعون أن تأتوا للزيارة.»

هزّت ماما مومين رأسها. كانت تُعدّل لهب المصباح. «ما حال الرّيح الآن؟ أيمكن أن تلقي نظرة يا عزيزي؟» قالت لبابا مومين.

ذهب إلى النّافذة الشّماليّة وفتحها. بعد فترة قال: «لا أستطيع أن أرى إن كانت الغابة تتحرّك أم لا. الرّيح عاتية. من المرجّح أن قوتها تبلغ ثمانية.»

أغلق النّافذة ورجع إلى الطّاولة.

– «لاحقًا اللّيلة ستكون الأشجار في حالة حركة دائِبة،» قالت ماي

الصَّغيرة وعيناها تلمعان. «تئن وتزمجر وتتلمّس طريقها صعودًا أعلى فأعلى مرتقيّة الصّخرة... هكذا!»

– «أتظنّين أنّها قد تحاول اقتحام المنارة؟» هتف مومين ترول.

– «طبعًا،» أجابت ماي الصَّغيرة وهي تخفض صوتها. «ألا تسمع الآن الصّخور تخبط الباب في الأسفل؟ إنّها تتدحرج إلى هنا من جميع الاتجاهات وتحتشد حول الباب. والأشجار تطوّق المنارة وتزداد اقترابًا أكثر فأكثر. وبعدئذ تبدأ جذورها في تسلّق الجدران إلى أن تصبح خارج هذه النّوافذ تمامًا، محوّلة المكان هنا إلى ظلام.

– «لا، كفى!» صاح مومين ترول وهو يخفي أنفه بكفّيه.

– «حقًّا يا صغيرتي،» قالت ماما مومين. «كُفّي عن هذه التخيّلات رجاءً!»

– «حافِظوا على هدوئكم إذا سمحتم!» هدّأهم بابا مومين. «لا داعي للقلق. لا حاجة لإثارة البلبلة لمجرّد أن بعض الشّجيرات البائسة خائفة من البحر. هذا، كما تعلمون، أسوأ بكثير بالنّسبة إلى الأشجار ممّا هو بالنسبة إلينا. وسأحاول أن أدرس هذه المسألة.»

بدأت الدّنيا تغرق وتغرق في الظّلام، إلّا أنّ أحدًا لم يخطر له أن يأوي إلى السّرير. اكتشفوا ثلاثة طيور أخرى، أما بابا مومين فاستغرق في رسم خزانة مطبخ.

أشاعت العاصفة المحتدمة في الخارج الشّعور بأن الغرفة آمنة جدًّا. ما بين حين وآخر قال أحدهم شيئًا عن صيّاد السّمك، متسائلًا إن كان قد عثر على التّرمس، وشرب القهوة.

بدأ القلق يجتاح مومين ترول. فقد أدرك أن الوقت قد حان ليذهب

ويرى الغروك. وعدها بأنّها يمكن أن ترقص اللّيلة. تكوّم في كرسيه ولزم الصّمت.

تأمّلته ماي الصَّغيرة بعينين مشعّتين كالخرز الأسود. ثمّ قالت فجأة: «تركتَ الحبل في الأسفل عند الشّاطئ.»

– «الحبل؟» قال مومين ترول. «لكني جلب...»

عاجلته ماي الصَّغيرة برفسة عنيفة من تحت الطّاولة. فنهض وقال بحياء جمّ: «آه صحيح، نعم نسيته. يجب أن أذهب وأحضره. إذا ارتفع الماء قد يجرفه.»

– «توخَّ الحذر،» قالت ماما مومين. «ثمّة جذور كثيرة في كلّ مكان، وليس لدينا إلّا زجاجة مصباح واحدة. وبينما أنت في الخارج حاول أن تبحث عن كرّاس بابا.»

قبل أن يُغلق مومين ترول الباب وراءه ألقى نظرة على ماي الصَّغيرة. إلّا أنّها كانت مشغولة بأحجية الصّور المقطّعة، تصفّر بلا مبالاة من بين أسنانها.

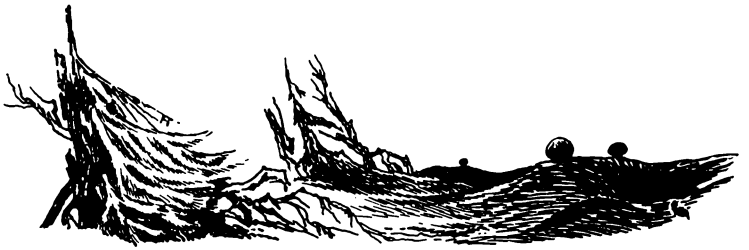

حارس المنارة

تقلقلت الجزيرة واهتاجت طوال اللّيل. وجُرف رأس الجزيرة الخاصّ بصيّاد السّمك نحو البحر قليلًا، بطريقة غير ملحوظة.

رجفة تلو رجفة هزّت الجزيرة بأكملها كما لو أنّ قشعريرة تسري في عمودها الفقري، وبدت البحيرة السّوداء كما لو أنّها تتغلغل عميقًا عميقًا في حنايا الصّخور. كانت تُشفط وتُلفظ وتُقتحم بأمواج جديدة من البحر، مع ذلك لم يظهر مطلقًا أن البحيرة قد أُترعت. عينها الهائلة السّوداء الشّبيهة بالمرآة غاصت وغاصت وطُوِّقت حِفافها بزنّار من الأعشاب البحرية.

على الشّاطئ من جهة مهبّ الرّيح، تخبطت فئران الحقول الصّغيرة وهي تجري جيئة وذهابًا عند طرف الماء، والرّمل ينزلق من تحت أقدامها. والصّخور انقلبت بتثاقل كاشفة عن جذور القرنفل البحري الشّاحبة.

مع بزوغ الفجر نامت الجزيرة. وصلت الأشجار في تحركها إلى صخرة المنارة، وحيث كانت الصّخور العظيمة مستقرّة ظهرت مكانها حفر عميقة، أما الصّخور فتبعثرت بين الخلنج بانتظار قدوم ليلة أخرى لتكمل تدحرجها نحو المنارة. في هذه الأثناء واصلت عاصفة الخريف المهيبة هجومها.

في السّاعة السّابعة صباحًا خرج بابا مومين ليتفقّد المركب. كان الماء

قد ارتفع مجدّدًا، وكانت الرّيح الجنوبيّة الغربيّة تنفخ في البحر جاعلة مستوى سطحه يعلو ويعلو. أبصرَ صيّادَ السّمك متقوقعًا في قاع 'المغامرة' يلهو بحفنة من الحصى. طرفت عيناه تحت أهدابهما إلّا أنّه لم يقل شيئًا. كانت 'المغامرة' جاثيّة هناك بلا مرساة وقد برّحتها الأمواج ضربًا.

– «ألا ترى أنّ هذا المركب يكاد ينجرف إلى البحر؟» قال بابا مومين. «وأنّه قد خُبط بحجر. انظر إليه فقط! هيّا الآن! اخرج وساعدني على جذبه!»

لوى صيّاد السّمك ساقيه فوق حافة المركب، وتشقلب على الشّاطئ. ثمّ ما لبث أن قال: «لم أسبّب أيّ أذى...» كانت عيناه وديعتان ولطيفتان كالمعتاد.

– «ولم تفعل شيئًا خَيِّرًا أيضًا،» ردّ بابا مومين وبجهد هائل أخذ يجذب المركب وحده.

جلس على الرّمل يزفر ويشهق. جلس في الحقيقة على ما تبقّى من الرّمل. بدا الحال كما لو أن البحر الغاضب يشعر بالغيرة من الرّمل، ولذلك عمد إلى الاستيلاء على المزيد والمزيد منه كلّ ليلة. شزر بابا مومين صيّاد السّمك، وقال: «أعثرتَ على القهوة؟»

اكتفى صيّاد السّمك بالابتسام.

– «فيك شيء غير صائب لا أستطيع وضع يدي عليه،» قال بابا مومين محدّثًا نفسه. «أنت لستَ مخلوقًا بشريًّا. أنت أقرب إلى نبتة أو طيف، تمامًا كما لو أنّك لم تولد مطلقًا.»

– «بلى وُلدت،» قال صيّاد السّمك فورًا. «غدًا عيد ميلادي.»

دُهش بابا مومين كثيرًا إلى درجة أنّه استغرق في الضحك.

– «أراكَ تتذكّر هذا جيّدًا،» قال. «لديك يوم مَولد إذًا؟ يا للغرابة! وكم

عمرك إذا سمحت لي أن أسأل؟»

لكن صيّاد السّمك لم يرد، أدار ظهره ومضى يمشي بتؤدة على الشّاطئ.

عاد بابا مومين إلى المنارة والقلق العظيم على جزيرته يعتلج في صدره. كانت الأرض حيث قامت الغابة سابقًا مهجورة ومُفعمة بالأخاديد. والخلنج تخلّلته شقوق غائرة خلّفتها الأشجار الّتي سعت إلى صخرة المنارة. وهناك كانت تقف، مجرّد شِلَل خيوط خوفٍ متشابكة.

– «أتساءل عما يجب على المرء عملُه لتهدئة جزيرة،» حدّث بابا مومين نفسه. «لن ينفع أن تتشاجر الجزيرة مع البحر. ينبغي أن تنشأ بينهما صداقة...»

وقف بابا مومين بلا حراك. كان هناك شيء غير سويّ يطرأ على صخرة المنارة. كانت تنكمش ولكن على نحو لا يكاد يُلحظ، كما قد ينكمش الجلد ويتجعّد. وعند الخلنج تدحرجت صخرتان رماديّتان. وبدت الجزيرة كما لو أنّها تهمّ بالاستيقاظ.

أرهف بابا مومين السّمع. سرت قشعريرة في عموده الفقري. كان متأكّدًا من أنّه يسمع قرعًا مكتومًا، وجميع أعضاء جسمه شعرت به بينما أخذ القرع يلحف في الاقتراب. تهيّأ له أنّه يأتي من أعمق أعماق الأرض.

انبطح بابا مومين أرضًا وألصق أذنه بالتّراب. تناهت إليه دقّات قلب

الجزيرة. كانت أعمق من صخب الأمواج الهادرة. انبعثت عميقة عميقة من باطن الأرض، ضربات قلب خافتة وكليلة.

– «الجزيرة حيّة،» فكّر بابا مومين. «جزيرتي تنبض بالحياة مثل الأشجار والبحر. كلّ شيء هنا حيّ.»

قام عن الأرض ببطء.

أبصر شجرة عرعر تزحف خفية بين الخلنج كأنّها سجّادة خضراء متموّجة. تنحّى بابا مومين بعيدًا عن طريقها، ووقف كالصنم متسمّرًا في مكانه. كان في وسعه أن يرى الجزيرة تتحرّك؛ جسمٌ حيٌّ رابضٌ في قاع البحر وقد أعجزه الخوف. «الخوف شيء رهيب،» فكّر بابا مومين. «يمكن أن يهجم بغتة ويستحوذ على كلّ شيء، حينها مَن يحمي جميع المخلوقات الصَّغيرة الّتي تعترض طريقه؟» شرع بابا مومين يجري.

وصل إلى البيت، وعلّق قبعته على مسمارها.

– «ما الحكاية؟» سألته ماما مومين. «أ... المركب...؟»

– «لقد جررته إلى مكان أعلى،» أجاب بابا مومين. وإذ رأى عيون العائلة مسمّرة عليه، أضاف: «غدًا عيد ميلاد صيّاد السّمك.»

– «لا؟ حقًّا؟» هتفت ماما مومين. «ألهذا السّبب تبدو في منتهى الغرابة؟ حسنًا علينا أن نقيم له حفلة. تخيّلوا! يا للعجب، حتّى صيّاد السّمك لديه عيد ميلاد!»

– «ليس هناك ما هو أسهل من التّفكير في هديّة له،» قالت ماي الصَّغيرة. «رزم صغيرة فيها طحالب، وكومة من الأُشْنَة، أو ربّما أيّ لطخة رطبة!»

– «أنتِ الآن غير لطيفة أبدًا،» نهرتها ماما مومين.

– «لكنّ أنا لست لطيفة،» صاحت ماي الصَّغيرة.

وقف بابا مومين عند النّافذة يتأمّل الجزيرة. كان في وسعه أن يسمع العائلة تناقش سؤالين مهمّين جدًّا: كيف يمكن إقناع صيّاد السّمك ليأتي إلى المنارة، وكيف يمكن جلب صندوق المشروب من رأس الجزيرة الّذي داهمته المياه. إلّا أنّه عجز عن التّفكير في أيّ شيء ما عدا ضربات قلب الجزيرة الخجولة عميقًا في باطن الأرض.

ارتأى أنّه يتعيّن عليه التحدّث إلى البحر بهذا الخصوص.

ذهب بابا مومين وجلس على نتوء صخرة حارس المنارة المطلّ على الهاوية، وبدا هناك كما لو أنّه التمثال الرّمزي الّذي يتصدّر قوس سفينته الحربية؛ أيّ الجزيرة.

هذه هي العاصفة الحقيقيّة الّتي ما انفكّ ينتظر هبوبها، بيد أنّها ليست كما سبق أن تخيّلها. لا لآلئ من الرّغوة الجميلة تعلو الأمواج، لا، ولا عاصفة بقوة ثمانية. بدلًا من ذلك نُفِثت الرّغوة خارج البحر مثل دخان كالح محرور، والماء مخطّط ومتغضّن كوجهٍ مكفهرّ غضبًا.

فجأة، على نحوٍ ما يمكن أن يحدُث مع أيّ 'ترول'، اكتشف بابا مومين أنّه من السّهل كثيراً فتح حوار مع البحر، حوار صامت طبعًا.

– «أنت أنضج من أن تتباهى بنفسك هكذا. هذا لا يليق بك. أَمِن المهمّ كثيراً بالنسبة إليك إفزاع جزيرة صغيرة مسكينة بهذه الطّريقة؟ إنّها تمرّ كما ترى بوقت عصيب كافٍ. ينبغي عليك أن تسرّ لأنّها هنا. ما المرح الّذي قد تحصل عليه إنْ لم تتوافر لك صخورها لتغسل عليها أمواجك الهادرة؟ فكّر جيّدًا الآن! ها هنا حزمة شجيرات تنمو كلّها مُطأطئة لك، وحفنة تربة هزيلة تبذل جلّ جهدكَ لتجرفها، وبعض الصّخور الوعرة الّتي

تعمل فيها نحتًا حتّى لا يكاد يبقى شيء منها. وبعد ذلك تتجاسر بوقاحة على ترويعها!»

مال بابا مومين إلى الأمام وحدّق بصرامة في البحر المستشيط غضبًا. «هناك شيء لا يبدو عليك أنّك تستوعبه،» قال. «الاعتناء بهذه الجزيرة مهمّتك. يجب أن تحميها وتريحها بدلًا من هذا التصرّف الّذي تنتهجه. أتفهم؟» أصغى بابا مومين جيّدًا لكنْ لم يصدر عن البحر أيّ جواب.

– «حاولت ذلك معنا أيضًا،» قال. «ضايقتنا بقدر ما استطعت، لكنّك لم تنجح. إنّنا بطريقة ما نتدبّر أمورنا رغمًا عنك. تعلّمتُ أنْ أفهمك، وهذا ما لا يعجبك، أليس كذلك؟ نحن لم نستسلم. أتَرانا فعلنا؟ وبالمناسبة،» تابع بابا مومين، «لأكون عادلًا معك، كان مَنحُنا صندوق الشراب ذاك تصرفًا جدّ كريم منك. وأنا أدرك سبب قيامك بذلك. أنت تقرّ بهزيمتك عندما تُهزم، ألّا تفعل؟ إنّما أنْ تستعيد ما هو ملكك بجرفه من الجزيرة فذاك تصرّف حقير. ولا أقول كلّ هذا الآن إلّا لأنّي، حسنًا، لأنّي أحبّك.»

لبث بابا مومين حيث هو صامتًا. شعر بالإعياء يدبّ فيه، فاتكأ على الصّخرة وانتظر. لم يقل البحر شيئًا. لكن سرعان ما ظهر فيه لوح خشبي مصقول كان ينجرف نحو الشّاطئ والأمواج تذبذبه إلى الأعلى والأسفل.

راقبه بابا مومين بحماسة.

ظهر لوح آخر، ثمّ آخر ثمّ آخر، كما لو أنّ أحدًا ألقى من سفينةٍ ما حمولة كاملة من الألواح في البحر.

تسلّق المنحدر وبدأ يجري ضاحكًا بينه وبين نفسه. أدرك أن البحر كان يقول له أنا آسف. أرادهم أن يبقوا في الجزيرة. أراد أن يساعدهم ليواصلوا عمران الجزيرة. أرادهم أن يستقرّوا ويستمتعوا على الرّغم من أنّهم مطوّقون بأفق ساحق، أبدًا لا يتغيّر، يطبقُ عليهم من جميع النواحي.

– «تعالُوا كلّكم!» صاح بصوت عالٍ من أسفل الدّرج الحلزوني. «خشب طافٍ! الكثير منه! انزلوا وساعدوني على إنقاذه!»

هرعت العائلة تهرول خارجة على عجل.

جُرِفت الألواح الخشبيّة نحو جانب الجزيرة المواجه للرّيح، يحملها العباب الجيّاش. ولن تلبث أن تُجرف بعيدًا عن الجزيرة في غضون وقت لا يُذكَر.

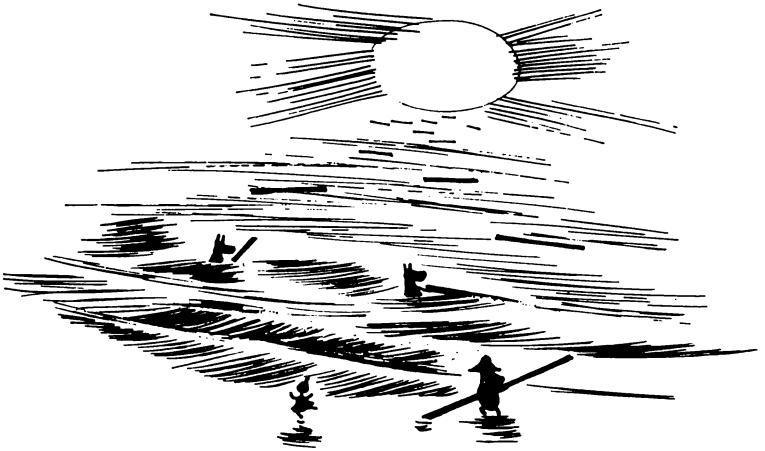

أدركوا أنّه يتعيّن عليهم التصرّف بسرعة. ألقوا أنفسهم في البحر غير آبهين بالماء القارس. ولعلّ عروقهم كان يجري فيها شيء من دماء القراصنة، وحفّزهم على الغطس هكذا. كما لو أنّ أرواح بعض الأسلاف السّاعين وراء المكاسب غير المشروعة خرجت واستحوذت عليهم. بدا أنّهم يطرحون عن أنفسهم كآبة الجزيرة ووحشة البحر بينما راحوا يتخبّطون في الماء وخارجه، يحملون الألواح ويكدّسونها ويتبادلون الصّياح في غمار صخب الأمواج. السّماء فوقهم بقيت محتفظة بنورها وصفائها.

إنّه لعمل مثير أن يتحايل المرء على لوح خشبي بسماكة بوصتين ليدفعه إلى الشّاطئ. فالألواح تكون مُثقلةً بالماء وصعبة الانقياد، ويمكن بسهولة بالغة أن تفلت ثمّ تصدم المرء ببأسٍ وعلِ حربٍ معدنيّ عندما تحملها الموجة التالية. في هذه الحالة يصبح الوضع في غاية الخطورة.

ثم حالما تستقرّ على الشّاطئ بعيدًا عن متناول البحر تغدو أشبه بكنزٍ دفينٍ مُكتَشف. تستقرّ عند قدمي المرء مصقولة وبلون القطران الدافئ

المعهود، وفي وسعه أن يستشفّ علامة مالكها عند أحد جوانبها. وبرضا الفاتح الفخور يبدأ في تخيّل مسامير بطول ثلاث بوصات وصوت المطرقة وهي تدقّها.

– «لا ريب في أن درجة الرّياح الآن تسعة على أقلّ تقدير!» صاح بابا مومين. ثمّ أخذ نفَسًا عميقًا ونظر إلى البحر. «جيّد!» قال. «تعادلنا الآن!»

حالما كُوّمت جميع الألواح الخشبيّة على الشّاطئ عادت العائلة إلى البيت لتُعدّ حساء السّمك. مثل قوّة ضاريّة استمرّت العاصفة في هياجها، وماي الصَّغيرة بالكاد استطاعت البقاء ثابتة على قدميها.

توقّفت ماما مومين لما مرّت بحديقتها، الحديقة الّتي أخفت معالمها أكوام من الأغصان. قرفصت وأمعنت النظر تحت تلك الأغصان.

– «أبدأت شجرة التفّاح تطلع؟» سألها مومين ترول.

– «أنا لست حمقاء إلى هذه الدّرجة!» أجابت ماما مومين ضاحكة. «خطر لي فقط أنّها تحتاج إلى بعض التشجيع، هذا كلّ شيء.»

عاينَت أشجار الورد الذابلة وفكّرت: «كم كنت سخيفة لمّا غرستها هنا! لكنْ ثمة أعداد وافرة منها، الجزيرة عامرة بها، وعلى أيّ حال، قد تكون الأزهار البرّيّة أجمل كثيراً من أزهار الحدائق.»

جرّ بابا مومين بعض الألواح الخشبيّة وصعد بها الدّرج، ثمّ أخرج صندوق العدّة. «أعرف أنّ الخشب ينكمش عندما يجفّ،» قال. «بَيْد أنّني لا أطيق الانتظار. أتَراك تمانعين إذا كانت هناك بعض الشّقوق في رفوف المطبخ؟»

– «لا، أبدًا،» أجابت ماما مومين. «امضِ في عملك. استخدم مطرقتك ما دمت تشعر بالرّغبة في ذلك!»

في ذلك اليوم لم ترسم ماما مومين شيئًا. بدلًا من ذلك عكفت على صنع بعض الأعواد الصَّغيرة لتدعم بها الأزهار، ورتّبت المنضدة. بل حتّى رتّبت دُرج حارس المنارة. كان مومين ترول جالسًا إلى الطّاولة يرسم. عرف بالضّبط كيف سيبدو بيته الصَّغير. لم يكن قد تبقّى الكثير من قلم الكوبيا، لكنّه بطريقة ما تيقّن أن البحر سيجرف إليهم واحدًا عند الحاجة إليه.

قُبيل المساء شعروا جميعًا ببعض الإعياء ولم يتبادلوا الكثير من الكلام. كانّ الجوّ في الغرفة مسالمًا. بلغهم صوت البحر يرغي حول الجزيرة ويزبد بإيقاع متناغم، والسّماء كانت ناصعة البياض كما لو أنّها غُسلت مؤخّرًا. داهم النّوم ماي الصَّغيرة وهي على رفّ الموقد.

ألقت عليهم ماما مومين نظرة سريعة وتوجّهت نحو جداريتها. ضغطت كفّيها على جذع شجرة التفّاح. لم يحدث شيء. كان مجرّد جدار، مجرّد جدار عادي من الجصّ.

– «أردت أن أتأكّد فقط،» فكّرت ماما مومين. «نعم كنتُ مُحقّة. طبعًا لا يمكن أنْ أدخل هذه الحديقة بعد الآن. ما عدت أكابد الشّوق إلى بيتنا السّابق.»

ذهب مومين ترول في الغسق ليملأ مصباح الأعاصير بالبارافين. كانت صفيحة البارافين تحت الدّرج إلى جانب كومة من الشّباك الممزقة. وضع تنكة تحت فتحتها في الأعلى ونزع السّدادة. عندما رفع الصفيحة قعقعت وأصدرت صدى غريبًا. حملها فوق التّنكة وانتظر. ثمّ راح بعدئذ يهزّها.

أنزلها ووقف يحملق في الأرضيّة للحظة. ما عاد هناك أيّ بارافين. استُهلك كلُّه. كان المصباح يشتعل يوميًا في الغرفة في الأعلى، وفي كلّ ليلة شعّ أيضًا من أجل الغروك. هذا بمعزل عن أنّ ماي الصَّغيرة سكبت مكاييل

عدة من البارافين على النّمل. ما عليه أنْ يفعل؟ ماذا ستقول الغروك؟ لم يجرؤ على التّفكير بفداحة الخيبة الّتي ستصيبها. جلس على الدّرج وأنفه بين كفّيه.

شعر كما لو أنّه قد خذلها.

مكتبة ياسمين
telegram @ yasmeenbook

– «أأنت واثق من أنّ الصفيحة فارغة؟» سألته ماما مومين وهي تهزّ المصباح هزّة قويّة.

كانوا قد أنهوا شرب الشّاي، وكانت النوافذ قد بدأت تكتسي بالعتمة.

– «فارغة تمامًا،» أجاب مومين ترول بصوت بائس.

– «لا ريب في أنّها تُسرّب،» تدخّل بابا مومين. «ربّما أصبحت صدئة. مستحيل أن نكون قد استهلكنا ذلك البارافين كلّه.»

تنهّدت ماما مومين. «علينا الآن أن نتدبّر أمرنا بوهج نار الموقد،» قالت. «ما عاد عندنا إلّا ثلاث شمعات، وهذه عليّ أن أزيّن بها كعكة عيد ميلاد صيّاد السّمك.» ثمّ لقّمت النّار بمزيد من الحطب وتركت باب

الموقد مفتوحًا.

طقطقت النّار بمرح، وجرّت العائلة الصّناديق قريبًا منها مشكّلة نصف دائرة حولها. بين حين وآخر صفّرت الرّيح في المدخنة، مُصدرةً صوتًا سوداويًّا موحِشًا.

– «تُرى، ماذا يجري في الخارج الآن؟» قالت ماما مومين.

– «أنا أخبركِ،» أجاب بابا مومين. «الجزيرة تتأهّب للنّوم. في وسعي أن أؤكّد لك أنّها ذاهبة إلى السّرير، وسيتزامن وقت نومها مع وقت نومنا.»

ندّت عن ماما مومين ضحكة قصيرة. ثمّ قالت بتفكّر عميق: «أتدري، طوال وقت إقامتنا هنا هكذا، ما فتئ يتملّكني شعور أنّنا في بعثة استكشّافية. كلّ شيء مختلف طوال الوقت، كما لو أنّ جميع أيّام الأسبوع هي يوم الأحد. وقد بدأتُ أتساءل إنْ كان هذا شعورًا جيّدًا في نهاية المطاف.»

انتظر الآخرون سماع بقيّة كلامها.

– «نحن طبعًا لا يمكن أن نستمرّ في بعثتنا الاستكشّافيّة ما حَيينا. ينبغي أن تصل إلى نهايتها في وقت ما. وأنا خائفة كثيراً من أن يباغتني يوم الاثنين بالعودة فجأة، وحينها سأفقد الشّعور بأنّ أيّ شيء من هذا حقيقة...» ثمّ سكتت ورنت إلى بابا مومين بنظرة متشكّكة قليلًا.

– «لكن هذا حقيقي طبعًا،» أجاب بابا مومين مشدوهًا. «والشّعور بأن الأسبوع كلّه يوم أحد شعور جيّد. هو في الواقع ذلك الشّعور الّذي فقدناه سابقًا.»

– «عن أيّ شيء تتحدّث؟» سألت ماي الصّغيرة.

أمّا مومين ترول فمطّط رجليه. هو أيضًا اعتمل فيه شعور ما، وعجز عن التّفكير بشيء آخر غير الغروك. «أعتقد أنّني سأخرج قليلًا،» قال أخيراً.

نظر الآخرون إليه.

– «أريد استنشاق بعض الهواء النقيّ،» قال بنفاد صبر. «ما عدتُ قادرًا على البقاء هنا لأُطبخ أكثر مما طُبخت. أحتاج إلى قليل من الرّياضة.»

– «اِسمع الآن،» بدأ بابا مومين، بَيْد أنّ ماما مومين قاطعته قائلة: «لا بأس، أُخرج ما دمتَ تتوق إلى الخروج.»

– «ماذا دهاه؟» استفسر بابا مومين بعد أن غادر مومين ترول.

– «إنّها معاناة البلوغ،» قالت ماما مومين. «هو أيضًا لا يدري ماذا ألمّ به. لا أراك تدرك مطلقًا أنّه في طور البلوغ. بل أحسبك تعتقد أنّه ما زال صبيًا صغيرًا.»

– «بالطّبع ما زال صغيرًا جدًّا،» قال بابا مومين الّذي أخذته المفاجأة قليلًا.

ضحكت ماما مومين وأجّجت نار الموقد الّتي أشاعت جوًّا ألطف بكثير من ضوء الشّموع.

جثمت الغروك على الشّاطئ تنتظر. أقبل مومين ترول نحوها بدون مصباح الأعاصير. وقف قرب المركب ونظر إليها. لم يكن هناك ما يمكنه القيام به من أجلها.

كان قادرًا على سماع نبضات قلب الجزيرة، وصوت الأحجار والأشجار وهي تنأى ببطء بعيدًا عن البحر. وهذا أيضًا لم يكن هناك ما يمكنه القيام به ليضع له حدًّا.

فجأة شرعت الغروك في الغناء. راحت طيّات تنّورتها ترفرف متناغمة مع تأرجحها إقبالًا وإدبارًا وقدماها تخبطان الرّمل، باذلة جلّ جهدها لتريه

أنّها سُرّت به.

تقدّم مومين ترول والدّهشة تعتريه. لم يكن هناك أيّ شكّ في ذلك، لم يكن هناك شكّ في أن الغروك سعيدة بلقائه. لم تكترث لمصباح الأعاصير. كانت مغتبطة لأنه جاء للقائها.

وقف بلا حراك إلى أنْ أنهت رقصتها. ثمّ راقبها تجرجر قدميها منحدرة على الشّاطئ وتختفي. مضى وتحسّس الرّمل حيث سبق أنْ وقفت. لم يكن صلبًا ولا متجمّدًا، بل بقيَ على حاله. أرهف السّمع، فلم يتناهَ إليه إلّا هدير الأمواج المتكسّرة على الصّخر. بدا الحال كما لو أنّ الجزيرة استسلمت للنّوم فجأة.

عاد إلى البيت ليكتشف أنّ الآخرين قد أووا إلى أسِرّتهم، وليس في الموقد إلّا حفنة جمار متوهّجة. دبّ إلى سريره وتقوقع على نفسه.

– «ماذا قالت؟» سألته ماي الصّغيرة.

– «سُرّت برؤيتي،» همس مومين ترول. «لم تلاحظ أيّ اختلاف.»

في يوم عيد ميلاد صيّاد السّمك كانت السّماء في منتهى الصفاء والعاصفة تهبّ بقوّتها المعهودة.

– «انهضوا!» حثّهم بابا مومين. «كلّ شيء على ما يُرام.»

أخرجت ماما مومين أنفها من تحت الغطاء وقالت: «أعرف.»

– «لا، أنتِ لا تعرفين!» صاح بابا مومين بخُيلاء. «لقد هدأتِ الجزيرة، ما عادت خائفة! عادت الأجمات إلى أماكنها الصّحيحة، وستتبعها الأشجار أيضًا حالما يتسنّى لها. حسنًا، ما قولكُ في هذا؟»

– «أوه، رائع،» هتفت ماما مومين وهي تنهض. «لو لم يحدث هذا

لوجدنا صعوبة كبيرة في إقامة حفلة عيد ميلاد مناسِبة مع كثير من الأشجار تقتحم المكان طوال الوقت. تخيّل فقط التّراب الّذي قد تجلبه معها أيضًا!»

ثمّ صمتت تفكّر لحظة، وأضافت: «أتُراها ستعود إلى مواقعها القديمة أو تنوي اختيار أماكن جديدة. أعلِمني عندما تقرّر وتستقرّ لأذهب وأضع بعض الأعشاب البحريّة حول جذورها.»

– «يا لكِ من مخلوقة مُضجرة!» تذمّرت ماي الصَّغيرة الّتي وقفت تحدّق خارج النّافذة وخيبة الأمل تبدو عليها. «سيعود كلّ شيء إلى عهده السابق. كنتُ واثقة من أنّ الجزيرة ستغرق، أو تطفو بعيدًا، أو تُقلع في الفضاء! لا شيء أبدًا يحدث هنا حقًّا!»

ألقت نظرة مؤنّبة على مومين ترول، فضحك.

– «نعم،» قال. «لا يستطيع جميع النّاس أن يعيدوا غابة كاملة إلى حيث تنتمي!»

– «أنت مصيب في هذا!» هتف بابا مومين والبهجة تغمره. «لا يستطيع أيّ شخص أن يفعل ذلك، ومن غير أن يتفاخَر لاحِقًا أيضًا!»

– «يتحتّم عليّ القول إنّ بعضكم هنا في مزاج رائق جدًّا هذا الصّباح،» علّقت ماي الصَّغيرة. «ولعلّه يجدر بكم بدلًا من ذلك الاهتمام بصناديقكم المحمّلة بالمشروب!»

هرع بابا مومين ومومين ترول إلى النّافذة. رأيَا أنّ الصندوق ما زال في مكانه على رأس الجزيرة، بَيْد أنّ الرّأس كان قد تزحزح قليلًا صوب البحر.

– «يُمكن أنْ أتدبّر أمري بلا إفطار،» قال بابا مومين وهو يعتمر قبعته. «ينبغي أن أنزل وأرى مستوى الارتفاع الّذي بلغه الماء.»

– «ابحث عن صيّاد السّمك بينما أنت هناك،» قالت ماما مومين.

«يُستحسن أن ندعوه في وقت مناسب.»

– «نعم، افعل!» صاحت ماي الصَّغيرة. «تخيّلوا فقط أن يكون لديه ارتباط آخر هذا المساء!»

لكن صيّاد السّمك كان قد اختفى. وثمّة احتمال في أن يكون قد قبع متواريًا بإحدى الأجمات وقد انطوى على نفسه هناك ولسان حاله يقول: «اليوم عيد ميلادي.»

خُبِزَ قالب الكيك واستقرّ على الطّاولة ينتظر مع الشّموع. علّقت العائلة في الغرفة أغصانًا من نبات الغبيراء والعرعر، وقطفت ماي الصَّغيرة باقة من الورد البريّ.

– «ما سبب هدوئكَ البالغ هذا؟» سألت ماي الصَّغيرة مومين ترول.

– «كنت أفكّر،» أجاب وهو منهمك بتطويق قالب العيد بصفّ من الحصى.

– «ماذا فعلت لتجعلها تشعر بالدفء؟» سألته ماي الصَّغيرة. «خرجتُ في اللّيل ولم يكن الرّمل متجمّدًا البتة.»

– «ماذا تعنين؟» قال مومين ترول. ثمّ أردف وهو يحمرّ خجلًا: «لا ينبغي أن تفشي السّرّ.»

– «أيّ نوع من الواشين تظنّني؟» استفسرت ماي الصَّغيرة مستنكرةً. «لا تهمّني أسرار النّاس قدر حبّة تين. وأنا بالتّأكيد لا أنشرها هنا وهناك. هي على أيّ حال غالبًا ما تظهر إلى العلن عاجلًا أو آجلًا. صدّقني في هذه الجزيرة أسرار لا تُحصى، وأنا أعرفها كلّها!» أنهت حديثها بضحكة ساخرة واندفعت خارجة.

جاء بابا مومين يلهث مرتقيًا الدّرج ومعه حمولة من الخشب. «ليس لدى ماما فكرة عن طريقة استعمال الفأس،» قال. «إلا أنّها ماهرة في النشر. عليّ أن أهيّئ مساحة مناسبة حول كومة الخشب لنعمل معًا كلّنا فيها.»

ألقى الخشب على الأرضيّة قرب الموقد وسأل: «ما قولكم إن أهديتُ صيّاد السّمك قبّعتي الرّسميّة القديمة؟ أنا لن أرغب في استعمالها مجدّدًا.»

– «نعم، افعل. لديك تلك الّتي تركها حارس المنارة هنا،» أجاب مومين ترول.

أومأ بابا مومين برأسه وصعد السّلم بحثًا عن ورق ليلفّ الهدية. وبينما هو يرفع غطاء صندوق وقعت عيناه على مقطع شعري آخر على الجدار. لم يكن قد رأى تلك الكتابة سابقًا. فاستكان يقرأ الخربشة اليدويّة الدقيقة والبائسة الّتي خطّها حارس المنارة:

إنه الثالث من تشرين الأول،
ولا أحد يعرف،
قريبًا يولّي يوم عيد ميلادي؛
والرّيح الجنوبيّة الغربيّة تعصف.

– «اليوم هو الثّالث من تشرين الأول،» فكّر بابا مومين والدّهشة تتملّكه. «اليوم هو عيد ميلاد حارس المنارة أيضًا. يا لها من صُدفة!»

عثر على ورق وارتقى السّلّم نزولًا. كان الآخرون يناقشون كيف يمكنهم جعل صيّاد السّمك يدخل المنارة.

– «لن يأتي أبدًا،» قالت ماي الصَّغيرة. «هو يخاف من المنارة. ودائمًا يقوم بانعطافات مدروسة ليتجنّب المرور من أمامها.»

– «أما مِن شيء يغريه؟» تساءل مومين ترول. «شيء جميل ربّما. كأن نغنّي له مثلًا؟»

– «أوه، اِصمت!» قالت ماي الصَّغيرة. «هذا سيفزعه.»

نهضت ماما مومين ومضت بحزم نحو الباب. «هناك طريقة واحدة فقط،» قالت. «سأذهب وأدعو ذلك المخلوق البائس بنفسي حسب الأصول القديمة المتّبعة. ويمكن أن تشدّه ماي الصَّغيرة وتخرجه من الأجمة.»

عندما أصبحوا هناك كان صيّاد السّمك جالسًا عند طرف الأجمة وثمة غُصين من الزعتر المزهر يزيّن شعره. وقف وحدّق فيهم مترقّبًا، بانتظار أن يقولوا شيئًا ما.

– «عسى أن يعود عليك هذا اليوم بالفرح دائمًا!» قالت ماما مومين وهي تنحني له احترامًا.

حنى صيّاد السّمك رأسه بوقار عظيم. «أنتِ أول شخص على الإطلاق يتذكّر عيد ميلادي،» قال. «وهذا يشرّفني كثيراً.»

– «سنقيم حفلة متواضعة لك في البيت،» تابعت ماما مومين.

– «في المنارة؟» استفسر صيّاد السّمك وهو يغضّن وجهه. «لن أدخل إلى هناك!»

– «اسمعني الآن،» قالت ماما مومين بهدوء. «لن تحتاج إلى النّظر إلى المنارة أبدًا. اغمض عينيك واعطني يدك. ماي، اركضي وضعي القهوة على النّار وأضيئي الشّموع، رجاءً يا عزيزتي.»

أغلق صيّاد السّمك عينيه ومدّ يده. أمسكتها ماما مومين وقادته بحذر بالغ عبر الخلنج ثمّ صعودًا نحو صخرة المنارة.

– «عليكَ الآن أن تخطو خطوة واسعة،» قالت.

– «نعم، أعرف،» أجاب صيّاد السّمك.

حالما سمع صرير الباب تسمّر في أرضه ورفض الاستمرار.

– «هناك كعكة، وقد زيّنا الغرفة،» قالت ماما مومين. «وهناك هدايا أيضًا.»

نجحت في جعله يتجاوز العتبة ثمّ صعدا الدّرج. أنّت الرّيح حول الجدران في الخارج، وبين حين وآخر قعقعت إحدى النوافذ. شعرت ماما مومين بيد صيّاد السّمك ترتعش. «لا شيء يبعث على الخوف،» قالت. «ليس الأمر سيّئًا كما يبدو. ولن نلبث أن نصبح في الأعلى.»

فتحت باب الغرفة وقالت: «يمكنك أن تفتح عينيك الآن!»

نظر صيّاد السّمك حوله بحذر. كانت الشّموع مُضاءة رغم أنّ الغسق لم يحلّ بعد. بدت الطّاولة لطيفة المنظر، عليها مفرش أبيض نظيف، وأغصان صغيرة خضراء تزيّن أطرافها. وقفت العائلة في صفّ تنتظره.

نظر صيّاد السّمك إلى الكعكة.

– «ما عدنا نملك إلّا ثلاث شمعات،» قالت ماما مومين معتذرة. «كم عمرك لو سمحت لي بالسّؤال؟»

– «لا أتذكّر،» تمتم صيّاد السّمك وعيناه تنتقلان بقلق من نافذة إلى أخرى ثمّ نحو الباب القلاّب.

– «عسى أن يعود عليك هذا اليوم بالفرح دائمًا،» قال بابا مومين. «اِجلس رجاءً!»

إلا أن صيّاد السّمك بقي واقفًا، ثمّ همّ بالتوجّه إلى الباب.

فجأةً، صاحت ماي الصَّغيرة بأعلى صوتها وزجرته بغضب: «اِجلس وأَحسِن التصرّف!»

ذُهل صيّاد السّمك إلى درجة أنّه عاد إلى الطّاولة وجلس. وقبل أن يعرف ما كان يجري صبّت له ماما مومين القهوة، وقام شخص آخر بفتح الرّزمة الّتي فيها القبعة ووضعها على رأسه الأشعث.

جلس بلا حراك وحاول أن يشخص ببصره ليتفحّص القبعة التي على رأسه. ولم يتناول شيئًا من القهوة.

– «جرّب بعض الحشيش البحري،» اقترحت ماي الصَّغيرة، وهي تناوله إحدى الهدايا الملفوفة بورق الشّجر الأحمر.

– «يمكنك أن تأكلي هذا بنفسكِ!» قال صيّاد السّمك بلهجة مؤدبة، فضحك الجميع. كان من المدهش فعلًا أن يسمعوه يقول شيئًا ملائمًا جدًّا. وفي الحال ساد الحفلة جوّ أكثر استرخاءً. وهكذا شرعوا يتبادلون الحديث في ما بينهم بسهولة وتركوه فترة لشأنه. بعد هنيهة شرب رشفة قهوة. فامتعضت قسمات وجهه وسارع إلى أخذ ثمانية مكعّبات من السّكر وابتلع الكومة كلّها دفعة واحدة.

بعدئذٍ فتح هديّة مومين ترول. كانت الرّزمة تضمّ أشياء سبق أن تركها مومين ترول على الشّاطئ لفرس البحر، قطع زجاجيّة صغيرة وحصى وأربعة أوزان نحاسية. تأمّل صيّاد السّمك الأوزان برهة، وقال: «هه!» ثمّ فتح آخر هديّة وأخرج الصدفة المنقوشة بعبارة «هديّة من السّاحل» وقال: «هه!»

– «هذه أفضل ما في المجموعة،» هتف مومين ترول. «لقد دفعها البحر إلى الشّاطئ.»

– «أحقًّا!» قال صيّاد السّمك وهو ينظر إلى درج المنضدة السّفلي.

نهض وسار ببطء نحو المنضدة. راقبته العائلة باهتمام. ودُهش الجميع لأنه لم يشكرهم على هداياهم.

بدأ الظّلام يهبط، ولم يتخلّف من أشعة الشّمس الغاربة إلّا لطخة صغيرة حطّت على شجرة التفّاح المرسومة على الجدار. أما الشّمعات الثلاث فواصلت احتراقها بثبات.

رأى صيّاد السّمك عشّ الطّير على المنضدة.

– «ينبغي أن يكون هذا في المدخنة،» قال بصوت حازم. «بقي هناك لسنوات.»

– «ارتأينا أن نعلّقه خارج النّافذة،» أجابت ماما مومين بنبرة معتذرة. «إلا أن الفرصة لم تسنح لنا لنفعل هذا...»

وقف صيّاد السّمك أمام المنضدة ينظر في المرآة. حدّق في قبعة بابا مومين ثمّ تأمّل قسمات وجهه الغريبة عنه. بعدئذ استقرّت عيناه على أحجية الصّور المقطّعة. أمسك قطعة ووضعها فورًا في مكانها المناسب، وبحركات قصيرة حاسمة وضع بقيّة القطع في أماكنها، والعائلة تقف خلفه تراقب ما يفعله.

وهكذا أكمل الأحجية الّتي أسفرت عن صورة طيور تحلّق حول المنارة. والتفت بعدئذ نحو بابا مومين.

– «إني أتذكّر الآن،» قال. «أنا وأنتَ نعتمر القبّعة غير المناسبة.»

نزع القبعة الّتي على رأسه وناولها لبابا مومين. تبادلا القبّعات من غير أن يقول أحدهما شيئًا للآخر.

لقد عاد حارس المنارة.

زرّر سترته المخمليّة، وشدّ حمّالات بنطلونه. ثمّ ذهب إلى الطّاولة، حمل قدحه وقال: «أهناك مزيد من القهوة؟»

أسرعت ماما مومين إلى الموقد. وجلس الجميع إلى الطّاولة، لكن كان من الصّعب بمقام العثور على شيء يقولونه. أكل حارس المنارة قطعته من قالب الكيك بينما راقبته العائلة باستحياء.

– «رسمتُ قليلًا على أحد الجدران،» أشارت ماما مومين بطريقة خجولة.

– «هذا ما أراه،» قال حارس المنارة. «منظر طبيعيّ. أفترض أن هذا يُحدث تغييراً. وهو رسم جيّد أيضًا. أفكّرتِ ما المشهد الّذي سترسمينه على الجدار الآخر؟»

– «خريطة ربّما،» أجابت ماما مومين. «خريطة الجزيرة، تبيّن مواضع الصّخور ومواضع المناطق المستوية، وربّما عمق الماء أيضًا. زوجي بارع في قياس عمق الماء.»

هزّ حارس المنارة رأسه بإعجاب. وهذا سرّ بابا مومين كثيراً لكنّه مع ذلك بقي عاجزاً عن حمل نفسه على قول أيّ شيء.

تنقّلت عينا ماي الصّغيرة المشعّتان من واحد إلى آخر. بدت مستمتعة

بشكل هائل، وكما لو أنّها بصدد التعليق بشيء غير مناسب بتاتًا، بيد أنّها لم تفعل.

احترقت شمعتان حتّى نهايتهما وسالتا على قالب الكيك. كانت الدّنيا مظلمة، وفي الخارج واصلت الرّيح عصفها. أما الدّاخل فساد فيه الهدوء. نادرًا ما اختبروا مثل ذلك المساء الوديع.

خطرت الغروك على بال مومين ترول. لكنّه لم يشعر أنّ عليه التّفكير فيها. هو سيراها لاحقًا كالمعتاد، مع أنّه غير مُضطّر إلى ذلك. بطريقة ما عرف أنّها ما عادت تخشى التعرّض لخيبات الأمل.

أخيراً قال بابا مومين شيئًا.

– «لديّ صندوق المشروب ذاك عند رأس الجزيرة الخاصّ بك. أتظنّ أنّ الرّيح ستفتر قريبًا؟»

– «عندما تهبّ عاصفة جنوبيّة غربيّة يمكن أن تستغرق أسابيع عّدة قبل أن تستنفد قوّتها. صندوقك بأمان فلا تقلق،» أجاب حارس المنارة.

– «يخطر لي أن أخرج وأتفقّد الجوّ لبعض الوقت،» أعلن بابا مومين وهو يحشو غليونه. «أتظنّ أن المركب بخير؟»

– «لا تقلق،» طمأنه حارس المنارة. «هناك قمر جديد، ولذلك لن يرتفع الماء أعلى ممّا فعل.»

ذابت الشّمعة الثالثة، وبقي وهج نار الموقد وحده يشعّ على الأرضيّة.

– «غسلتُ ملاءاتكَ،» قالت ماما مومين، «على الرّغم من أنّها كانت نظيفة. سريركَ ما زال في مكانه القديم نفسه.»

– «شكرًا جزيلًا،» قال حارس المنارة، وهو يغادر الطّاولة. «أعتقد أنني سأنام في العليّة اللّيلة.»

تبادلوا التّمنّيات بليلة هانئة.

«أنمضي ونتفقّد رأس الجزيرة؟» سأل بابا مومين ابنه. فهزّ مومين ترول رأسه.

خرج بابا مومين ومومين ترول ووقفا على صخرة المنارة. كان القمر الجديد يبزغ من الجنوب الشّرقيّ. هلال صغير؛ بداية شهر جديد، شهر خريفيّ معتم. مشيا صوب الخلنج.

– «بابا،» هتف مومين ترول. «لديّ ما أقوم به على الشّاطئ. يجب أن أقابل أحدًا هناك.»

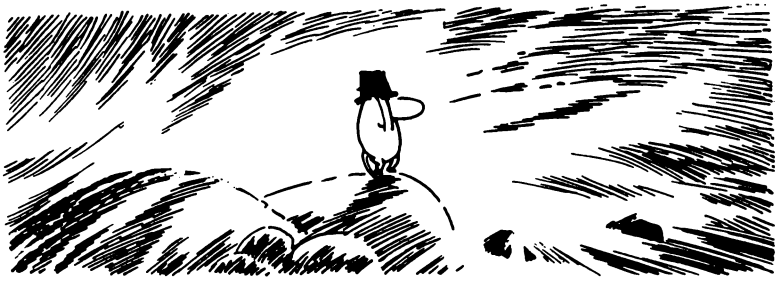

– «حسنًا،» أجاب بابا مومين. «أراك غدًا. إلى اللقاء.»

– «إلى اللقاء،» قال مومين ترول.

مضى بابا مومين يشقّ طريقه في الجزيرة. لم يكن يفكّر في صندوق المشروب أو في رأس الجزيرة على وجه التحديد. ما أهميّة رأس جزيرة واحد؟ هو في الواقع لديه العديد من الرّؤوس.

وصل إلى حافّة الماء ووقف يراقب الأمواج المتدافعة. وأمامه يمتدّ البحر؛ بحره هو، وأمواجه تمور، موجة بعد موجة، يرغي بتهوّر، ويزبد بشراسة، وفي الوقت نفسه ساكن بطريقة ما. تبخّرت جميع أفكار بابا مومين وتخميناته. شعر أنّه مفعم بالحياة من قمّة أذنيه إلى طرف ذيله. تلك كانت لحظة تستحقّ أن تُعاش إلى أقصى حدّ.

عندما استدار لينظر إلى الجزيرة؛ جزيرته، أبصر شعاع ضوء مسلّط على البحر، يمتدّ نحو الأفق، ثمّ يعود ثانيّة إلى الشّاطئ بتموّجات طويلة منتظمة. كانت المنارة تعمل.

telegram @
yasmeenbook

توفه يانسون

توفه يانسون ١٩١٤- ٢٠٠١ هي الابنة البكر لعائلة تميزت بالحس الفني. كان والدها فيكتور يانسون نحاتا معروفا، ووالدتها رسامة اسمها سيني هامر يانسون. في سنة ١٩٦٨ كتبت توفه يانسون كتابا بعنوان Bildhuggarens dotter وصفت فيه عائلتها البوهيمية الفنية، وطفولتها في ظلّ هذا الجو في مدينة هلسنكي حيث كانت تقطن العائلة. كان فصل الصيف يعني لها كثيرا حيث درجت على قضاء إجازتها في الريف الفنلندي الغني بجزره وشواطئه.

في ذلك الجوّ، كان امتلاك توفه للميول الفنية أمرًا متوقعا. أنهت دراستها الثانوية في الخامسة عشر من عمرها، ودرست الفنون في هلسنكي وباريس. سافرت إلى عدة مدن أوروبية، وعرضت فيها نتاجها الفني.

ظهر أول كتبها عن المومين سنة ١٩٤٥، وكانت تنشر كتاباتها موقعة بإسم سنورك في مجلة غارم التي درجت آنذاك على نشر الرسوم المضحكة التي تمازح السياسيين وغيرهم، ثم حولت شخوصها إلى أبطال لقصصها في مجموعة قصصية سُميتْ بكتب المومين، وهي مجموعة لقيت رواجا منقطع النظير في أوروبا والعالم كله، ونقلت إلى ما لا يقل عن ٤٠ لغة. وتحولت أيضا إلى أفلام ومسرحيات في الراديو والتلفزيون.

حصلت توفه يانسون على جوائز أدبية عديدة؛ منها جائزة هانز كريستيان اندرسين في عام ١٩٥٣ وفي عام ١٩٧٢ حصلت على جائزة موربا كا السويدية، وجائزة فنلندا التقديرية عام ١٩٩٣، وجائزة الأكاديمية السويدية عام ١٩٩٤.

telegram @
yasmeenbook

تُوفه يانسون مع شخوصها

حكاية عميقة مؤثرة عن روح يائسة تسعى جاهدة لتشعر بالحياة من جديد.

يجد بابا مومين نفسه في أحد الأيام أسير حيرة مرّة، إذ لم تعتملِ في ذهنه أي افكار عما يمكن أن يشغل نفسه به وقد أنجز كل شيء من حوله. لذا يقرر اصطحاب عائلته إلى مكان آخر ليبدأ الجميع حياة مختلفة من الصفر. الوجهة التي حددها لتكون نقطة البداية كانت جزيرة صغيرة نائية فيها منارة هائلة ما انفكّ يتخيّلها ويحلم ببسط سيطرته عليها. كان مقرّ عائلة المومين الجديد معزولاً وهادئًا نوعًا ما. لكن، حالما بدأوا يسبرون أغوار محيطهم الغريب عن كثب، تكشّفت لهم أمور مدهشة ولطيفة عن خبايا أنفسهم.

telegram @yasmeenbook

ISBN 978-91-87333-35-4
9789187333354

دار المنى